

السيرة القيادية لخاتم الأنبياء

السيد عباس نورالدين


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح ايمانه
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد ﷺ القائد

السيرة القيادية لخاتم الأنبياء

السيد عباس نورالدين

الطبعة الأولى بيروت 2012

مركز بـاء للدراسات
بيت الكاتب للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 009611477233
www.baabooks.com



السيرة القيادية لخاتم الأنبياء

دراسة في التجربة القيادية للرسول الأكرم ﷺ

السيد عباس نورالدين

قسم الدراسات القيادية

مركز بــاء للدراسات

المحتويات

تقديم

الحمد لله ربّ العالمين

اللهمّ.. أسألك أن تصلّي على محمّد عبدك المنتجب في الميثاق، القريب يوم التلاق، فاتق كل رتق، وداع إلى كل حقّ، وعلى أهل بيته الأطهار الهداة المنار دعائم الجبّار، وولاة الجنّة والنار.

نشأت فكرة الكتاب الأساسية من إدراكنا أنّ البعد القيادي في شخصية النبيّ وفي شخصية أي إنسان كامل تمثّل أكبر وأهم تجلٍّ لشخصيته المعنوية ومقاماته الروحية. فالإهتمام بالمخلوقات والحياة الدنيا وشؤوناتها والإلتفات إلى هذه الصناعة الإلهية يُعدّ علامة أساسية على حسن العلاقة والإرتباط المتين بالله تعالى. العارف الحقيقي لا يمكن أن يقف موقف اللامبالاة من كل هذه الأكوان ليعتبره مجرّد إمتحان أو اختبار أراد الله تعالى له فيه أن لا يمدّ عينيه إليها وإلى محتوياتها التي تثير الشهوة وتشغل البال!

نظرتنا إلى العالم تغيّرت، وتبدّلت معها نظرتنا إلى الله وإلى أفعاله الحكيمة. ورأينا مع هذا معنى جديداً لحقيقة ما جرى وما يجري. وشاهدنا في أول الأمر أنّ أنبياء الله وأولياءه الكمّل لا يمكن أن لا يكونوا محور عملية الخلق والصناعة.

إن العلاقة بين الكون والنبي هي علاقة تفاعلية ويجب علينا أن نكتشفها ونتعرف على أبعادها. لقد أعطى الله تعالى أنبياءه كل هذه العوالم بما فيها من كائنات وتفاصيل من أجل أن يقوموا بعمل ما تجاهها. فهي عبارة عن الموارد



الإلهية التي يجب عليهم أن يستفيدوا منها بأفضل صورة لتحقيق أهداف محدّدة. وهذه هي القيادة!

فالموقف العنائي الكبير والتفاعل الإيجابي المميّز بين الوليّ والكون يجب أن يظهر بصورة مشروع ومخطط واضح. ومهمتنا السعي للإكتشاف؛ وذلك لسببين؛ الأول: الإقتداء والسير على الخطى. والثاني: المشاركة بالمؤازرة والنصرة. وبهذا نضمن أن يكون مسيرنا في الحياة مهتدياً وهاديا.

وقد بدأت قصتنا مع نبيّ الإسلام العظيم من نقطة البحث عن غايته وأهدافه لأنها سترسم معالم الطريق ومراحله الأساسية. وبمعرفة هذه المعالم سنقدر على فهم المواقف الجزئية والأحداث التفصيلية فهماً صحيحاً. إنّ هذه العملية تشبه البحث عن النظرية العامة التي تفسّر الجزئيات تفسيراً يمكن الإستفادة منه في يوميات حياتنا، وفي الخط العام الذي يجب أن ننتهجه.

وكلما أوغلنا في معرفة الأهداف النبوية الشريفة، تكشّفت لنا أبعاد الخطة الرسالية، وتبين لنا أننا أمام قائد عظيم، يعلّمنا كيف ينبغي أن نعطي الأولوية للأهداف البعيدة، وكيف ينبغي أن نفكّر لامتلاك رؤية استراتيجية. وعندها يصبح للصبر والإيثار والتحمّل والجهاد معنى أجلى وقيمة أكبر!

لن أشير في هذه المقدمة إلى هذه الدروس، فهذا ما ستتكفل به صفحات هذا الكتاب؛ لكنني آمل أن يكون هذا البحث قد ساهم في بناء منهج جديد للتعامل مع السيرة النبوية، يستطيع معه طلاب الحقيقة الإغتراف من النبع اللامتناهي للدروس وكشف قوانين العالم وسننه الكونية.

من المتوقع أن تثير بعض الأفكار ردود فعل، نظراً لمخالفتها للنمط السائد والنتائج المسلّمة عند الكثيرين؛ لكنني أتوقع أن يكون التفاعل معها علمياً إحترافياً. وصحيح أننا لم نضع لهذا الحقل من العلوم أصوله، التي يمكن الإنطلاق منها لحل الكثير من الإشكالات، لكن العلوم الأخرى التي صارت موغلة في العمق والمتانة، يمكن أن تمدّنا بالكثير من المبادئ والقواعد.

ومن هنا، نجد أن الأصول الإعتقادية المتعلقة بالنبوة وشخصية النبي ومقاماته المعنوية (والتي تعرّض لها علم العرفان الأصيل) تساهم بصورة كبيرة في فهم ما جرى في التاريخ. كذلك، تساهم رؤيتنا المستوعبة لسير المجتمعات وما وصلنا إليه من نتائج مهمة على صعيد علم الإجتماع إلى إلقاء نظرة أعمق على طبيعة المسائل والقضايا التي وجدت في تلك الأزمنة.

فلا ننسى أن تاريخ السيرة النبوية قد كتب بأيدي أشخاص. ورغم سعي بعضهم للحيادية، تأثّروا بنظرتهم للمجتمع والحياة البشرية في عصرهم. وقد ترك هذا التأثر بصماته الواضحة على طريقة تناولهم للقضايا، وحجمها ونوعيتها.

***

في زماننا هذا، حيث تزداد الحاجة إلى القادة الحقيقيين، نتلمس الحاجة إلى وجود نظرية إسلامية أصيلة للقيادة يستلهم منها كل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين. وقد يُقال أنّ القيادة ليست علماً بل هي نوع من الفنون التي تؤخذ من التجارب. وأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «وفي التجارب علم مستأنف». فإذا استطعنا أن نستنبط الدروس والمعارف الأساسية من التجارب الواقعية فتح لنا باب عظيم للعلم. لكن شرط الإستفادة من التجارب أن نلمّ بأبعادها الأساسية وظروفها المحيطة، حتى تتحقق أمامنا جميع العناصر الفاعلة في التجربة.

وتوفّر لنا سيرة النبي الأكرم ﷺ فرصة عظيمة في علم التجارب وفيما يتعلق بالقيادة، وذلك لأنها جمعت كل ما يمكن أن نحتاج إليه في دراسة تجربة قيادية من الطراز الأول تغنينا عن جميع التجارب الأخرى!

فوجود إنسان كامل ومعصوم على رأس التجربة الإجتماعية يمثّل عنصراً أساسياً في جعلها غنية في دروسها والمعادلات التي ستقدمها لنا؛ ذلك لأنه لا يمكن أن يكون في موقع الإنفعال، لتختلط علينا مواقفه فيضيع بذلك نهجه. إنه شخص تعالى أن يكون محلا للتأثر، فصار بفضل هذا سبباً لنقل الجميع إلى حالة التأثر والإنفعال؛ مما أعطى للتجربة حيويتها المطلوبة. وذلك عندما



تمكّن من جرّ جميع القوى الفاعلة في المجتمع إلى الخوض في تجربته والتصرف بحسب قواعده التي سيرسمها لهم تباعاً.

وهنا لن نكون أمام تجربة إجتماعية تشارك مجموعة كبيرة من الشخصيات والمؤسسات في صياغتها؛ وعلينا أن نتعرف على أهداف كل منها، وطبيعة تفاعله، والدوافع التي تحرّكه، وكيف انفعل إزاء هذا الموقف أو ذاك!

كنت أطالع قبل عدة أيام كتاباً حول دور بريطانيا في تشكيل الشرق الأوسط الحالي، ولفت نظري الصعوبة التي واجهها الكاتب، وواجهنا بها، وهو يسعى للتعرف على الرجال والنساء الذين ساهموا في صياغة السياسات الإستعمارية لبريطانيا تجاه الشرق الأوسط. وفي لجّة هذا البحث، لا يستطيع الكاتب أن يعرف حقيقة ما جرى والدوافع الأساسية والمصالح الواقعية، وهو يستمع إلى عدد لا بأس به من الأشخاص حول رؤيتهم للأمور ويسعى للبحث في واقع إنجازاتهم؛ ليضع ذلك كلّه في النهاية في قالب الوقائع والأحداث ويطابق بين الأقوال والأفعال!

أما السيرة النبوية فإن أهم ما فيها قدرة النبي الأكرمﷺ على جعل الأمور كلها تدور حول محور واحد وواضح لا لبس فيه ولا غموض.

وإذا كان فن القيادة يدور حول الإستفادة من الموارد والإمكانات، فإن رسول اللهﷺ مثّل بقيادته الإلهية تلك التجربة التي استوعبت كل الواقع بكل موارده وإمكاناته، نظراً لما تضمّنته شخصيته الفريدة من قدرة هائلة لمعرفة تلك الموارد والإحاطة بها والتأثير عليها. فهنا لن يفوتنا شيء قد يساهم في التجربة سلباً أو إيجاباً؛ والنبيﷺ سيتمكّن من وضع جميع العناصر الفاعلة على مضمار السير نحو أهدافه الربانية.

وبناءً على هذا نقول أنّ تجربة النبي القيادية أمّنت لنا فرصة عظيمة لدراسة معنى القيادة وكيفيتها وهي تخوض أعمق التجارب وأوسعها.

إن تجارب القادة الذين كان لهم تأثيرات مهمة على ساحة الحياة البشرية

ومسار التاريخ، تبقى محكومة للأهداف التي كانوا يسعون إليها. وبالتأكيد لن نجد قائداً ظهر في التاريخ (وخصوصاً التاريخ المعاصر الذي حفل بأمثال هؤلاء) وهو يسعى لإحداث تغييرات بعمق وسعة ما كان يهدف إليه رسول الإسلام ﷺ.

القادة الدنيويون يترتبون على حسب المدى الذي حلموا بالوصول إليه، على صعيد التوسع الجغرافي والمصالح الدنيوية. ولم يكن أفق نظرهم ليمتد إلى ما هو أعلى من الثروة والقدرة والمساحة المادية. وإنجازاتهم الأرضية يسهّل التعرف عليها وتحديد آثارها.

أما قيادة الأنبياء والأولياء فإنّها تمتد في الزمان والمكان إلى حيث لا تسعه الأوهام. فما من نبيّ بُعث إلى الناس إلا وكانت الساعة غايته والقيامة وما بعدها هدفه. فأفق النبوّة متّصل بالآخرة، ولهذا لا يخططون ولا يتحركون إلا على أساس هداية البشرية نحو سعادتها المطلقة التي تتحقق في تبديل الأرض وطيّ السموات. وهنا تتصل الأرض التي تعبر عن كل المكان بالسماء، بل بالسموات، التي تعبّر عن الزمان كله. ولأن هذه الحركة الجوهرية لا يمكن أن تحدث إلا بقيادة الإنسان، يجب أن يشركوا الناس جميعاً بها، حيث تسري التغيرات المعنوية إلى الأكوان؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وعليه، يكون الإنسان محور عملية التغيير تحت قيادة المصلحين الإلهيين. وتكون هذه القيادة متوجهة بالدرجة الأولى إلى عوامل تربية الإنسان وهدايته.

ليس الإنسان في التربية الإلهية مجرّد أداة يحرّكها السياسيون كيفما شاؤوا. بل هو التغيير.

إنّ القادة الماديين لم يروا في الإنسان سوى الأداة، وإن تطورت أساليبهم من تحريكه بالقوة والعنف والإغراء إلى تحريكه بالعاطفة والإحترام والتقدير؛ فالإنسان عندهم هو الأداة لا غير.

أما الإنسان في النظرة الإلهية، فهو الموجود الذي ينبغي أن ترتقي قدراته

وتتفعّل قابلياته إلى الدرجة التي يصبح فيها صانعاً حقيقياً وفاعلا أساسياً، يمتلك القدرة العظيمة والإختيار الكامل!

ومثل هذا الإنسان، لا يمكن صناعته أو تفعيل قابلياته إلا إذا شارك هو نفسه وبملء إرادته في هذه العملية. وهنا يكمن جوهر القيادة النبوية.

فعلى هذا الأساس نحن مدعوون لدراسة أعظم تجربة قيادية في الوجود، صارت مدرسة فريدة لكل العاملين والمسؤولين والقادة أينما وُجدوا.

***

إعلام وتقريظ

في النهاية أرى من واجبي وعظيم تقديري أن أنوّه بدون مبالغة بأنّ هذا العمل ما كان ليبصر النور لولا الجهود الإستثنائية لكل من عزة فرحات وندى حيدر وفادية مروة. فقد قدمن الكثير من الملاحظات والشواهد، وشاركن في تطور العمل وإخراجه، بحيث يرى الكاتب نفسه مديناً بشكل تام لجهودهن الكبيرة.

كما وأود أن أشكر الإخوة والأخوات العاملين في مركز باء على الملاحظات والتشجيع وحسن الظن وتجاوز الأوقات العصيبة التي يتطلبها مثل هذا العمل في مدته الإستثنائية التي لم تتجاوز الأيام العشرة.

شكر خاص كذلك إلى الأخ الفنان علي عليق.

السيد عباس نورالدين

بيروت محرم الحرام 1433

تمهيد

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أروع تجربة قيادية عرفتها البشرية، لم ولن يكون لها نظيرٌ، ما وُجد إنسان على وجه البسيطة؛ ذلك لأنّها تجربة أعظم إنسان ظهر في عالم الوجود، وتحقّق على يديها أعظم الإنجازات التي يمكن أن تحلم بها البشرية، وسوف يتحقّق أيضا ببركة قيادته ما هو أعظم عندما يظهر حفيده المهدي المنتظر الذي يحمل رايته ليملأ الأرض عدلاً ويظهره على الدين كلّه.

سيتبيّن لنا أنّ هذه التجربة بدأت لكنّها لم تنته لحدّ الآن؛ بل ما زلنا نعيشها وإن كنا لا نشعر، وأنّ ما يجري في أيامنا إنّما هو بفضلها وبفضل إنجازاتها. فالرسالة الإسلامية التي هي أهم ما في هذه التجربة ما زالت تخوض معركتها مع الباطل أينما وُجد، وما زالت سيرة الرسول ﷺ الملهم الأكبر لكلّ القادة الذين يريدون أن يسيروا على طريق الحقّ أينما وُجدوا..

وعلى هذا الأساس، فإنّ تجربة النبي الأكرم ﷺ لن تكون مجرّد مادّة للتاريخ، بل هي سيرة وسنّة وقدوة نستلهم منها كل ما نحتاج إليه على صعيد فهم المجتمعات وحراكها وسيرها وقياداتها وو..

والملفت بشكل أساسيّ أنّ حجم الإنجازات التي تحقّقت على يدي هذا الرسول العظيم، والتي هي أكبر بكثير ممّا يمكن لنا الإحاطة به، قد انطلق في سرعة قياسية مذهلة وبإمكانات مادية لا يمكن اعتبارها شيئاً مذكورا. ونحن عندما

نريد أن ندرس أيّة تجربة قيادية في العالم لتقييمها ومقارنتها بسواها، علينا أن نأخذ الأمور التالية بعين الاعتبار:

أولا: حجم الإنجازات.

ثانيا: الإمكانات والموارد المتاحة.

ثالثا: السرعة التي تحقّقت فيها الانجازات.

ولا شك بأنّ حجم الإنجازات لا يمكن تحديده إلا إذا التفتنا إلى الوضع السابق والوضع اللاحق. فلا يكفي النّظر إلى النتائج. فالإنتقال بشيءٍ ما من الصفر إلى العشرين يفوق حتماً الإنتقال بهذا الشيء من خمسين إلى ستين. ولا يكفي أن نلاحظ العشرين والستين حتى نقول أنّ الستين هي أفضل من العشرين وأنّ النقلة الحاصلة إذن هي أفضل.

وعندما ننظر إلى تجربة النبي الأكرمﷺ وما حقّقه خلال مدّة قصيرة جداً لعلّها في أفضل التقادير لا تتجاوز 23 سنة، إذا حسبنا بداية التحرّك منذ بداية البعثة ونزول الوحي، وتعرّفنا على الإمكانات والموارد التي كانت متوافرة بين يديه منذ البداية سواء كانت مالية أو بشرية أو غيرها، فإنّنا لن نجد لما أنجزه أي نظير في تاريخ البشرية ماضياً وحاضراً.

ولهذا، اعتُبر الرسول الأكرمﷺ عند العقلاء أعظم قائد عرفته البشرية؛ هؤلاء العقلاء الذين لم يطّلعوا بسبب ما أوتوا من العلم إلا على القليل من الإنجازات النبوية. واكتفوا بالنظر إلى الإنجازات الميدانية والنتائج الاجتماعية. حيث كانوا مذهولين بما رأوه من تحوّلٍ حضاريٍّ هائلٍ في مجتمعٍ كان أبعد ما يكون عن الحضارة والمدنيّة والقيم الإنسانية.

فقد بُعث رسول اللهﷺ إلى قوم وقفوا في البداية سدّاً منيعاً وحاربوه بكلّ ما أمكنهم حتى لا يسمحوا له بتحقيق ما أراد الله تعالى؛ لكنه، وبفضل قيادته الإلهية، استطاع في النهاية التغلّب على كل هذه الموانع وقام بتبديل العرب إلى

قوّة مساندة لما أراده في المرحلة الأولى.

كيف تمكّن هذا النبي العظيم من تحقيق كل ذلك؟ كيف استطاع أن يعبر بالرسالة كل تلك الموانع؟ وما هي الدروس المستفادة من تجربته القيادية هذه؟

ولا بأس بأن نشير إلى أنّ استنباط هذه الدروس والمعادلات، التي نحتاج إليها في مساعينا الإجتماعية القيادية، يتطلّب ملاحظة مجموعة من الأمور في التجربة القيادية عند رسول الله ﷺ؛ أهمّها:

1. **حتمية النصر والفوز:** الإيمان بأنّ تجربة الرسول ﷺ كانت تجربة هادفة؛ وأنّ رسول الله ﷺ قد حقّق كل ما كان يهدف إليه لأنّه منصورٌ من قبل الله تعالى.

2. **البعد الزماني:** إنّ تحقيق الأهداف قد لا يكون في زمن التجربة أو الجهاد، بل ربما يتطلّب عصوراً مديدة.

3. **البعد القيمي:** إنّ ما يهدف إليه الأنبياء هو بالدرجة الأولى صناعة الإنسان وبثّ القيم الإلهية بين الناس. وإنّ الحكومة والسلطة هي مقدّمات لتلك الأهداف.

4. **عظمة الشخصية:** إنّ رسول الله ﷺ كان محيطا بكلّ التجربة منذ البداية، وهو لا يشبه القادة العاديين الذين يتعلّمون من التجربة.

ولهذا، فإنّ علينا أن نسلّط الضوء بالدرجة الأساسيّة على البعد الغائي في هذه التجربة لنكتشف الأهداف التي حقّقها الرسول ﷺ والتي كان مدركاً لها منذ البداية، وأنّه صلوات الله عليه وآله لم يتفاجأ أبداً بما واجهه من موانع وخيانات على الطريق.

ويمكن القول أنّ رسول اللهﷺ كان يعلم جيداً ما سيكون عليه العرب في حياة الرسالة وعصر صدر الإسلام وكذلك ما بعد انتقاله من هذه الدنيا، ولهذا، فقد حدّد أهدافاً واضحة للمرحلة التي يكون فيها العرب محور الدعوة وحملة الرسالة أولاً؛ ومن ثم حدّد أهدافاً بعيدة المدى لمن سيأتي الله تعالى بهم يحبّهم الله ورسوله، يحملون راية الإسلام ونهج الرسالة بقوّة حديدية ليحقّقوا الأهداف النهائية. وأنّ الأمر سيحتاج إلى زمن طويل تمرّ فيه البشرية بتحوّلات مهمّة على صعيد ارتباطها برسالة السماء وبرنامج الوحي الإلهي.

متطلّبات الدراسة الصحيحة لتجربة القيادة الرسالية

الإيمان بالمبادئ الأساسية للدين الإلهي؛ كالتوحيد والولاية والمعاد..

الإنطلاق من الثوابت التاريخية؛ وهي الأحداث والإنجازات الكبرى التي تندرج تحت عنوان الدراية لا الرواية.

الإلتفات إلى المسار الزمني للأحداث والوقائع وترتيبها ترتيباً صحيحاً متدرّجاً.

المعرفة الصحيحة للواقع بكل ما كان يمثّله من تحدّيات وموانع وإمكانات.

الإعتقاد بأنّ حركة الرسول وقيادته كانت هادفة منذ البداية؛ وأنّ ما كان يؤمن به من تعاليم يجتمع فيما بينه ليمثّل الخطّة الشاملة التي كان يتحرّك على أساسها.



السيرة القيادية لخاتم الأنبياء

دراسة في التجربة القيادية للرسول الأكرم ﷺ


القائد يحدد هدفه أولا
فتح أبواب السموات
لتكون طريقا إلى لقاء اللّه

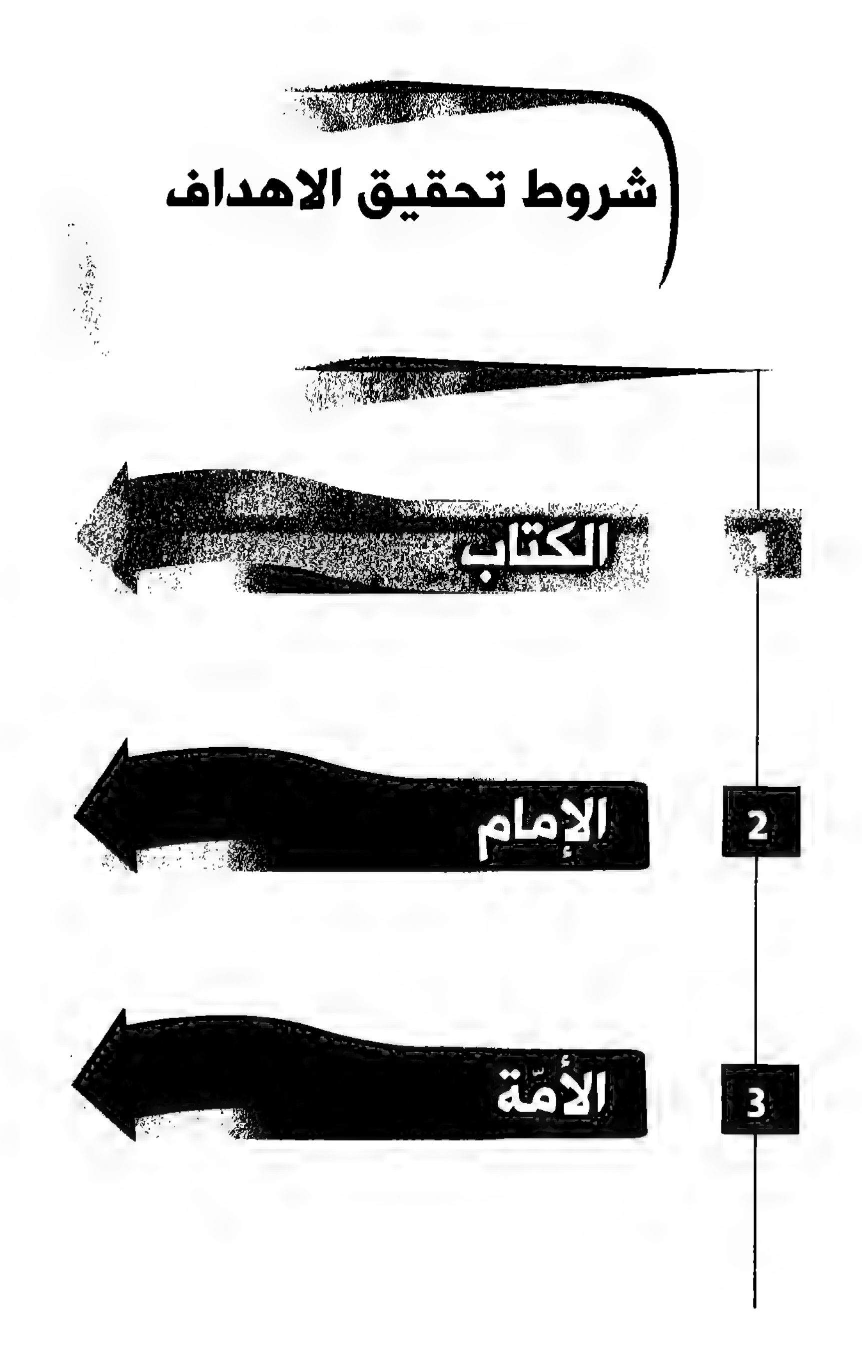
الأهداف المرحلية

1. صناعة الأمّة الإسلامية النموذجية

2. خروج الأمّة للناس كافة

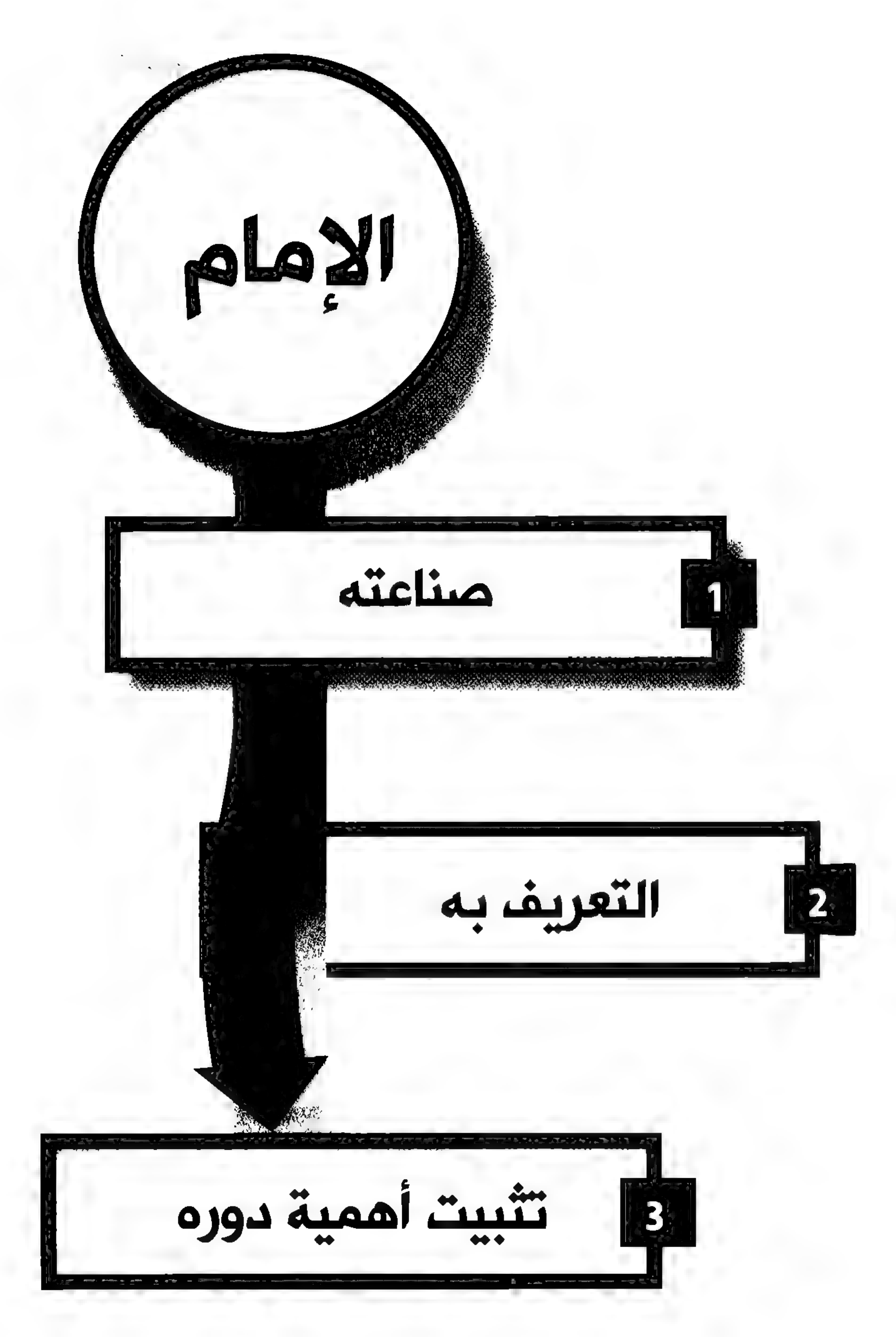
3. إقامة القسط والعدل في كل العالم

شروط تحقيق الاهداف





الكتاب
1
استنزاله
2
تبيينه للناس
3
حفظه من أجل تطبيقه


الإمام
1
صناعته
2
التعريف به
3
تثبيت أهمية دوره


الأمة
1
استنقاذها من الضلالة
2
توحيدها
3
إخراجها للناس

القدرات التي حصل عليها الرسول الأكرم

العلم المطلق

القدرة المطلقة

الرحمة المطلقة

مقام الإسم الأعظم


كيف حصل الرسول ﷺ
على هذه الإمكانات؟
النزاهة من الجاهلية
الصدق والأمانة
تمني تغيير العالم وإص
حب جميع الخلق(رحم

الموانع والمعيقات امام القرآن

ثقافة الجاهلية

القوة الإعلامية للشعر

النظام السياسي الطاغوتي

مدّعو الإيمان

موانع ومعيقات الإمامة

العصبية القبلية

حب الدنيا

الثقافة الجاهلية


موانع ومعيقات الأمّة النموذجية
الجهالة
استحقار الإنسان
العصبية
القذارة

ما هي أهم إنجازات الرسول في حياته



ثبّت القرآن كتاباً مقدساً بين المسلمين



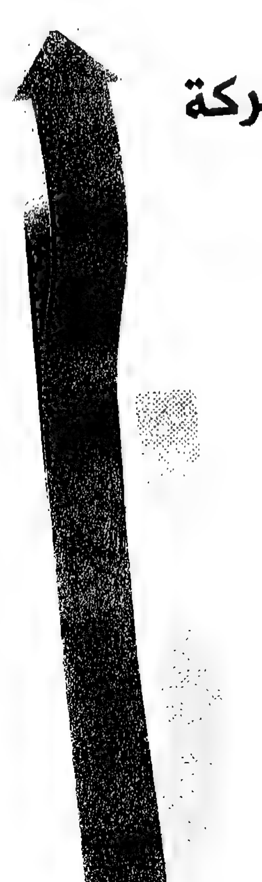
صار المسلمون يرون لأهل بيته منزلة خاصة



اتحد المسلمون ضمن أمّة ذات قيم

كيف حقق الإنجازات

الخطوات العملية لحركة النبي ﷺ القيادية ومراحلها المختلفة



القيادة العظيمة
لرسول الله ﷺ
وأهدافها الكبرى

● اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ... كَمَا نَصَبَ لِأَمْرِكَ نَفْسَهُ وَعَرَّضَ فِيكَ لِلْمَكْرُوهِ بَدَنَهُ وَ كَاشَفَ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْكَ حَامَّتَهُ وَ حَارَبَ فِي رِضَاكَ أُسْرَتَهُ.

[الصحيفة السجادية]

اللهمّ فصلّ على محمد أمينك على وحيك ونجيبك من خلقك وصفيك من عبادك إمام الرحمة وقائد الخير ومفتاح البركة.

الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام

إنّ عظمة كل شخصية إنّما تظهر من خلال خصائصها المعنوية ومميّزاتها الأخلاقية. وهذه الخصائص هي التي تتجلّى في ساحة الحياة والعمل من خلال الإنجازات والأعمال الصالحة، وتُعرف بما تتركه من آثار وبركات في حياة الناس. وإذا وقفنا أمام شخصية محمد بن عبدالله النبيّ الأمين صلى الله عليه وآله لشاهدنا من البركات والإنجازات ما يخلب الألباب ويحيّر العقول، ولرأينا ما يساهم في تقريبنا من إدراك بعض أسرار العظمة الواقعية التي اجتمعت بكلّ درجاتها في شخصيّته المميّزة والتي جعلته أفضل إنسان في الوجود.

وعندما نتحدّث عن الشخصية القيادية وأبعاد القيادة ومميّزاتها في أيّ إنسان، نستحضر مباشرةً كيفية استفادة القائد من الموارد والإمكانات، وهو يسعى نحو الأهداف التي آمن بها وألهمها للآخرين. وهنا يمكن اعتبار التفاوت في درجات الأهداف ونوعيتها علامة فارقة وميزة واضحة للتفاوت بين القادة الذين عرفتهم البشرية وسوف تتعرّف إليهم في المستقبل.

فالهدف والغاية التي يسعى إليها أي قائد هي التي تحدّد معنى التحرّكات والمساعي، وتظهر طبيعة الخصائص والمواصفات التي تتميّز بها شخصيّته. وتحقيق الهدف وإنجازه هو الذي يضع هذا القائد أو ذاك في رتبته قياساً بغيره.

ولهذا كان من اللازم أن نبدأ، في التعرّف على رسول الله ﷺ، من خلال شخصيّته القيادية؛ وعلى شخصيّته القيادية، من خلال أهدافه التي سعى إليها، وحقّقها في حياته، وتحقّق البعض منها، بفضله بعد انقطاعه عن هذه الدنيا (حيث بقي الأهم ليقوم به أحد خلفائه بفضله).

إنّ دراسة سيرة حياة هذا الإنسان العظيم لا يمكن أن تستقيم إلا إذا بدأت من هذه النقطة؛ وللأسف فإن ما كُتب حول السيرة النبوية العطرة طوال التاريخ كان بعيداً عن هذه القضية. ولهذا ضاع الكثير مما كان ينبغي أن يُعرف حول النبي الأكرم ﷺ، لغياب هذا البعد عن توجّه المؤرّخين وكتّاب السيرة. ومن هنا نعلم كيف أنّ فهمنا ومعرفتنا لسيرة أي إنسان إنّما تتأثّر بما كُتب عنه؛ وأنّ ما كُتب عنه يتأثّر بذهنية من يكتب وثقافة من يؤرّخ.

هل يُعقل أن يتّصف رسول الله ﷺ بكل هذه الكمالات، والتي منها صفة الحكمة، ولا يكون هادفاً في حياته؟! أليست الحكمة عبارة عن إيصال الأشياء إلى غاياتها، من خلال وضعها في مواضعها، وذلك ضمن نظام الوجود الحكيم؟ وهل تستقيم الصفات الكمالية الأخرى دون صفة الحكمة؟ وهل يبقى معنى للأخلاق العظيمة، فيما لو لم يتّصف صاحبها بالحكمة والغائية؟!

فكيف يمكن أن نتصوّر رسول الله ﷺ إنساناً مجاهداً وقائداً للخير ومفتاحاً للبركة في عوالم الوجود، وهو لا يمتلك غاية لكلّ تحرّكاته ولا يعيش هدفاً لكلّ حياته؟!

وإذا كان هذا الهدف موجوداً، فما هو؟ وهل استطاع النبيّ ﷺ تحقيقه؟ وكيف قام بذلك؟ وكيف نفسّر هذا التحرّك أو نفهم ذاك الموقف على ضوئه؟ هل يمكن لشخصية بهذه العظمة والفداء أن تغفل عن هدفها لحظةً واحدة؟ وهل يُعقل من مثل هذه النزاهة والعصمة أن تتخلّى عن غايتها أمام الضغوط والمصاعب أو الإغراءات والمناصب؟!

إذاً، نحن هنا أمام إنسان أفنى كل عمره من أجل تحقيق هدف ما.. أمام شخص تحمّل كل ألوان المعاناة والأذى من أجل أن يصل إلى غاية ما.. ويجب أن يكون كل شيء في حياته ومواقفه وكلماته وأقواله مفسّراً لهذه الغاية وتابعاً لهذا الهدف!

أليس من الحريّ أن نبدأ من هذه النقطة ونتعرّف جيداً على هدف الرسول الأعظم ﷺ ونتابعه عبر سيرته ونتقفّى مساره ونستكشف تفاصيله؟

من أين انبعث هدف النبي ﷺ؟

«الرسالة المطلقة الختميّة هي الخلافة الكبرى الإلهية البرزخية وهذه الخلافة هي خلافة في الظهور والتجلّي والتكوين والتشريع ولا يكون للخليفة من عند نفسه أيّ استقلال وتعيّن وإلا لانقلبت الخلافة إلى الأصالة وهذا لا يمكن لأحد من الموجودات. فللسالك إلى الله أن يوصل إلى باطن قلبه وروحه مقام الخلافة الكبرى الأحمدية وبها يكشف الحجاب ويخرق الستور ويخرج بالكلّية عن حجب التعيّن الخلقي فتنفتح له جميع أبواب السموات ويصل إلى مقصده بلا حجاب». [الإمام الخميني، معراج السالكين]

إنّ أعظم الصفات التي يتّصف بها أي إنسان إنّما تتحدّد على ضوء علاقته بالله عزّ وجل. الكمالات التي يصل إليها البشر لا معنى لها إلا إذا كانت نابعة من قربهم من الله. ولهذا كان مستوى القرب، وطبيعة الرابطة والعلاقة مع الله أساس تقييم أي إنسان ودرجته.

وإنّ أهم كلمة يمكن أن تعبّر عن شدّة القرب وحقيقة الإنتماء هي كلمة العبودية. ولهذا نحن نشهد لرسول الله بها في كلّ صلاة نصلّيها ونقدّمها على غيرها، لأنّها منشأ جميع الفضائل وأساس كل الكمالات.

العبودية تعني فناء إرادة العبد في إرادة سيّده ومولاه. فلا يريد إلا ما يريد. العبودية تعني أن لا يرضى العبد بأية مخالفة لمولاه سواء صدرت منه أو من غيره.. ولما كانت ولاية الله تعالى شاملة لكل عوالم الوجود، فإنّ العبودية المطلقة التي تحقّقت لرسول الله ﷺ اقتضت أن لا يرضى هذا النبيّ العظيم بحصول أيّة

معصية في أيّة حضرة أو مرتبة وجودية. ولهذا كان هدفه الأسمى تطهير العالم من العصيان والطغيان غيرةً وحباً.

يقول الإمام الخميني قده: *«ليُعلَم أنّ العبودية المطلقة هي من أعلى مراتب الكمال، وأرفع مراتب الكمال، وأعلى مقامات الإنسانية. وليس لأحد فيها نصيب سوى الأكمل من خلق الله، محمد ﷺ وأولياء الله الكمّل، فله ﷺ هذا المقام بالأصالة وللأولياء الكُمّل بالتبعية. وأما بقية العباد فهم في طريق العبادة عُرج وعبادتهم وعبوديّتهم معلّلة. ولا يُنال المعراج الحقيقي المطلق إلا بقدم العبودية ولهذا قال الله سبحانه ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدّسة إلى معراج القرب والوصول بقدم العبودية والجذبة الربوبية».* [معراج السالكين]

هذه النية الصادقة والأمانة الكبرى التي صاحبتها، جعلت من رسول الله ﷺ مشروعاً كبيراً لتغيير العالم وتبديل الأرض وإصلاحها. فكانت البعثة وكانت النبوة. وعلى ضوء هذا الهدف انبعثت التحرّكات الكبرى بحكمة بالغة ودقّة عجيبة لتحقيقه، ولو طال الزمان. فما هو مهم أداء التكليف والطاعة أما النتيجة فعلى الله. ومن كانت هذه روحيته، فإنّه يكون قد حقّق أهم مقوّمات النجاح ومقدّمات النجاح. ولقد أنجز الله تعالى لرسوله بفضل فنائه في عبوديته أعظم النتائج والتي جعلت البشرية كلها مرتهنة لإحسانه.

منذ اللحظة الأولى التي تفتّحت عيناه على الدنيا وهو يفكر في أمر الله وشأنه العظيم الذي ملأ وجدانه، ويعجب كيف يُعصى وكيف يُخالف. ومنذ تلك اللحظات والنخوة والغيرة على ربّه تهيمن على قلبه. ولم يعد فيه من همّ أو غمّ سوى أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تزول الفتنة التي هي منبع المعاصي في كل العالم. يقول الإمام الخميني قده: *«إنّ ما يقوله القرآن: «حربا حربا حتى إزالة الفتنة من العالم» أي، يجب على الذين يتّبعون القرآن أن يأخذوا بنظر الاعتبار وجوب مواصلتهم القتال ما داموا يقدرون على ذلك حتى تُزال الفتنة من العالم. فهذا الأمر رحمة للعالم، ورحمة لكل أمّة في هذا المحيط الموجود،*

إنّ حروب النبيّ رحمة للعالم ورحمة حتى للكفار الذين حاربهم، فكونها رحمة للعالم من جهة أنها لو لم تكن في العالم فتنة لعاش في راحة واطمئنان، لو توقّف المستكبرون بسبب الحرب عند حدودهم لكانت هذه الحرب رحمة للشعب الذي سيطر عليه ذلك المستكبر. وإنّ تعامل المستكبر كذلك رحمة إذ هو عذاب إلهي لنا على أعمالنا. النبيّ الأكرم ﷺ رحمة للعالمين وكل حروبه التي خاضها والدعوات التي وجّهها كلها رحمة، هذا الذي يقوله: «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة» أكبر رحمة للبشر».[صحيفة الإمام]

فما دام هناك من يفتن الناس بالإغراء والتخويف، فإنّ المعصية والمخالفة لربّ العالمين ستبقى. ولا بدّ من القضاء على الفتنة ليكون الدين كله لله. وإبليس الذي هو رأس كل فتنة هنا وأساس كل معصية على الأرض، يجب القضاء عليه والتخلّص منه؛ لأنه أبلس من رحمة الله وصار أساس اليأس من روح الله؛ وإنما تتبدل الأرض إلى جنة برجاء الرحمة والأمل بروح الله وانتظار الفرج . ولأن إبليس يتحرّك في كل الأرضين، فيجب مطاردته حتى لو تطلّب الأمر عبور السموات كلها. وما دام إبليس يُعبد، فحرمة الله تُهتك. وهذا ما لا يمكن أن يتقبّله عبد كامل كرسول الله ﷺ.

وهنا كان على رسول الله ﷺ أن يشق طريقاً إلى الأرضين السفلى، حتى يصل إلى الأرض السابعة، حيث المقرّ النهائي لهذا اللعين المرجوم. ومثل هذا العمل الجبار سوف يتطلّب صعوداً وارتقاءً إلى السماء السابعة، لأنّ كل سماء تمثّل باباً أو مدخلاً إلى الأرض التي تقابلها (ولكلّ أرض ملكوتها). وكذلك كان لا بدّ لقتل إبليس في الواقع والقضاء على شرّه، أن يُقتل في نفوس الناس، ويُطرد من قلوبهم؛ ومثل هذا لا يحصل إلا إذا عرفوه بعداوته الشديدة، وأكبّوا على منابذته ومحاربته بكل ما أوتوا من قوّة. قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾.[الإسراء، 53]

مهمة ما أشدّها، ومسؤولية ما أعظمها!. فكيف يمكن أن نقنع الناس كلّهم بأن يجعلوا هدفهم في الحياة مواجهة إبليس والتخلّص منه. اللهم إلا إذا أحبوا

الفضائل وعشقوا الكمالات، فصار بينهم وبين عدوّهم اللدود بعد وافتراق! وهل يمكن أن يحبّوا الفضائل ويسعوا لتحقيقها في نفوسهم وهم يعيشون في بيئة تمجّد الماديات وتعلي من شأن الشهوانيات؟! وهل يمكن أن تتغيّر القيم المادية ويتحوّل الناس عن طلب الدنيا ولا يزال همّهم واهتمامهم فيها؟! وهل يمكن أن يزول همّهم وقلقهم على دنياهم دون أن يأمنوا على مستقبلهم؟ وهل يمكن أن يأمن الناس على مستقبلهم الدنيوي ومعيشتهم الأرضية والنهب والسلب والتزاحم والتضاد سائد فيها؟ وهل يمكن القضاء على التكالب والتصارع والتنازع والتخزين والإدخار والعدل غير شامل؟

فما لم تتحقّق العدالة الشاملة في الأرض لن يزول قلق الناس واهتمامهم بدنياهم، لأنّهم سيخافون ظلم بعضهم البعض واستئثار البعض واحتكارهم للثروة والإمكانات. فعندما ننظر إلى مساعي البشر في عالمنا اليوم نجد أنّ معظم الجهود إن لم نقل كلّها تصب في تأمين المعاش وضمانته. وأكثر الجهود التي يبذلونها إنّما هي من أجل أن لا يعيشوا الحرمان في يومهم وغدهم. فهل لأنّ إمكانات الأرض غير كافية لهم؟ وهل أنّ ثرواتها وخيراتها ستنقطع في المستقبل؟!

إننا لو قمنا بدراسة وتحليل ما في الارض من إمكانات وثروات لوجدنا أنها تكفي سكانها لآلاف السنين. هذا، ونحن نتفحصها وندرسها بحسب ما لدينا من أدوات وتصورات. وقد بيّنت الدراسات العلمية الحديثة أنّ إمكانات المواد الموجودة حالياً تفوق أي تصور، وتكفي سكان الأرض ولو بلغوا عشرات المليارات!

إنّه الخوف من أن يستأثر البعض بهذه الثروات، وهو سوء الظن بالله الرزّاق أن لا يرزق! فضعف الإيمان من جهة والخوف الطبيعي الناشئ من ممارسات المستكبرين والطواغيت من جهة ثانية، يجعلان البشر في خوف مستمر وسعي دائم نحو دنياهم. فلو تمّ القضاء على الطغيان والظلم وقُطعت أيادي الاستبداد والاستغلال، وعاش الناس مدّة من الزمن دون قلق وهمّ تجاه رزقهم ودنياهم، لانبعثت فيهم التوجهات الإيمانية وأحسنوا الظنّ بربّهم الذي سخر لهم ما في الأرض جميعا ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: 66].

لا ضمانة لمثل هذا إلا في ظلّ النظام الشامل للعدالة الإلهية، والذي ينتفي فيه كل أنواع الظلم والفساد الإجتماعي؛ ويزول معه القلق من المستقبل الآتي والهمّ المعيشي اليومي. هناك سيتوجه الناس إلى القيم المعنوية والأبعاد الروحانية في حياتهم، وهناك بالتحديد ستتحوّل الدنيا بنظرهم إلى معبر وممر إلى أخراهم. فما كان يحدث على نطاق بعض الأفراد (سلوكاً معنوياً وجهاداً نفسياً) يصبح ظاهرة إجتماعية شاملة ينخرط فيها جميع الناس، ويتسابقون بفضلها نحو الخيرات والكمالات الحقيقية، التي هي سر وجودهم في هذا العالم.

وفي مثل هذه البيئة بالذات سينصرف الناس إلى مواجهة الرذيلة الباطنية، ويتفرّغون للقضاء على الأمراض القلبية والآفات النفسية. وسيسود الإهتمام بالتزكية والتخلص من العقد والمشاكل المعنوية. هناك بالتحديد سيتعرف الناس على عدوّهم الأكبر ويبدأون بالبحث عنه للنيل منه والقضاء عليه.

وسيقود هذا التحرك الكبير إمام عظيم من ذرّية النبيّ الأكرمﷺ . وحينها سيتجه أفق السماء الأولى نحو الاتصال بالأرض السفلى، ليجري عليها نزاع جديد وصراع آخر، يتم فيه النصر والظفر لأتباع النبي والسائرين على نهجه، ولتُطوى سماء، ويبدأ اتّصال سماء وأرض أخرى، سيراً حثيثاً نحو المواجهة النهائية.

ومن أروع ما ذكر بشأن هذه المواجهة ما رُوي في كتاب الرجعة للأسترآبادي:

عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ إبليس قال: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ فأبى الله ذلك عليه، فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ فإذا كان يوم [الوقت] المعلوم ظهر إبليس (لعنه الله) في جميع أشياعه، منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يوم الوقت المعلوم، وهي آخر كرّة يكرّها أمير المؤمنين عليه السلام.

فقلت: وإنها لكرّات؟

قال: «نعم، إنها لكرّات وكرّات، ما من إمام في قرن، إلا ويكرّ في قرنه، يكرّ معه البرّ والفاجر في دهره، حتى يديل الله عزّ وجل المؤمن من الكافر، فإذا

كان يوم الوقت المعلوم كرّ أمير المؤمنين عليه السلام في أصحابه، وجاء إبليس وأصحابه، ويكون ميقاتهم في أرض من أراضي الفرات، يُقال لها: روحاء، قريب من كوفتكم، فيقتتلون قتالاً لم يُقتتل مثله منذ خلق الله عزّ وجل العالمين.

فكأنّي أنظر إلى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام قد رجعوا إلى خلفهم القهقرى مائة قدم، وكأنّي أنظر إليهم وقد وقعت بعض أرجلهم في الفرات، فعند ذلك يهبط الجبّار عزّ وجل في ظُلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر، ورسول الله ﷺ بيده حربة من نور، فإذا نظر إليها إبليس رجع القهقرى، ناكصاً على عقبيه، فيقول له أصحابه: أين تريد وقد ظفرت؟ فيقول: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله ربّ العالمين فيلحقه النبي ﷺ فيطعنه طعنة بين كتفيه، فيكون هلاكه وهلاك جميع أشياعه، فعند ذلك يعبد الله عزّ وجل، ولا يشرك به شيئا، ويملك أمير المؤمنين عليه السلام أربعا وأربعين ألف سنة، حتى يلد الرجل من شيعة علي عليه السلام ألف ولد من صلبه ذكرا، في كل سنة ذكر، وعند ذلك تظهر الجنتان المدهامتان عند مسجد الكوفة وما حوله بما شاء الله».

وبهذا الانتصار المجيد تنطوي الحياة المليئة بالكدح والسعي، لتبدأ حياة القطاف واللقاء. فتقوم الساعة على شرار الناس الذين أعطوا كل الفرص ليكونوا صالحين. ويبدأ يوم الفصل الأكبر، فيتحقق وعد الله بدخول المتقين جنة القرب.

وهكذا نخلص إلى المشاهد التالية:

1. لا بدّ من تحقيق العدالة الشاملة في العالم.
2. بتحقّق العدالة الشاملة يبدأ الناس رحلة البحث عن الفضائل والمعنويات.
3. مع انبعاث هذه الرحلة يتّجه الناس نحو السماوات.
4. هناك تحصل المواجهة النهائية مع إبليس ويتم التخلص من شرّه.

5. حينها تزول الفتنة كلياً ويلتحق الأول بالآخر وينتقل المتقون إلى جنات الخلد.

وقد جاء رسول الله بالخطة الكاملة لإقامة العدالة الشاملة. ودعا الناس للإنخراط في مشروعه الرسالي الذي يستلزم بناء مجتمع إسلامي نموذجي يستقطب البشر كلّهم إليه؛ نظراً لما سيحقّقه من عدالة تمثل الأمنية الكبرى لكلّ الشعوب أينما وُجدوا. وقد اختار الله لرسوله ﷺ المجتمع العربي لينطلق منه.

فهل سيتمكّن العرب من تبنّي قيم الرسالة وإقامة الدين؟ أم أنّهم سيجعلونه وسيلة لنيل الدنيا والعلوّ فيها؟

وهل سيحصل من جرّاء ذلك الاستبدالُ الحتميّ الذي ذكره القرآن الكريم كسنّة إلهية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد، 38]؟

قال الطَّبْرسيُّ رحمهُ اللّه إنّ أناساً منْ أصْحاب رسُول اللّه ﷺ قالُوا: يا رسُول اللّه منْ هؤُلاء الّذين ذكر اللّه في كتابه؟ وكان سلْمانُ إلى جنْب رسُول اللّه ﷺ، فضرب يدهُ على فخذ سلْمان، فقال: هذا وقوْمُهُ؛ والّذي نفْسي بيده لوْ كان الإيمانُ منُوطاً بالثُّريّا لتناولهُ رجالٌ منْ فارس. [بحار الانوار]

وهل سيتمكّن قوم سلمان من القيام بحمل هذه المسؤولية أم أنهم سيتركون وليّ الله كما تركه أهل الكوفة ليُقتل ويُسمّم ويُذبح؟!

بعض هذه الأسئلة ستجيب عنها صفحات التاريخ. والبعض يحتاج إلى دراسة نستشرف فيها آفاق المستقبل، مستعملين أدوات البحث العلمي الصحيح؛ وعسى أن نوفق لذلك في كتاب آخر.

فالهدف البعيد لرسول الله ﷺ هو القضاء على أساس الفتنة وقلعها من جذورها، لكي لا يُعصى الله أبدا. حتى إذا ما صار الحلم حقيقة والوعد صادقاً، قامت الساعة وفُتحت أبواب الجنان وتحقّقت السعادة المطلقة والحياة الحقيقية.

والهدف القريب عبارة عن بناء مجتمع إسلامي نموذجي يطبق أحكام الله

التي تضمن تحقق العدالة وإقامة القسط.

وما سيصدّره هذا المجتمع العادل إلى الناس كافة عبارة عن روحانية صافية وقيم رفيعة ومعنويات في قمة الجاذبية والجمال، تتوق إليها نفوس الطيبين والأحرار والمضطهدين والمستضعفين. وعندما تنجذب الشعوب إلى ما في هذا المجتمع القيمي الراقي، يتحوّل ذلك إلى إمكانات عظيمة لم تتوفّر لأية قوة أو إمبراطورية وُجدت منذ عصور الممالك والحكومات.

إنّها القدرة العظمى التي تنبع من تأييد الشعوب وانجذابها واحترامها وحبّها لهذه التجربة ومن سيمثّلها. فكيف والحال هذه ستجرؤ حكوماتهم على محاربتها أو القيام بوجهها. هناك ستتساقط الحكومات الظالمة كتساقط أوراق الشجر في الخريف العاصف. وهناك سيكتشف الناس معنى الأخوّة الإنسانية فيبدأون رحلة الحج الأكبر إلى مركز هذه الدولة العادلة بحثاً عن المعنويات والروحانية الصافية التي افتقدوها طويلا.

هناك بالتحديد ستتشكّل نواة حكومة شعبية عالمية لا يقاومها أي طاغية ولا يقف أمامها أي مستبد ولا تخدعها أية شركة تجارية مهما عبرت للقارات.

وعندما يتعرّف الناس في هذه الروحانية العظيمة على سرّها الكامن في العدالة الشاملة، سيتبنّون برامجها ونظمها التي كانت ترجمة إجتماعية صريحة لأحكام الدين الإسلامي؛ فيقبلون طائعين مختارين غير مكرهين؛ ويصبح التدين والإلتزام الديني خياراً فردياً شعبياً عالمياً أشدّ إغراءً من كل الوسائل والأدوات.

والآن، لنرَ ماذا فعل العرب بهذه الدعوة حينما وُجّهت إليهم قبل أكثر من ألف سنة؟ وكيف استجابوا للرسالة الإلهية والرسول الأكرم يدعوهم في أخراهم؟

المهمة الكبرى:
بناء المجتمع النموذجي

● اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ...كما قَطَعَ في إِحْيَاءِ دِينِكَ رَحِمَهُ وَأَقْصَى الأَدْنَيْنَ عَلَى جُحُودِهِمْ وَقَرَّبَ الأَقْصَيْنَ عَلَى اسْتِجَابَتِهِمْ لَكَ وَوَالَى فِيكَ الأَبْعَدِينَ وَعَادَى فِيكَ الأَقْرَبِينَ.

[الصحيفة السجادية]

إنّ صناعة أمّـة رسالية تتبنّى المشروع الإلهي الذي أُنـزل إلى النبيّ الأكرم ﷺ فكراً ونهجاً وعملاً يحتاج إلى كتاب سماوي ودستور إلهي، يمثّل لهذه الأمّـة مرجعية تأوي إليها في مدلهمّات الخطوب، وخطوطاً عريضة تهديها فيما إذا تمسّكت بها لتكون أمّـة واحدة منسجمة متماسكة. ومثل هذه المرجعية وهذا التلاحم لا يمكن إلا مع وجود عالم بهذا الكتاب ومبيّن لأحكامه على رأس هذه الأمّة. وذلك للأسباب التالية:

- إنّ وحدة المجتمع وقوّته لا تتحقّق إلا مع وجود قيادة واحدة.
- إنّ طبيعة الدور الرسالي لهذا المجتمع تستلزم أن يكون قائده رسالياً.
- إنّ نوعية المشروع الإلهي وتجاوزه لآفاق الدنيا والأرض تتطلّب قيادة إلهية من نوع خاص.

وعليه فلن تكون هـذه القيادة مختصّة بمعرفة قوانين الإزدهـار المادية والتنمية الإقتصادية فحسب. وإن كان هذا الأمر على درجة عالية من الأهمية ويتطلّب فقاهة خاصة. بل ستكون مسؤولة عن قيادة هذا المجتمع والسير به نحو الإزدهار المعنوي والتفتّح القيمي والسموّ الروحي. ومن ثمّ لتنطلق به من هذه القمّة والشموخ نحو آفاق السماء.

فما لم يؤمن المجتمع بموقعية هذا القائد الإمام ودوره المحوري في تطبيق الكتاب وإقامة الدين، وما لم يتّبع هذا المجتمع قائده العادل ويتولاه في جميع شؤونه، لن ينتقل إلى موقعيته الحضارية ودوره الرسالي في أن يكون خير أمّة أُخرجت للناس.



وذلك "لأنّ الإسلام ليس نظرية بشرية لكي يتحدّد فكرياً من خلال الممارسة والتطبيق، وتتبلور مفاهيمه عبر التجربة المخلصة، وإنّما هو رسالة الله التي حُدّدت فيها الأحكام والمفاهيم وزوّدت ربانياً بكلّ التشريعات العامة التي تتطلبها التجربة، فلا بدّ لزعامة هذه التجربة من استيعاب الرسالة بحدودها وتفاصيلها، ومن الوعي بكلّ أحكامها ومفاهيمها، وإلا اضطرّت إلى استلهام مسبقاتها الذهنية ومرتكزاتها القبلية، وأدّى ذلك إلى نكسة في مسيرة التجربة، وبخاصة إذا لاحظنا أنّ الإسلام كان هو الرسالة الخاتمة من رسالات السماء التي يجب أن تمتد مع الزمن، وتتعدّى كل الحدود الوقتية والإقليمية والقومية، الأمر الذي لا يسمح بأن تُمارس زعامته التي تشكل الأساس لكلّ ذلك الامتداد، تجارب الخطأ والصواب، التي تتراكم فيها الأخطاء عبر فترة من الزمن حتى تشكل ثغرة تهدّد التجربة بالسقوط والانهيار". [الشهيد السيد محمد باقر الصدر، نشأة التشيع والشيعة].

إنّ أولياء الله يُعرفون بحركتهم الإصلاحية الدائبة؛ ففي الحديث: "اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وما لم يكن رأس المجتمع آمراً بالمعروف فلن يتبدّل المجتمع إلى خير أمّة تخرج للناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.[آل عمران، 110]

فحركة المجتمع الإسلامي نحو القيم الدينية تعني بشكل طبيعي تخلّيه عن القيم الدنيوية الفاسدة والتوجهات المادية المنحطة، بما تتضمّنه من عادات جاهلية وأعراف قبلية.

من هنا كان علينا أن ندرس المجتمع العربي الذي أقبل على الدين الجديد ونلاحظه في حركته وتحولاته القيمية، لا في حركته السياسية التي تظهر في التوسع والتمدّد والإنتصارات والفتوحات.

المعنى الواقعي لتبنّي الدين نهجاً للحياة الفردية والإجتماعية يظهر من خلال الحركة التقدمية نحو قيمه السامية، وكذلك في نبذ ما يعارضها ويناقضها

من قيم دنيوية. وليس هذا بالأمر الذي يمكن أن يخفى؛ فإن التفاعل مع الدنيا، وخصوصاً إذا كان على درجة عالية، سيكشف عن مكنونات النفوس؛ وستكون الفتوحات والغنائم والمناصب والولايات دوماً محك اختبار معادن الرجال.

وهكذا، سيقوم المشروع الرسالي على ثلاثة أركان أساسية هي:

1. الكتاب أو الدستور الذي يتضمّن الخطة الإلهية الشاملة.
2. القائد أو الإمام العارف بالكتاب.
3. الأمة التي تؤمن بضرورة تطبيق الكتاب من خلال طاعة الإمام.

وقد جلب السعي نحو تأمين هذه الأركان تحديات كبيرة أمام رسول الله ﷺ؛ تطلّبت سعياً حثيثاً وجهاداً مريراً وتحمّلاً لعذابات وأنواع من الأذى لم يتحمّلها أي نبيّ قبله. فمن جهة عليه أن يتحمّل نزول الكتاب وبيانه وتثبيته وحفظه. ومن جهة ثانية عليه أن يصنع الإمام ويعرّف الناس عليه ويثبّت موقعيته ودوره المحوري في ثقافة الأمّة، التي عليه من جهة ثالثة أن ينقلها من حضيض التخلّف والجاهلية والتمزّق إلى أن تصبح أمّة واحدة متماسكة تؤمن بدورها الرسالي تجاه البشرية وشعوبها في شرق الأرض وغربها، وتنبذ التعصّب والإستعلاء والجشع والنهب والسلب والإستغلال.

يقول الإمام الخميني قده: *"إنّ إحدى غايات البعثة هي أنّ القرآن كان في الغيب وبصورة غيبية وفي علم الله تعالى وفي غيب الغيوب، فأنزل بواسطة هذا الموجود العظيم الذي جاهد كثيراً وكان على الفطرة الحقيقية وعلى فطرة التوحيد وكل المسائل الموجودة والتي تتعلّق بالغيب، وبسبب ارتباطه بالغيب أنزل هذا الكتاب المقدّس من مرتبة الغيب بل لعلّ ما حصل هو تنزيلات حتى وصل إلى مرتبة (الشهادة)، فأتى بصورة ألفاظ ونستطيع نحن وأنتم والجميع أن نفهمها ونستفيد من معاني هذه الألفاظ بالمقدار الذي نستطيع."* [صحيفة الإمام]

فماذا فعل رسول الله لتحقيق هذه الأركان وتأمين هذه الشروط؟

المقومات والكفاءات اللازمة لهذه المهمة

*«الرسول الأكرم ﷺ كان عالماً بمبدأ الوحي بحيث يكشف له أسرار الوجود، وكان صلى الله عليه وآله بدوره يرى الحقائق بوضوح ودون أي حجاب: وذلك بعروجه وارتقائه قمة كمال الإنسانية، وفي نفس الوقت كان حاضراً في جميع أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود. فمَثَّل بذلك أسمى مظهر لـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ...﴾ كما سعى إلى رفع جميع الناس للوصول إلى تلك المرتبة، وكان يتحمّل الآلام والمعاناة حينما كان يراهم عاجزين عن بلوغ ذلك، ولعلّ قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ إشارة خفية إلى هذا المعنى، ولعلّ قوله ﷺ: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت»، يرتبط أيضاً بنفس المعنى».* [الإمام الخميني، وصايا عرفانية]

يبدو للوهلة الأولى أنّ امتلاك الإنسان للقدرات والإمكانات اللامحدودة سيمكّنه من تأمين ما يحتاجه لتنفيذ خطته. فالعلم المطلق الذي يكشف من خلاله كل أسرار العالم، والقدرة المطلقة التي يفعل بواسطتها ما يشاء، تعطي أي قائد ما لا يحلم به.

وفي المقابل، إنّ كل قائد يسعى لبلوغ أهداف محددة، ولا يقدر على ذلك، أو يجد صعوبات تمنعه، فإنّه يتمنّى لو أنّ له بهم قوّة. ونحن عندما نحلّل شخصية الرسول الأكرم، وخصائصه، نجد أنّ الله تعالى قد أعطاه من الكمالات، ما جعله قادراً على فعل أيّ شيء ممكن. فقد اتّصف صلوات الله عليه وآله بكلّ الكمالات المطلقة، واتصل بالبحر اللامتناهي للصفات الحسنى. فحقّق بذلك ما يحتاج

إليه على المستوى الفردي، لينهض بأعباء المشروع والرسالة، التي كلّفه الله بها.

فإذا كان الله يأمر أنبياءه ورسله قائلاً: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾[البقرة:63]

فنبيّ الإسلام قد وهبه الله من القوّة ما يتناسب مع حجم الرسالة الخالدة، والتي سيكون حلالها حلالاً إلى يوم القيامة وحرامها حراماً إلى يوم القيامة.

ومن أروع ما نقرأ حول مقامات الرسول وكمالاته ما ذكره الإمام الخميني في أبحاثه العلمية ودروسه. منها:

"...وهناك قلوب جمعت بين التّجليين، وهذه القلوب كلّما كانت أقرب إلى أفق الاعتدال كانت أكمل، إلى أن تصل إلى حدّ تظهر عليها فيه تجلّيات الجمال والجلال على حدّ الإستواء والإعتدال الحقيقيّين، فلا يغلب الجلال على الجمال، ولا الجمال على الجلال. وصاحب هذا القلب الجمعي الأحدي الأحمدي هو خاتم دائرة الكمال، وجامع الولاية المطلقة، والنبوّة المطلقة، وهو خاتم النبوّات، ومرجع ومآب الولايات ﷺ." [جنود العقل والجهل]

فما يمكن أن يصل إليه مخلوق من الكمال قد تمّ لرسول الله، ولن يتعدّى كماله أحد من العالمين.

*"قد يتّفق أن يفيق السالك من فنائه فينهض حسب استعداده، وقدر إحاطة عينه الثابتة، لهداية الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فإذا كانت عينه الثابتة تابعة للاسم الأعظم، لاختتمت به دائرة النبوّة كما اختتمت بالنبيّ المعظّم الخاتم ﷺ، ولم يوجد أي شخص من الأوّلين والآخرين ومن الأنبياء والمرسلين من كانت عينه الثابتة تابعة للاسم الأعظم وكان مظهر ذاته بجميع الشؤون، ولهذا حصل له صلّى الله عليه وآله ظهور بجميع الشؤون، وحصلت الغاية من الظهور في الهداية، وتمّ الكشف الكلّي، واختتمت النبوّة بوجوده المقدّس".* [الأربعون حديثاً]

ومقام الاسم الأعظم مقام جمع الكمالات والصفات على نحو الإطلاق؛ وهو أعظم تجلّ للذات المقدسة، وإن كانت نسبته إلى الذات كالصفر إلى المطلق أو

اللاشيء إلى الوجود.

"النبَوة الختمية والقرآن الشريف وشريعة سيّد البشر هي من مظاهر المقام الجامع الأحدي وحضرة الاسم الله الأعظم ومجاليه أو من تجلياته وظهوراته؛ فلهذا صارت أكثر النبوات والكتب والشرائع إحاطة وأجمعها؛ ولا يُتصوّر أكمل وأشرف من نبوّته وكتابه وشريعته ولا يتنزّل من عالم الغيب على بسيط الطبيعة علم أعلى منه أو شبيه له. بمعنى أنّ هذا هو آخر ظهور للكمال العلمي المربوط بالشرائع وليس للأعلى منه إمكان النزول في عالم الملك، فنفس الرسول الخاتم ﷺ أشرف الموجودات ومظهر تام للاسم الأعظم، ونبوّته أيضا أتمّ النبوّات الممكنة وهي صورة لدولة الاسم الأعظم الأزلية الأبدية؛ والكتاب النازل إليه أيضا نزل على مرتبة الغيب بتجلّي الاسم الأعظم. ولهذه الجهة لهذا الكتاب أحدية الجمع والتفصيل وهو من جوامع الكلم، كما أن كلامه ﷺ أيضا من جوامع الكلم. والمراد من كون القرآن وكلامه صلّى الله عليه وآله من جوامع الكلم ليس أنّ القرآن أو أنّه صلّى الله عليه وآله بيّنا الكلّيات والضوابط الجامعة، وإن كانت أحاديثه صلّى الله عليه وآله أيضاً من الجوامع والضوابط، كما أنّ ذلك معلوم في علم الفقه، بل جامعيته عبارة عن أنّ القرآن نزل لجميع طبقات الإنسان في جميع أدوار العمر البشري وهو رافع لجميع حوائج هذا النوع". [معراج السالكين]

فإذا تحقّق لرسول الله من الكمال والقدرة والكفاءة ما لا يخطر على قلب بشر من الطبيعي أن يبرز حينها سؤالان أساسيان:

الأول: كيف حقّق رسول الله مثل هذه القدرات والكفاءات؟

الثاني: كيف استعمل هذا النبيّ الكريم كفاءاته وقدراته؟

كيف حصل رسول الله على الامكانات والكفاءات؟

«ورسول الله الذي كان علي المرتضى وجميع ما سوى الله عبيداً لجنابه ومتنعّمين من سقطات موائد نعمته في معارفه ومتعلّمين بتعليمه، بعدما خلَع بخلعة النبوّة الختمية، الذي كان نهاية مسير دائرة الكمال واللبنة الأخيرة للمعرفة والتوحيد، يقوم بالأمر عشر سنوات في جبل حراء على قدميه ويقوم بالطاعة حتى تتورّم قدماه الشريفتان وأنزل الله تعالى عليه ﴿طه * مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾» [الإمام الخميني، معراج السالكين]

لكي نفهم هذه المسألة جيداً يجب أن نلتفت إلى مبدأ عام حول رابطة عالم الغيب والشهادة والنسبة بينهما. فقد يتصوّر البعض أنّ كل ما حصل عليه رسول الله من مقامات ودرجات وناله من كفاءات وكرامات إنّما هو محض اختصاص من الله تعالى، على قاعدة: «الله أعلم حيث يجعل رسالته». ومثل هذا التصوّر يقطع الطريق على البحث في أهم قضية تنبثق منها مدرسة الرسالة المحمدية، وتتشكل على ضوئها فصولها الدراسية لكل من يسعى نحو الكمال الحقيقي باتّخاذ النبيّ قدوة لنفسه وأسوة لسلوكه.

ما معنى أن تكون

كمالات الرسول إختصاصية؟

يتصوّر هؤلاء أنّ الله تعالى قد اختصّ رسوله الأكرمﷺ دون سائر

الخلق بالمنزلة الرفيعة، اختصاصاً لا يعلم أحد طريقه ولا مجال لفهمه واستيعابه. وبناءً على هذا الرأي، فلا فائدة من السعي لمعرفة ما قدّمه النبيّ أو قام به قبل بعثته وما التزمه في شبابه حتى وصل إلى ما وصل في نبوته!!

وهذا التصوّر ناشئ من الاشتباه أو عدم الإطلاع على النسبة الوجودية بين عوالم الغيب والشهادة. ولأجل توضيح الأمر بما لا يترك مجالا للّبس والحيرة يجب الإلتفات إلى المسائل التالية:

أولاً: إنّ مقام الرسالة يُعد شأناً إلهياً يتعلّق بعالم الدنيا وتدبيراتها؛ وكذلك حال النبوّة؛ وهما أيضاً مقامان اختصاصيان؛ يُعد السعي إليهما خبلا وجهالة. أما روح الرسالة وباطن النبوة فهما مقامان معنويان تحصيليان ويعبّر عنهما بالولاية التي تحكي عن معنى القرب من الله؛ ومن هذه الجهة فهي مقام معنوي حقيقي بابه مفتوح للجميع؛ والسعي لبلوغه من علامات الإيمان!

ثانياً: جميع الكرامات والكمالات



الحقيقية إنما تُنال بفضل القرب من الله أي بسبب الولاية. هذا، سواء أظهرت هذه الكمالات بصورة المعاجز أو الكرامات أم بقيت مخفية باطنة تحت قباب الله، لا يعلم بصاحبها أحدٌ إلا الله تعالى.

ثالثاً: إنّ حقيقة الاختصاص والتخصيص من الله عزّ وجل لا تتنافى مع حكمته ومع نظام الخلق المعبّر عنه عند العارف بالنظام الأجمل والأكمل وعند الحكيم بالنظام الأفضل. فعندما نذكر الإختصاص، لا ينبغي أن نتصوّر أنّ الله تعالى يصدر عنه ما لا يمكن تفسيره أو لا حكمة فيه أو من ورائه لمجرّد أنّنا عجزنا عن فهمه. وبعبارة ثانية، إنّ الإختصاص يجري ضمن نظام الأسباب التي تؤطر كل سلسلة الموجودات وتحكم كل عوالم الوجود ومراتبه. وعليه، عندما نعجز عن تفسير سر تفضيل النبيّ أو الإمام لا ينبغي أن نذهب إلى القول بالإختصاص لمجرّد أنّنا لم نعرف الطريق الذي سلكه أيّ منهما فوصلا إلى ما وصلا إليه!

رابعاً: إنّ عالم الشهادة والملك أو الدنيا هو المرتبة النازلة لعالم الملكوت، ولا يقع في مقابله؛ حتى نقول إما أن يكون هذا الأمر غيباً أو يكون ناسوتاً وشهادة. فما نشهده في عالم الناسوت يُعدّ ظهورَ وتمثلَ ما في عالم الغيب والملكوت. ومن عرف سرّ الرابطة بين الممثّل والمتمثّل استطاع أن يعبر من المظهر إلى الظاهر ومن شهادته إلى غيبه وبالعكس. أجل، لأنّنا لم ندرك هذه الرابطة أو الروابط (التي قد يعبّر عنها بأسرار القدر)، وجدنا أنّ أفضل طريقة هي نعت هذه الأسرار بالغيب المحض.

خامساً: جميع الكائنات، وبالأخص البشر، واقعون تحت حكم الإختصاص الإلهي؛ وهو عبارة عن اتّصال فيضه المقدّس بكل ذرات الوجود. فما من كرامة أو كمال أو قدرة أو عطاء إلا وهو واصل إلى كل ذرّة وخبأ. لكن كيفية استفادة هذا الإنسان أو ذاك من العطاء، ودرجة تحصيل هذا المخلوق أو ذاك للكمال، مجعولة بيده هو.

﴿مَّامِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

وعليه، فقد تمّت الحجة الإلهية بوصول الفيض إلى كلّ مخلوق. ولا حجّة لأحد على الله تعالى. وما سرّ عظمة الرسول وتفضيله على كلّ الخلق، إلا لأنّه كان الأكثر عبودية والأشدّ تقرّباً وسعياً وجدّاً وطاعة ونزاهة، والأسبق من الجميع في أخذ الميثاق. "فعَنْ أَبي عَبْد اللهِ عليه السلام أَنَّ بَعْضَ قُرَيْش قَالَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله: بأَيِّ شَيْءٍ سَبَقْتَ الْأَنْبِيَاءَ وَأَنْتَ بُعِثْتَ آخرَهُمْ وَخَاتَمَهُمْ؟ قَالَ: إنِّي كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِرَبِّي، وَأَوَّلَ مَنْ أَجَابَ حِينَ أَخَذَ اللهُ ميثَاقَ النَّبِيِّينَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ نَبِيٍّ قَالَ بَلَى، فَسَبَقْتُهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالله" [الكافي].

وما من كرامة نالها هذا الإنسان العظيم، إلا بشيء فعله أو نية عقدها (حيث أن نية المؤمن خير من عمله) في عالم الدنيا. وبعبارة أخرى، إنّ اختصاص الله تعالى لهذا النبيّ العظيم قد ظهر في نشأة الطبيعة وعالم الملك بتلك المساعي والأفعال الصالحة التي تفوّق بها على جميع من ذرأ الله تعالى في عالم الدنيا. والأهم من الأفعال هو ما كان في قلبه من نوايا وأمنيات! فسبحان الله ما أعظم برهانه وأوسع رحمته حينما جعل النية الصالحة سبباً للعروج إلى منازل الكرامة، ورفع عن أمّة النبيّ آثار النوايا السيئة ما لم تتحقّق في مقام الفعلية بالقبيح من الأعمال.

وإنّ من أعظم ما يمثّله هذا النبيّ الجليل أنّه صار قدوة للعالمين وأسوة للمؤمنين؛ وقد جاء إلى هذه الدار الموحشة والسجن المظلم من أجل أن يبيّن للناس طريق الوصول إلى أعلى مراتب القرب وأسمى درجات الكمال؛ إلى حيث بلّغه الله وأنزله. وبروحه الطاهرة المطهرة من كل الأدناس والأرجاس، تمنّى لكلّ مخلوق بلوغ درجته؛ لا، بل كان يعيش الحسرات والأحزان الكبرى عندما يرى الناس يرفضون ما يقدّمه لهم، ويعرضون عما جاءهم به!

يقول الإمام الخميني: «*إن الرسول الخاتم والوليّ المطلق الأكرم الذي شرّفنا وقدِم من محضر القدس ومحفل القرب والأنس الإلهي إلى هذا المنزل، منزل الغربة والوحشة، وابتُلي بمعاشرة أمثال أبي جهل ومن هو شرّ منه، وأنينه «ليغان على قلبي» قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية وما زال، هو الرحمة الواسعة والكرامة المطلقة الإلهية التي كان قدومها إلى هذه الدويرة لرحمة موجودات وسكنة العالم الأسفل الأدنى وإخراجهم من دار الغربة والوحشة هذه. فهو صلّى الله عليه وآله كالحمامة المطوّقة التي تلقي بنفسها إلى الفخ لتنجي رفقاءها منه.*» [معراج السالكين]

وقد نزلت الآيات التالية لتحكي عن هذا البعد الرحماني:

* ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]

* ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]

* ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6]

* ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]

* ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127]

* ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8]

* ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس: 76]

* ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: 159]

إنّ رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى لكل من أراد أن يكون مؤثراً في حياة البشر لصلاحهم وسعادتهم، وأسوة لكل من يتحمّل المسؤوليات القيادية ويحمل همّ الخلق. وإنّ من أهم دروس القدوة ومواعظ الأسوة التي نستلهمها من حياته أنّه ﷺ قد وصل إلى تلك القدرات والكفاءات من خلال سعيه وصبره وجدّه وعمله ونيّته ونزاهته. حيث أنّ كل واحدة من هذه الخصائص والأعمال ميسّرة، أو لنقل هي ممكنة غير مستحيلة، بالنسبة للنوع الإنساني؛ ولا دليل على جواز القول بأنّها فوق القدرة وأكبر من الطاقة.

ولا يغيب عن بالنا أنّ القدرة والطاقة الإنسانية، وكذلك توفيق العمل وحتى النية الصالحة، كلها من الأمور التي تتكامل وتكبر بفضل الإخلاص والسعي المتواصل والمثابرة المستمرّة. فالذي لا يكون مقدوراً للوهلة الأولى، يصبح ممكناً بواسطة القيام بالمقدور الحالي (ما هو مورد التكليف). مثلما أنّ العلم المحجوب يحصل من خلال العمل بالمعلوم. فمن عمل بما يعلم، ورّثه الله علم ما لم يكن يعلم. ومن عمل بما يقدر عليه، أعطاه الله القدرة على ما لم يكن قادراً عليه. ومن صدق النية، أعظم الله نيته، وبلّغه أفضل النيات. ولا ننسى أيضاً أنّ العبرة في النهايات والأشياء بخواتيمها. والمهم اللحوق لا التقدّم الزماني. فمن لم يكن سابقاً بحسب العمر والزمان، لا بأس عليه إذا اقتفى آثار من سبقه.

وبالنظر إلى طبيعة حياة النبيّ قبل البعثة والسيرة التي كان عليها وما ذكره القرآن الكريم بشأن أخلاقه يتبيّن لنا أنّه ﷺ قد حقّق في نفسه الحالات والملكات التالية:

1. النزاهة التامة من أدناس الجاهلية وأرجاسها: «يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: 219]، وقد فسّر الإمام الصادق عليه السلام هذه الآية بقوله: «في أصلاب النبيّين، نبيّ بعد نبيّ، حتى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن



آدم» [السيد الاسترآبادي، تأويل الآيات الظاهرة]. **وقد اجتنب منذ ولادته كل ما كان حراماً، أو معيباً، أو قبيحاً، أو سيئاً، مما عرفه الناس أو أنكروه. وصان نفسه من أن تؤثّر فيه أخلاق الجاهلية وأعرافها وقيمها وتقاليدها وطريقة تفكيرها وذهنيتها. وباختصار استطاع محمد بن عبدالله أن ينزّه عقله وقلبه وسرّه وباطنه وجوارحه وخياله من كلّ العوامل السلبية والمؤثرات الخبيثة لمجتمع كان يعيش أحط الحالات وأشرّ المسلكيات وأسوأ الثقافات. وهنا أحيل القارئ العزيز إلى الفصل المتعلق بأحوال المجتمع العربي وبيئته عشية البعثة الشريفة حتى نقترب من فهم حجم المأساة المعنوية والقيمية التي حلّت به.**

وجاء في حديث طويل: «أن النبي لما تَمَّ لَهُ ثَلَاثُ سنينَ قَالَ لأمّه يَوْماً: يَا أُمَّاهْ مَا لي لَا أَرَى أَخَوَيَّ بِالنَّهَارِ؟ قُلْتُ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِنَّهُمَا يَرْعَيَانِ غُنَيْمَاتٍ، قَالَ: فَمَا لي لَا أَخْرُجُ مَعَهُمَا؟ قُلْتُ لَهُ: تُحبُّ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ دَهَّنْتُهُ وَكَحَلْتُهُ وَعَلَّقْتُ فِي عُنُقه خَيْطاً فيه جَزْعٌ يَمَانِيَّةٌ فَنَزَعَهَا ثُمَّ قَالَ لي مَهْلًا يَا أُمَّاهْ فَإِنَّ مَعِي مَنْ يَحْفَظُني.»

ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام يصف فيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

"قضم الدُّنْيا قضماً، ولمْ يُعرْها طرْفاً، أهْضمُ أهْلِ الدُّنْيا كشْحاً، وأخْمصُهُمْ من الدُّنْيا بطْناً، عُرضتْ عليْه الدُّنْيا فأبى أنْ يقْبلها، وعلم أنّ اللّه سُبْحانهُ أبْغض شيْئاً فأبْغضهُ، وحقّر شيْئاً فحقّرهُ، وصغّر شيْئاً فصغّرهُ. ولوْ لمْ يكُنْ فينا إلاّ حُبُّنا ما أبْغض اللّه، وتعْظيمُنا ما صغّر اللّه، لكفى بِهِ شِقاقاً للّهِ، ومُحادّةً عنْ أمْرِ اللّه.

ولقدْ كان صلى الله عليه وآله وسلم يأْكُلُ على الأرْضِ، ويجْلسُ جلْسة الْعبْدِ، ويخْصِفُ بيدِهِ نعْلهُ، ويرْقعُ بيدِهِ ثوْبهُ، ويرْكبُ الْحِمار الْعارِي،

ويُرْدفُ خلْفهُ، ويكُونُ السّتْرُ على باب بيْته فتكُونُ فيه التّصاويرُ فيقُولُ: «يا فُلانةُ - لاحْدى أزْواجه - غيِّبيه عنِّي، فإنِّي إذا نظرْتُ إليْه ذكرْتُ الدُّنْيا وزخارفها.

فأعْرض عن الدُّنْيا بقلْبه، وأمات ذكْرها منْ نفْسه، وأحبّ أنْ تغيب زينتُها عنْ عيْنه، لكيْلا يتّخذ منْها رياشاً، ولا يعْتقدها قراراً، ولا يرْجُو فيها مُقاماً، فأخْرجها من النّفْس، وأشْخصها عن الْقلْب، وغيّبها عن الْبصر. وكذلك منْ أبْغض شيْئاً أبْغض أنْ ينْظر إليْه، وأنْ يُذْكر عنْدهُ.

ولقدْ كان في رسُول اللهﷺ ما يدُلُّك على مساوئ الدُّنْيا وعُيُوبها: إذْ جاع فيها مع خاصّته، وزُويتْ عنْهُ زخارفُها مع عظيم زُلْفته.

فلْينْظُرْ ناظرٌ بعقْله: أأكْرم اللهُ مُحمّداًﷺ بذلك أمْ أهانهُ! فإنْ قال: أهانهُ، فقدْ كذب - واللّه الْعظيم - وإنْ قال: أكْرمهُ، فلْيعْلمْ أنّ الله قدْ أهان غيْرهُ حيْثُ بسط الدُّنْيا لهُ، وزواها عنْ أقْرب النّاس منْهُ.

فتأسّى مُتأسٍّ بنبيّه، واقْتصّ أثرهُ، وولج موْلجهُ، وإلاّ فلا يأْمن الْهلكة، فإنّ الله عزّوجلّ جعل مُحمّداًﷺ علماً للسّاعة، ومُبشّراً بالْجنّة، ومُنْذراً بالْعُقُوبة.

خرج من الدُّنْيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لمْ يضعْ حجراً على حجر، حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما أعْظم منّة الله عنْدنا حين أنْعم عليْنا به سلفاً نتّبعُهُ، وقائداً نطأُ عقبهُ! [نهج البلاغة]

2. الصدق والأمانة: في زمن كان الكذب فيه ملح الرجال، والخيانة والغش حالة العباد والبلاد. ويكفي أن نتأمل قليلا في سرّ اشتهاره ﷺ بالأمانة والصدق في مجتمع كمجتمع قريش

الجاهلي والقبلي، حتى نتوجّه إلى عظمة شخصيته فيما يتعلّق بالأمانة والصدق. إنّ ذلك المجتمع الذي نشأ فيه محمد بن عبدالله ﷺ لم يكن فيه مضمار للتسابق في الفضائل، كما أنّ الأمانة لم تكن من الصفات التي يسعى إليها الناس بشغف، أو يقدّرونها كما هو حقها. ومع ذلك فقد عُرف عن محمد المصطفى ﷺ هاتين الصفتين بين القاصي والداني؛ فلئن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على أنّه كان من الأمانة والصدق بمستوى فرض نفسه بقوّة على الضمائر الميتة والقلوب الغافلة.

إن الوعي الإجتماعي والخبرة الثقافية بالواقع البشري كفيلان بإحداث فارق مهم على صعيد إدراك بعض مميزات المجتبى محمد بن عبدالله ﷺ أيام الجاهلية، وبفضلهما يمكن تسليط الضوء على حجم طهارته وشدّة جهده، والعبء الذي كان يتحمّله للمحافظة على صدقه وأمانته، مع كل المغريات الإجتماعية والتحديات الثقافية والنفسية. فلنتصوّر حجم الضغوط التي سيمارسها المجتمع الجاهلي وهو يشاهد من يتحدّاه ويفضحه ويكشف عيوب منظومته الثقافية والقيمية!. فالأمين في مجتمع الخيانة سيكون تهديداً للذين بنوا مصالحهم على قواعد الغش والخداع؛ والتي أصبحت في ذلك الزمن عملة رائجة وتقليداً مقدّساً! وكل من يخالف الأعراف السائدة التي تمثل البنية التحتية لشبكة العلاقات العامة سيكون خطراً جدّياً على مصالح الأقوياء. وعليه، يجب أن يُحارب ويقمع بأي شكل.. فكيف استطاع محمد بن عبدالله ﷺ أن يحافظ على صدقه؟ لا بل كيف صار مشهوراً بين الناس بأمانته!؟

وفي السيرة، «بعد أن نزلت الآية: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الحجر:94]، ذهب رسول الله ﷺ بقلب راسخ ونفس

مطمئنة بوعد الله وبروح عالية بالإصرار والعزيمة ووقف على الصفا ونادى قريشاً من كل ناحية، فجاؤوا يتزاحمون لسماع مقالته فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل قد طلعت عليكم، أكنتم مصدقيّ؟ فقالوا أجمعهم: نعم، أنت عندنا غير متّهم وما جرّبنا عليك كذباً قط، قال: إني نذير لكم من عذاب شديد، يا بني عبد المطلب ويا بني عبد مناف ويا بني زهرة ويا بني تميم، ويا بني مخزوم وأسد، ومضى يعدّد أسماء القبائل ثم قال: إن الله أمرني أن أذركم من عقابه، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله. فنهض أبو لهب وكان رجلاً بديناً سريع الغضب وصاح به: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعت الناس؟ فنزلت في حقّه سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وبذلك الإعلان حسم رسول الله ﷺ الأمر بينه وبين قريش». [د. محسن الموسوي، السيرة النبوية]

3. أمنية إصلاح العالم: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾[الحج،52]

الأمنية هي الخاطرة التي تعيش في البال، وتتفاعل مع الأفكار، وتصبح هاجساً ورغبة، وتتّجه نحو السعي والعمل، أينما حانت الفرصة. ولقد عاش رسول الله ﷺ، قبل بعثه نبياً، أمنية عظيمة (نسميها حلما) لتغيير مجتمعه وإصلاحه، وإزالة الفساد من أمّ القرى وهداية أهلها؛ وسرعان ما تعاظمت الأمنية لتشمل من حولها.. ولم يلبث قليلاً حتى توسّعت أمنيته لتشمل العالم كله وإلى يوم القيامة. كان غار حراء المحل الذي يختلي فيه محمد ﷺ مع أمنيته؛ وتتفاقم فيه آلامه، وهو ينظر إلى

بلدته التي ترزح تحت كل أشكال الإنحطاط والفساد. ولم يتمكّن الشيطان (مع شدة نفوذه) من التسلّل إلى فؤاده ليلقي في أمنيته ما يشاء من اليأس والقنوط. بل كان مع كل إلقاء شيطاني نسخٌ رحماني يزيد من قوّة الأمنية ويضاعف من حضور الحلم. فإذ بالخيال يصبح مجسّماً، وإذ بالصورة الكلية تصبح تفصيلا. وما كان ليمرّ وقت طويل حتى ألقى الله في فؤاد محمد المصطفى ﷺ الصورة النهائية لصلاح العالم وخطواتها التفصيلية، وصارت الجنة الموعودة يقيناً حاضراً وعلماً ممثلا!

4. رحمة للعالمين: وبحرصه على الناس وإشفاقه عليهم سرعان ما امتلأ قلبه بحبّ الخلق والتفكير بخلاصهم والاستعداد لإنجائهم مهما كلّف الثمن. فقد كان قلب هذا العبد الخالص يتعذّب من جرّاء ما يعيشه الناس من ضلالة؛ وهو يراهم على شفا حفرة من النار، كلّما مات منهم رجل سقط في قعر جهنّم الضلالة وحفرة الكفر. ولسوف تُظهر سيرته بعد البعثة، حين انطلق لهداية المشركين والكفار والمنافقين، أروع النماذج في حبه للناس ورحمته للعالمين وحرصه على المؤمنين.

«فلماذا كان النبي الأكرم ﷺ يأسف ذلك الأسف المرير على عدم إيمان المشركين؟ إلى الحدّ الذي خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ فليس هذا سوى أنه أحبّ جميع عباد الله، فإنّ حبّ الله هو حبّ تجلياته ومظاهره.

فهو عليه الصلاة والسلام يتألّم مما تؤدي إليه الحجب الظلمانية للأنانية والغرور في المنحرفين من دفعهم إلى الشقاء ثمّ العذاب الأليم في جهنّم نتيجةَ لأعمالهم، في حين أنّه يريد السعادة للجميع. فهو مبعوث لتحقيق السعادة للجميع. والمشركون المنحرفون ـ عُمي القلوب ـ وقفوا بوجهه، ونصبوا له العداء رغم أنّه جاء لإنقاذهم». [الإمام الخميني، وصايا عرفانية]

«رُوي أنّه عندما نزلت آية، (..لها سبعة أبواب)، أنّه سأل النبي ﷺ جبرائيل عليه السلام أهـي كأبوابنا؟ فقال: لا، ولكنّها مفتوحة بعضها أسفل من بعض... فقال النبي ﷺ: **أخبرني من مكان هذه الأبواب؟ قال: فأمّا الباب الأوّل، ففيه المنافقين، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، واسمها الهاوية.... فقال النبيّ ﷺ:** *ألا تخبرني من مكان الباب السابع، قال: يا محمد لا تسألني عنه، فقال: بلى، يا جبرائيل أخبرني عن الباب السابع، فقال: هي لأهل الكبائر من أمّتك، الذين ماتوا ولم يتوبوا، فخرّ النبي ﷺ مغشياً عليه، فوضع جبرائيل عليه السلام رأسه في حجره، حتى أفاق فلمّا أفاق قال: يا جبرائيل عظمت مصيبتي واشتدّ حزني، أويدخل من أمّتي النار؟ قال: نعم، أهل الكبائر من أمّتك. ثمّ بكى رسول الله ﷺ وبكى جبرائيل عليه السلام، ودخل رسول الله ﷺ منزله، واحتجب عن الناس، وكان لا يخرج إلا إلى الصلاة، يصلّي ويدخل ولا يكلّم أحداً، ويأخذ في الصلاة، ويبكي ويتضرّع إلى الله تعالى... فقال سلمان يا بنت رسول الله ﷺ، رسول الله احتجب عن الناس، فليس يخرج إلا إلى الصلاة ولا يكلّم أحداً ولا يأذن لأحد أن يدخل عليه، فاشتملت فاطمة عليها السلام بعباءة قطوانية، وأقبلت حتى وقفت على باب رسول الله ﷺ، ثمّ سلّمت، وقالت: يا رسول الله ﷺ أنا فاطمة، ورسول الله ﷺ ساجد يبكي، فرفع رأسه، فقال ﷺ: ما بال قرّة عيني فاطمة حجبت عنّي؟ افتحوا لها الباب، ففتح الباب فلمّا نظرت إلى النبيّ ﷺ بكت بكاءً شديداً، لما رأت من حاله مصفرّاً، متغيراً لونه، مذاباً لحم وجهه من البكاء، والحزن، فقالت: يا رسول الله ما الذي نزل عليك؟ فقال النبي ﷺ: جاءني جبرائيل عليه السلام ووصف لي أبواب جهنّم، وأخبرني بأنّ في أعلاها باب أهل الكبائر من أمّتي، فذلك الذي أبكاني، وأحزنني».* [حجة الإسلام التبريزي، أسرار الصلاة]

إنّ قلباً امتلأ بحب خلق الله إلى الدرجة التي يكون فيها مستعداً للتضحية بأعزّ ما يملك، وتقديم أحب من لديه، من أجل هداية الغافلين ونجاة الكافرين، لهو القلب الأحدي الأحمدي النقي الذي لم يكن له نظير في العالم كله.

وبالتأمل في هذه المواصفات التي استطاع النبيّ أن يوجدها في نفسه ويحافظ



عليها في شخصه، استحقّ أن يُبعث نبياً هادياً للبشرية كلّها.

يقول الإمام الخميني: «*ولا يمكن جذب قلوب الناس ومنعهم من الطغيان بمثل بسط الرأفة والرحمة وطرح المحبة والمودّة، ولهذا فإنّ الأنبياء العظام هم مظاهر رحمة الحقّ جلّ وعلا، كما أنّ الله تعالى يُعَرِّف رسوله الأكرم ﷺ في آخر سورة التوبة، وهي سورة الغضب، بهذا النحو،* ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة. 128] *وتكفي شدّة الشفقة والرأفة في قلبه ﷺ جميع العائلة البشرية*». [جنود الجهل والعقل]

تأمين الركن الأول:
الكتاب
(وفيه الدستور والخطة)

● وَأَدْأَبَ نَفْسَهُ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِكَ وَأَتْعَبَهَا بِالدُّعَاءِ إِلَى مِلَّتِكَ وَشَغَلَهَا بِالنُّصْحِ لأَهْلِ دَعْوَتِكَ وهَاجَرَ إِلَى بِلاَدِ الْغُرْبَةِ، وَمَحَلِّ النَّأْيِ عَنْ مَوْطِنِ رَحْلِهِ، وَمَوْضِعِ رِجْلِهِ، وَمَسْقَطِ رَأْسِهِ، وَمَأْنَسِ نَفْسِهِ، إِرَادَةً مِنْهُ لإِعْزَازِ دِينِكَ، وَاسْتِنْصَاراً عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ بِكَ.

[الصحيفة السجادية].

محمد ﷺ يستنزل القرآن

«*وأمّا عظمة المرسل إليه[القرآن] ومتحمّله، فهو القلب التقي النقي الأحمدي الأحدي الجمعي المحمّدي الذي تجلّى له الحق تعالى بجميع الشؤون الذاتية والصفاتية والأسمائية والأفعالية، وهو صاحب النبوة الختمية والولاية المطلقة، وهو أكرم البريّة وأعظم الخليقة وخلاصة الكون وجوهرة الوجود وعصارة دار التحقّق واللبنة الأخيرة وصاحب البرزخية الكبرى والخلافة العظمى*».[الإمام الخميني، معراج السالكين]

إنّ نزول القرآن الكريم إلى أرض الدنيا ليكون وسيلة هداية للبشر يحتاج إلى شرطين أساسيين:

الأول: الفؤاد النقي والقلب الأمين الذي هو وعاء الكلام الإلهي. وهذا ما نعبّر عنه بالعصمة في التلقي، التي تمنع حصول التحريف أو التحوير في فهم معاني الكتاب حين تلقيه. فالكلام الإلهي وإن خلا من الباطل بذاته، لكنّ تلقيه قد يختلط بالباطل؛ مثلما يحدث عندما نسمع كلاماً واضحاً، ثم نكتشف أننا فهمنا منه شيئاً آخراً لشرودنا أو بسبب أحكامنا المسبقة! ولهذا، أمرنا الله بالإستعاذة من الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه.

والثاني: النفس القادرة على تحمّل بيانه، والقلب القادر على الجهاد به، لكي يصل إلى الناس كلاماً مبيناً كما أراد الله عز وجل؛ ولكي تتم الحجة الإلهية على العالمين كما شاء الله سبحانه. وهذه هي العصمة العملية والقوة النفسية في التبليغ، والتي لا تقل ثقلاً عن التلقي والفهم والوعاية.

ولأنّ مهمة القرآن لا تنتهي بانتهاء زمان نزوله، حيث يجب أن يبقى منارة للعالمين، ونذيراً للبشرية كلها إلى يوم الدين، فإنّ مهمة حفظه وبقاء حجيته أوكلت إلى رسول الله ﷺ وخلفائه الأطهار ع. وهي مهمة شاقة سيتبين لنا أنها تطلّبت درجة عالية من التضحية.

ومن الخطأ أن نظن أنّ رسول الله ﷺ كان كأي إنسان في ذاك الزمان من حيث الإستعداد لتلقّي الوحي؛ أو أنّ نزول الوحي صادف أن وجد طريقه إليه وكان من الممكن أن ينزل على أي رجل غيره! فإنّ الصفات النفسية والخصائص المعنوية والسمات الروحية التي بلغها هذا النبيّ العظيم قبيل نزول الوحي الخاص لم تكن لتخطر على قلب بشر، وما زالت إلى يومنا هذا بعيدة عن قدرة العقول على استيعابها.

يقول الإمام الخميني قده: "*يقول الرسول الأكرم: (قد دُعيتم إلى ضيافة الله). فما هي هذه الضيافة، ومن الذي قبلها، وما هي مقدّمات قبول هذه الدعوة وهذه الضيافة؟ لا بد لي من القول إنّ أحداً لم يجب هذه الضيافة التي دعا إليها الله تبارك وتعالى بالنحو الذي ينبغي تلبيتها عدا الرسول الأكرم ﷺ. فالدعوة لها درجات، والتلبية لها درجات أيضاً. وإنّ المقدمات والرياضات التي قام بها رسول الله ﷺ انتهت باستضافته من قبل الله تبارك وتعالى بنزول القرآن. القرآن هو النعمة التي تحقّقت لدى استضافة رسول الله. النعمة التي كان يتمتّع بها النبيّ الأكرم على تلك المائدة المبسوطة منذ الأزل وحتى الأبد. أما المقدّمات فهي الرياضات المعنوية التي قام بها على مدى سنوات طويلة حتى أوصلته إلى مرتبة استحق بها هذه الضيافة*". [صحيفة نور]

فالقرآن الذي هو الكتاب منزّلا ليس سوى الكشف التام الذي حصل لرسول الله محمد ﷺ عند سدرة المنتهى لّما كان قاب قوسين أو أدنى، عند العلي الأعلى، وما كذب الفؤاد ما رأى.

ويقول الإمام الخميني قده: "*وهو الكتاب الذي تنزّل من مقام الأحدية السامي، بالكشف المحمدي التام، هدًى للعالمين، ومحوراً لجمع المسلمين كافة؛*

بل وعموم الأسرة البشرية، والسموّ بها إلى ما يجب أن تسمو إليه وإنقاذها وهي وليدة علم الأسماء من شرور الشياطين والطغاة.

وهو الكتاب الذي تنزّل لبسط العدل والقسط في العالم، وتسليم الحكم إلى أولياء الله المعصومين عليهم صلوات الأولين والآخرين ليفوّضوه بدورهم لمن يضمن به صلاح الإنسانية". [الوصية السياسية]

إنّ تفاصيل الإرادة الإلهية وأبعاد الخطة الربانية ومنتهى المشيئة الرحمانية اجتمعت في أمّ الكتاب الذي سعى كل نبيّ لبلوغه بحكم عبوديته وفناء إرادته في إرادة مولاه وربّه. فمثل هذا العبد الخالص لن يكون له همّ ولا اهتمام إلا بأن يدرك ما يريده إلهه. وعندما علم أن إرادة الربّ الرحيم مفصّلة في الكتاب، سعى في حركة عروجية وسلوك ارتقائي روحاني إلى معرفته ونيله وتلقيه وأخذه وسماعه.

مثل هذه الحركة العروجية والسلوك الإيماني كانت سبباً في أن ينال كلّ نبيّ حظاً من الكتاب بحسب قوة عزمه، وكان حظّ النبيّ الأكرم الكتاب كله. وبتنزّله عبر العوالم ووصوله إلى أرض الطبيعة سمّي الكتاب قرآناً.

يقول الإمام الخميني قده: *"وحقيقة القرآن الإلهي الشريف قبل تنزّله إلى المنازل الخلقية وتلبّسه بالأطوار الفعلية هي من الشؤون الذاتية والحقائق العلمية للحضرة الواحدية، وهو حقيقة الكلام النفسي الذي هو مقارعة ذاتية في الحضرة الأسمائية، وهذه الحقيقة لا تحصل لأحد لا بالعلوم الرسمية ولا بالمعارف القلبية ولا بالمكاشفة الغيبية إلا بالمكاشفة الإلهية التامّة لذات النبيّ الخاتم المباركة ﷺ في محفل أنس قاب قوسين، بل في خلوة سرّ مقام أو أدنى، وأيدي آمال العائلة البشرية قاصرة عنها إلا الخُلّص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانية تلك الذات المقدّسة بحسب الأنوار المعنوية والحقائق الإلهية وفنوا بواسطة التبعية التامّة فيه. فإنّهم يتلقّون علوم المكاشفة بالوراثة منه ﷺ، وتنعكس حقيقة القرآن في قلوبهم بنفس النورانية والكمال التي تجلّت لقلبه المبارك من دون التنزّل إلى المنازل والتطور بالأطوار. وهذا القرآن لا تحريف فيه ولا تغيير، ومن كتاب الوحي الإلهي. والذي يقدر على تحمّل هذا*



القرآن هو النفس الشريفة لوليّ الله المطلق علي بن أبي طالب ﷺ وأما سائر الخلق فلا قدرة لهم على أخذ هذه الحقيقة إلا مع تنزّلها من مقام الغيب إلى موطن الشهادة والتطوّر بالأطوار الملكية والاكتساء بكسوة الألفاظ والحروف الدنيوية". [معراج السالكين]

وهكذا أنجز النبيّ الأكرم الخطوة الأولى التي عجز عنها جميع البشر؛ فأعطي الكتاب الخاتم والدستور الجامع والخطة الشاملة، التي فيما لو طُبقت على الأرض لانشقت بسببها السماء وفتحت لأجلها أبواب الجنان.

إن الموانع المتصورة أمام هذا السعي، إن وُجدت، فسوف تكون من قبيل الموانع الذاتية في باطن النبيّ أو قلبه؛ ومن المفترض بحسب ما عرفناه أنه قد تخطاها بسموّ روحه وقوة عزمه.

أما الخطوة التالية، فهي الصدوع بالوحي القرآني ونشره وتبليغه وتثبيت ثقافته في المجتمع. وهذا ما يتطلّب إسقاط الموانع النفسية والثقافية العامة، الحاصلة من طبيعة البيئة الجاهلية والأعراف الإلحادية. ولا يمكن القيام بالمهمّة المذكورة، إلا إذا تمّ كسر شوكة السلطة الطاغوتية الجاثمة على صدور الناس ونظامها الذي يرهقهم بثقل الأغلال والأوزار.

تثبيت القرآن

وبإلقاء نظرة سريعة على تركيبة المجتمع الجاهلي أبان البعثة، يمكن تحديد أهم الموانع والعقبات التي ستقف أمام انتشار القرآن وثقافته على الشكل التالي:

1. الزعامات والقوى السياسية التي كانت تستمد من ثقافة الشرك وعبادة الاصنام قوتها وامتيازاتها.

2. الشعر الذي كان له وقع السحر في النفوس؛ والذي كان يمثّل الوسيلة الإعلامية التي تهيمن على الرأي العام وتصنعه. ويمكن تشبيه تأثير الشعر والشعراء في المجتمع الجاهلي بما كانت تقريباً قد وصلت إليه قناة الجزيرة العربية في عصرنا الحالي، من حيث المصداقية في النفوس وسعة الإنتشار والإمكانات الفنية والروابط السياسية. هذا، وإن كان للشعر في ذاك العهد وقع أكبر نظراً لخلوّ الساحة من أية وسيلة أخرى للتواصل والثقافة.

3. الذين أسماهم القرآن أهل الكتاب وكانوا يحتكرون الإتجاه الإيماني أو التمثيل التوحيدي في الجزيرة العربية. فبالنسبة لعرب ذلك الزمان، كان اليهود (على سبيل المثال) أتباع إله يقال له الله. وكان لهذا الإله في نفوس الأغلبية مهابة خاصة نظراً لما يحيط به من إرث تاريخي وأسبقية زمانية وعلوم غريبة وقصص عجيبة. هذا، وإن كان هؤلاء العرب يرون لآلهتهم شأناً أيضاً!



4. الجهل المتجسّم بأعراف قوية وسمت عصرها بسمة الجاهلية، حيث أصبح العلم منبوذاً والتفكر غريباً والبحث عن الحقيقة فاقداً للمعنى. لا بل صار أي طرح جديد، أو فكرة مبتكرة، أو تساؤل باحث، من علامات الجنون والصرع[1].

فكان على رسول الله ﷺ أن يُسقط النظامَ السياسي بزعاماته القبلية المتجذّرة، والتي شكّلت سداً منيعاً أمام وصول كلمة الله إلى الناس؛ وأن يكشف زيف الشعر وخواءه؛ ويفضح الاستغلال السيئ من بعض أهل الكتاب للكتب السماوية[2].

قال محمد بن إسحاق: "*ولم تكن قريش تنكر أمره حينئذ كل الإنكار، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فأعظموا ذلك وأنكروه وأجمعوا على عداوته وخلافه، وحدب عليه عمّه أبو طالب فمنعه وقام دونه، حتى مضى مظهرا لأمر الله لا يردّه عنه شيء. قال: فلما رأت قريش محاماة أبي طالب عنه وقيامه دونه وامتناعه من أن يسلّمه، مشى إليه رجال من أشراف قريش منهم عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمثالهم من رؤساء قريش، فقالوا: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آراءنا، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً وردّهم ردّاً جميلا، فانصرفوا عنه. ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، ثمّ شرق الأمر بينه وبينهم تباعداً وتضاغناً، حتى أكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها وتذامروا فيه، وحضّ بعضهم بعضاً عليه. فمشوا إلى أبي طالب مرّة ثانية فقالوا: يا أبا طالب إنّ لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فإما أن تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم تطب نفسه بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه، فبعث إليه فقال: يا ابن أخي إنّ قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فابقَ عليّ*

وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيقه؛ قال: فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمّه فيه بداء وأنه خاذله ومسلّمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه، فقال: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك، ثم استعبر باكياً وقام، فلما ولّى ناداه أبو طالب: أقبل يا ابن أخي، فأقبل راجعاً، فقال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا. |ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة|

وقد تقدّم رسول الله ﷺ بواسطة القرآن ومن خلال تبليغه وتلاوة آياته متحدّياً ومواجهاً وداعياً ومبشراً. فبالقرآن جاهد الرسول الذين كفروا بدعوته وألحق بهم الخسائر الفادحة[3]. وبالقرآن سقط الشعر وانكشفت سذاجته وتلاعبه. وبالقرآن اتّضح كم يخفي بعض أهل الكتاب من تناقض بين الإدّعاء والواقع. وبقوة الآية القرآنية شرع الناس في التفكر، وبدأوا بتعظيم العلم والتعلّم؛ وهكذا، كان النبي أمام فتح مبين وأعظم إنجاز ضمن سرعة قياسية؛ حيث أضحى كتاب الله الممثّل الوحيد للإيمان والحقّ والقوّة والتأثير والعلم والمعرفة. وهكذا بدأ فصل جديد للرسالة الإلهية والمشروع الإسلامي، وتشكّلت أمامه تحدّيات من نوع آخر، تمثّلت بتيار النفاق الخطير ومظاهره التي تحرّكت نحو إيجاد موانع كبيرة لتحول دون انتقال القرآن من الظاهر إلى الباطن ومن الفكرة إلى العمل ومن اللفظ إلى المحتوى.

أجل، لقد استطاع رسول الله تغيير أحلام المشركين وأماني الكفار في القضاء على القرآن أو العبث به وتحريفه؛ ولم يعد وارداً أن يتمكن أحد من منع تحوّل القرآن الكريم إلى كتاب مقدّس له منزلته السامية بين المسلمين. لكن يبقى السؤال حول انتقال القرآن المجيد إلى مرحلة يصبح فيها برنامج عمل الأنظمة السياسية والإجتماعية، ويكون معها منهاج حياة الأفراد والآحاد! هذا ما ينبغي أن نتابعه في سلسلة مراحل الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية على مرّ الأزمنة والعصور.

ففيما بعد نجد أنّ التحدّيات التي واجهت النبيّ في سعيه لتثبيت ثقافة

القرآن قد تجسّمت في الروحية الإنتهازية التي اتّخذت الإسلام والرسالة واسم الرسول وسيلة للوصول إلى العلوّ أو الفساد. وكان هذا التيار المترصد يتجسس من زاويته المنافقة ويراقب القرآن، سورة بعد سورة، فيما يمكن أن يشكله من فرصة له أو خطر عليه.. فالحسابات القبلية والمصالح الشخصية لم تنصهر في عملية التزكية الرسالية؛ ويجب، بناءً على ذلك، أن ترى فيما إذا كان القرآن سيمنعهم من الوصول إلى مآربهم فيعملوا جهدهم حينها لكي يحرّفوه أو ينقصوا منه أو يزيدوه؟ أم أنه سيسكت عن تحركاتهم، فيستعملوه لنيل ما يريدون ويعظموه؟

وكان ربك بالمرصاد؛ ورغم مكرهم الذي مكروه، كان الله خير الماكرين. ورغم تخطيطهم الذي خططوه، كانت خطة الله هي الغالبة، وكلمته هي السابقة.

مهمة حفظ القرآن

فما أراده الرسول أولاً وبصورة أساسية، أن يثبت القرآن ولا يحرّف بالنقصان والزيادة؛ كل ذلك، ليبقى حجة لله على العباد. وإذا اقتضى هذا الأمر تأجيل الخطوة التالية. وهي الإعتراف بالقرآن كمرجع لحلّ جميع المشكلات وكحكم لبتّ جميع الخلافات وكوسيلة لعبور الدنيا إلى الآخرة. فليكن. فإذا لم يرد الناس سعادة الآخرة فلا يمكن إكراههم على ذلك. ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾. [البقرة، 256]

وقد استلزم التخطيط الحكيم لرسول الله ﷺ إقناع أولئك المنافقين وإيهامهم بأن القرآن لن يقف بوجه مصالحهم، إن هم حملوه ولم يحرفوه. وهكذا اجتمعت كل عناصر حفظ ظاهر القرآن من خطر النفاق وطبيعته الهدامة. وتمّ لرسول الله المرحلة الثانية من الحفظ والصيانة.

ولأجل هذا بالتحديد، وجدنا جميع الحكومات الطاغوتية التي تعاقبت على حكم المسلمين لا تفكر بمد يدها إلى القرآن للعبث بآياته وتغيير محتوياته؛ كل ذلك لسبب أساسي، يكمن فيما حققه القرآن بإخفاء معانيه الكبرى على أهل الزيغ والإنحراف، الذين لم يعودوا يجدونه خطراً يهدد عروشهم. لا بل على العكس من ذلك، وجدناهم يعملون على نشره وترويجه وتعظيمه، حينما توهّموا أنّه صار وسيلةً لتثبيت حكوماتهم وإضفاء الشرعية على سلطانهم.

يقول الإمام الخميني قده: "*في الحقيقة فإنّ هؤلاء الطواغيت عملوا*



بوسيلة القرآن على إبعاد القرآن. الذي يعدُّ أعظم منهج للحياة المعنوية والمادية للبشرية حتى يوم ورودها الحوض. عن واقع الحياة وقضوا بذلك على حكومة العدل الإلهي التي كانت ولا زالت تمثل أحد أهداف هذا الكتاب المقدّس، وأسسوا للانحراف عن دين الله وعن الكتاب والسُّنَّة الإلهية، حتى بلغ الأمر مبلغاً يخجل القلم من تفصيله.

وكلّما استطال هذا البنيان الأعوج ازدادت الانحرافات والإعوجاجات، حتى وصل الأمر حداً أقصي فيه القرآن الكريم عن ميدان الحياة وأصبح وكأنه عديم الدور في الهداية، وهو الكتاب الذي تنزل من مقام الأحدية الشامخ بالكشف المحمدي التام لإرشاد العالمين، وليكون نقطة جمع لكل المسلمين، بل للعائلة البشرية جمعاء، هادفاً إيصالها إلى ما ينبغي أن تصل إليه، وتحرير وليد علم الأسماء من شر الشياطين والطواغيت؛ وإقامة القسط والعدل في العالم وإيداع أولياء الله المعصومين عليهم السلام أمر الحكومة ليودعوها، بدورهم، مَن يرون فيه صلاح البشرية. وإذ بالقرآن يصبح على أيدي الحكومات الجائرة والمعممين الخبثاء . الذين يفوقون الطواغيت سوءً . وسيلة لإقامة الجور والفساد وتبرير ظلم الظالمين والمعاندين للحق تعالى". [الإمام الخميني، الوصية السياسية]

الرسول

وقضية الإمامة

حَتَّى اسْتَتَبَّ لَهُ مَا حَاوَلَ فِي أَعْدَائِكَ وَاسْتَتَمَّ لَهُ مَا دَبَّرَ فِي أَوْلِيَائِكَ فَنَهَدَ إِلَيْهِمْ مُسْتَفْتِحاً بِعَوْنِكَ، وَمُتَقَوِّياً عَلَى ضَعْفِهِ بِنَصْرِكَ فَغَزَاهُمْ فِي عُقْرِ دِيَارِهِمْ وَهَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي بُحْبُوحَةِ قَرَارِهِمْ حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُكَ، وَعَلَتْ كَلِمَتُكَ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

(الصحيفة السجادية)

ننطلق في بحثنا هذا حول تثبيت مبدأ القيادة الربانية في مجتمع الرسالة، وذلك من مجموع المبادئ والمسلّمات التي تعيننا على الإقتراب من فهم خصائص قيادة النبي الأكرم ﷺ.

وأولى هذه المسلّمات أنّ رسول الله ﷺ كان على علم تام بطبيعة المجتمع العربي الذي أرسل إليه؛ بما يعنيه هذا الواقع من قيم وثقافة ستتعامل مع مبدأ الإمامة الإلهية من منطلقاتها القبلية الراسخة أشد الرسوخ.

وثانية هذه المسلّمات أنّ لرسول الله ﷺ العلم التام بما ستؤول إليه الأمور وقد عرّفه الله تعالى ذلك في العديد من المناسبات.

قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: "إنّ أبي حدّثني عنْ أبِيهِ عنْ جدِّهِ عنْ عليٍّ عليه السلام أنّ رسُول اللّه ﷺ أخذَتْهُ نعْسةٌ وهُو على مِنْبرِه، فرأى في منامه رِجالًا ينْزُون على منْبرِه نزْو الْقردة، يرُدُّون النّاس على أعْقابِهِمُ الْقهْقرى، فاسْتوى رسُولُ اللّه ﷺ جالساً والْحُزْنُ يُعْرفُ في وجْهِه، فأتاهُ جبْرئيلُ عليه السلام بهذه الْآيةِ ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ الْآية، يعْني بني أُميّة، قال: يا جبْرئيلُ أعلى عهْدي يكُونُون وفي زمني؟ قال: لا، ولكنْ تدُورُ رحى الْإسْلامِ منْ مُهاجرك فتلْبثُ بذلك عشْراً، ثُمّ تدُورُ رحى الْإسْلامِ على رأْسِ خمْسٍ وثلاثين منْ مُهاجرِك فتلْبثُ بِذلك خمْساً". [بحار الأنوار]

وبمعزل عن طبيعة العلم الحاصل لرسول الله ﷺ، وهل أنه علم غيبي يوحى إليه بشكل خاص، أو كان تحليلاً دقيقاً لطبيعة المجتمع العربي آنذاك. فإنّه ﷺ تحدّث في العديد من المناسبات عن مصير هذه الأمّة لا على صعيد الزمن القريب



فحسب، بل على مستوى الأزمنة والعصور المتّصلة بآخر الزمان. وقد ذكر محدّثو الفرق المختلفة مثل هذه الروايات، التي نقطع معها بالقدرة الكاملة للنبي الأكرم في استشراف المستقبل ومجرياته.

إذاً، لم يكن رسول الله ﷺ ليتفاجأ بما سيحدث طيلة حياته الجهادية المليئة بالمواقف والأحداث المصيرية، والتي تنكشف فيها طبيعة النفوس والتوجّهات والميول؛ وتعرف على إثرها المواقف المستقبلية لأصحابها. وذلك عندما ستأتي أيام تجري فيها إمتحانات مشابهة واختبارات متكررة!

إننا لا نشك لحظة واحدة أنّ رسول الله ﷺ كان يعلم ما في ضمير كل من حوله؛ وقد دخل هذا العلم ضمن التخطيط العام للنبيّ الأكرم ﷺ فيما يتعلق بحركته، التي أراد الله لها أن تثمر نصراً مؤزراً، ولو بعد مئات السنين.

وقد بيّنت لنا الشواهد الكثيرة أن طبيعة التفكير والثقافة السائدة بين المسلمين الأوائل كانت مبنية على معادلات عصبية واعتبارات قبلية، كثيراً ما كانت تبرز عند المواقف المختلفة. ولهذا لم تكن قضية السقيفة ومجرياتها مفاجأة لمن عرف هذه الطبيعة، وهو يشاهدها تتفاعل مع قضية الحكومة وفلتاتها، بعيداً عن قيم الإسلام ومعاني الكفاءة والجدارة والأهلية.

فمن شأن الذهنية القبلية أن تقيّم الأمور على أساس المصلحة الشخصية الدنيوية، دون اعتبار للمصلحة العامة مهما كانت. وذلك لأن القبيلة لا تتمتع بقداسة ذاتية؛ بل لها الإعتبار بما تمثله (في حسابات المصالح) من أنها الفرصة الأكثر حظاً. ويمكن الترقي والقول بأنّ أهل تلك المجتمعات ما كانوا ليعرفوا أي معنى للقداسة الواقعية في حياتهم. فإذا جاعوا أكلوا أصنامهم التي كانوا يعبدونها إن كانت من تمر. وبالتحليل النفسي للطبائع القاسية، ندرك أنّ التقديس الواقعي إنما ينبع من النفوس اللينة والقلوب العاطفية. فبالنظر إلى مجتمع يئد البنات (وهن حديثات الولادة) واللاتي يمثلن أعلى مظاهر اللطافة والرقة، يمكننا أن نتصور المستوى الذي وصل إليه الإحساس العام.

فلقد ترسخ عبر مئات السنين، وداخل البيئة القبلية، مبدأ "مصلحتي

الشخصية تكمن في دعمي المطلق لقبيلتي". ومبدأ "أن قبيلتي دوماً على حق لأنني دوماً على حق". فانصهار إنسان المجتمع القبلي وذوبانه في قبيلته لم يحصل إلا لأنّ القبيلة أو الأسرة أضحت وعاء شخصيته وحدود هويته.

ويعني هذا أن يرى (كل من ترسّخت فيه هذه النزعة والروحية) في حكومة الآخر عليه تهديداً شخصياً له قبل قبيلته؛ فيصعب عليه أو يستحيل أن يتقبل ولاية الغريب عليه.. اللهم إلا إذا دخل التولي والإنتماء في حسابات الربح والخسارة الشخصية. حينها يكون من الممكن القبول بحكومة فرد من قبيلة أخرى فيما لو أظهر اعتباراً خاصاً للقبيلة أو قدّم لها إمتيازات لن تتعب في تحصيلها. وكل ذلك سيؤدي إلى أن تقوم العلاقات الإجتماعية والولاءات السياسية على أسس قبلية لا علاقة لها بالكفاءة والمؤهلات والكمالات. وهذا ما نسميه في عصرنا الحالي بالمحسوبية والمحاباة.

أما إذا انتقلنا إلى المقلب الآخر، وتأملنا في معنى الإمامة والقيادة الإلهية، فإنّ أول ما يبرز فيها هو اعتبار الكفاءة واللياقة، القائمة على الفضيلة والأفضلية بلحاظ الجهات المعنوية والنفسية والإدارية وغيرها[4]. ففي نظرية الإمامة المستفادة من مدرسة أهل بيت النبوة عليهم السلام، يجب أن يكون إمام المسلمين أفضل أهل زمانه؛ وذلك لسبب واضح، وهو أنّ مشروع الإمامة هنا يرتبط بحركة القيم وسعي المجتمع على طريق الفضائل والمعنويات. فمن المستحيل بناءً على هذا، أن يوفّق أي مجتمع في هذه الحركة التقدمية، ما لم يكن في عقيدته وثقافته إعلاء شأن الأفضل وتقديم الأكثر كفاءة وقدرة ولياقة.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: "مَنْ أَمَّ قوماً وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ أو أفقه، لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ إِلَى سَفَالٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". [بحار الأنوار]

وعلى هذا الأساس، يتم تشييد بناء صرح العدالة الإجتماعية. فتقديم الكفوء وتفضيل الأعلم يعني وضع الشخص المناسب في المكان المناسب؛ وهو بلحاظ دقيق عبارة عن إعطاء كل ذي حق حقه. ولهذا، لن نتمكن من أن نقيم العدل في أي مجتمع أو منظمة أو مؤسسة ونحن نخالف هذا المبدأ.

فنظرية الإمامة المعنوية تنبع من حكومة الفضيلة وحاكمية العدالة، وهما أساس القيم الإسلامية. وبدونهما سيبقى الإسلام إسماً بلا معنى، ورسماً بلا محتوى.

وعندما نتأمل في معنى الإمامة الإلهية وفي طبيعة الثقافة القبلية سنجدهما نقيضين لا يجتمعان وضدّين لا يتآلفان. وهذا ما ظهر من تلقّي كل متعصب لقبيلته مبدأ الإمامة كتهديد شخصي! وكان من الصعب بمكان أن يستوعب من تجذرت العصبية في قلبه ما في الإمامة من مصالح عليا ستعود على الجميع بأعظم النفع دنيا وآخرة. ذلك لأنه لو كان قادراً على استيعاب هذا الأمر سابقاً، لرأيناه ينكر حروب داحس والغبراء ويستنكر نظام الغزو والغدر والنهب والسلب!

أما ما شاهدناه في العصور التي تلت فقد أثبت أن هذه الطبيعة لم تتعرض لأي تبدّل أو تغير؛ فلم يتخلّ الكثير من العرب عن هذه العصبية، وللأسف، إلى يومنا هذا. فقد كانت ألوية الجيش الإسلامي تعقد للقبائل؛ وقد تشكلت أكبر حكومتين مسلمتين على أساس القبيلة وعصبة الدم ورابطة العشيرة وهما حكومتا بنو أمية وبنو العباس. وها نحن نعيش بعد أكثر من أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام في عالم تسيطر على قلب بلدان المسلمين المقدس قبيلة واحدة.

إذا كنا نبرر للآخرين تعصبهم القومي والجغرافي، فلأننا لا نتوقع منهم أن يكونوا أصحاب القيم والدعاة إلى الفضيلة وخير أمّة أخرجت للناس. لكننا لا نستطيع أن نبرر مثل هذه الذهنية للذين أراد الله تعالى لهم أن يكونوا قادة الأمم وعلائم الأبرار ومنارات العباد وأركان الإيمان!

عن أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: "صعد رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله الْمِنْبر يوْم فتْح مكّة فقال: أيُّها النّاسُ إنّ الله قدْ أذْهب عنْكُمْ نخْوة الْجاهليّة وتفاخُرها بآبائها، ألا إنّكُمْ منْ آدم عليه السلام وآدمُ منْ طينٍ، ألا إنّ خيْرعباد الله عبْدٌ اتّقاهُ، إنّ الْعربيّة ليْستْ بأبٍ والدٍ ولكنّها لسانٌ ناطقٌ، فمنْ قصر به عملُهُ لمْ يُبْلغْهُ حسبُهُ، ألا إنّ كُلّ دمٍ كان في الْجاهليّة أوْ إحْنةٍ -والإحْنةُ الشّحْناءُ- فهي تحْت قدمي هذه إلى يوْم الْقيامة". [الكافي]

معنى الإمامة الفعلية

تُعدّ الإمامة الإلهية من أعظم المبادئ في الدين الذي بشر به قائد الإسلام، وهي كذلك محور قيمه الرفيعة: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[الأنعام، 161]، حيث يقول تعالى وهو يحدثنا عن سير خليله إبراهيم عليه السلام في مراتب التكامل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة، 124]. فالمجتمع الذي يعتقد بضرورة سيادة القيم في حياته، هو الذي سيجد نفسه في النهاية مضطراً وراغباً بحاكمية من يمثل هذه القيم في أعلى درجاتها؛ وهو المعبّر عنه بالإمام. الإمامة الإلهية هي الوسيلة الكبرى التي تقود حركة المجتمع نحو الفضائل والمعنويات. حتى أمكن القول أن المجتمع الذي يفتقد إلى الإمام العادل، سيتنازل بشكل حتمي في نهاية أمره عن فضائله وقيمه الطيبة، وإن كان في البداية باراً تقيا.

«لو أخطأنا في هذا وغفلنا عن كون قضية الحكومة وإدارة المجتمع تتبع ملاكاً ومعياراً إسلامياً واتجهنا صوب الأنظمة الرائجة في العالم فإنّ معنى المجتمع الإسلامي سيزول، فهذه النقطة مصيرية. ولعلّنا ذكرنا هذا الحديث وسمعناه تكرارا حيث نقلنا: «لَأُعَذِّبَنَّ كُلَّ رَعِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ دَانَتْ بِوَلَايَةِ كُلِّ إِمَامٍ جَائِرٍ لَيْسَ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَعْمَالِهَا بَرَّةً تَقِيَّةً، وَلَأَعْفُوَنَّ عَنْ كُلِّ رَعِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ دَانَتْ بِوَلَايَةِ كُلِّ إِمَامٍ عَادِلٍ مِنَ اللهِ وَإِنْ كَانَتِ الرَّعِيَّةُ فِي أَنْفُسِهَا ظَالِمَةً مُسِيئَةً» [الإمام الباقر، الكافي، ج1]. *وحاصله أنّه لو كانت الأجهزة التي تدير المجتمع صالحة وسالمة فإن أخطاء متن المجتمع يمكن التغاضي عنها ولن يقع أي إشكال ضمن مسير المجتمع. أما لو كانت إدارة المجتمع ورأسه بعيدةً عن الصلاح والسلامة والعدل*



والتقوى والورع والاستقامة، ولو كان الصلاح موجوداً بين الناس، فإنّ صلاح الجسم لا يمكن أن يهدي المجتمع إلى المقصد المطلوب. وهذا ما يعكس الأهمية الفائقة لتأثير رأس القمّة والهرم والجهاز الإداري للمجتمع" . [الإمام الخامنئي، ولاية الفقيه ظلّ الخلافة العظمى]

فسير المجتمع نحو الفضائل وتوجهه إلى الكمالات، إنما يتيسر مع وجود الإمام كقائد فعلي يمارس سلطته في جميع شؤونه وقضاياه. ولا يتحقق ذلك بمجرد تواجده بين الناس؛ وإن كانوا يحترمونه ويوقرونه، أو يرجعون إليه في الفتيا أو يتعلمون علومه!. بل يجب أن تُطبّق علومه التي تلقاها من معدنها الإلهي على مستوى الأجهزة المختلفة التي تدير البلاد والعباد؛ ليكون بذلك إماماً فعلياً ولا تكون الإمامة له بالقوة والكمون.

لكي يستفيد المجتمع من الإمام العادل، يجب أن يؤمن بأهمية دوره، ويمارس هذا الإيمان من خلال مبايعته وطاعته والنصح له وبذل المهج بين يديه وتحرّك الطاقات عبر قنواته. وهذا هو المجتمع الولائي الذي يعبّر عن تماسك وتلاحم لا نظير له، يؤدي إلى تعاظم قدرته، فيصبح بفضل ذلك قوة لا تقهر.

وعندما يرفض المجتمع هذا المبدأ، ويُعرض عنه، فإن الله تعالى لن يتركه حتى يتم الحجة عليه؛ وإتمام الحجة يتطلب عملية تربوية خاصة، يتم التثبت فيها من إمكانية وصول الناس إلى معرفة الحق والتكليف الشرعي إذا ما أرادوا.

ومن المتوقع بعد إتمام الحجة، أن يبتلى المجتمع ـ الذي يعرض عنها ـ بالمشاكل والمعضلات، التي يعجز عن حلها؛ فتزداد حيرته وتكثر مشاكله ويتجه نحو العذاب.

مبدأ رعاية الأولويات ومعارضات الإمامة

إن من أهم مميزات القيادة الناجحة العقل. وإن من أهم معاني العقل تحديد أهون الشرّين؛ قال أمير المؤمنين ﷺ: «وَلَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرَّيْنِ، وَمُجَالَسَةُ الْعُقَلَاءِ تَزِيدُ فِي الشَّرَفِ».. وهو ما نعبر عنه برعاية الأولويات. فعندما تتزاحم القضايا الكبرى، فإنّ العاقل في مقام الحسابات المجردة، سيتمكن من وضع كل قضية أو مسألة ضمن سلّم أولويات أولاً، وفي مقام الفعل، يعمل بالأولى فالأولى ثانياً.

وعندما ننظر في قيادة النبي الأكرمﷺ وتعامله مع أخطر القضايا، نتعلّم معنى تقديم الأولى في أجلى صوره وأكبر مسائله. ففي قضية الإمامة (التي تقف على رأس القضايا القيمية للدين)، نجدها تتزاحم في واقع صدر الإسلام ومقتضياته، مع قضيتين أساسيتين هما:

1. حفظ القرآن الكريم (بما يمثله من حجة إلهية دائمة).

2. الحفاظ على وحدة المجتمع المسلم وتماسكه (والذي يمثل البيئة الحاضنة للقرآن والإمامة).

وقد تبيّن لنا أنّ المهم في الإمامة هو أن تصبح واقعاً يطبّقه المجتمع ويعيشه في كل مفردات حياته؛ وليس المطلوب أبداً أن تفرض على رقاب الناس؛ فإنّ الثمار الطيبة للإمامة الإلهية لا يمكن أن تؤتى إلا من خلال المبايعة الشعبية العارمة والتأييد الجماهيري الواسع. وعلى هذا الأساس، يمكن ترتيب الأولويات في القضايا المذكورة على الشكل التالي:

1. الأولوية المطلقة: تأمين مجتمع متماسك وأمّة واحدة تحترم القرآن ولا تعتدي عليه (بالحد الأدنى). وفي ظلّ هذه الأمّة الواحدة يجب العمل على تثبيت قيمة الإمامة الربانية والقيادة العادلة.

2. الأولوية الثانية: حفظ الكتاب وبقاؤه حجة على العباد (والذي يتحقق في ظل الأمة الواحدة).

3. الأولوية الثالثة: تحقق البيعة العامة والطاعة التامة لولي الله وخليفته في الأرض.

وعليه، إذا تزاحمت عملية تثبيت الإمامة في المجتمع المسلم مع وحدته وتماسكه، وأدى الضغط فيها إلى انفراط عقده، فمن المتوقع أن يتراجع قائد هذا المجتمع عن هذه الأولوية لحساب الأولوية المطلقة. وقد تجلى لنا هذا الأمر بوضوح في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالشقشقية، و ما ظهر من تخوّفه من وقوع الفتنة، في حال نهض للمطالبة بهذا الحق الإلهي؛ هذه الفتنة التي رأى فيها الإمام نهاية المجتمع ودمار بنيته التي شادها رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أما واللّه لقدْ تقمّصها فُلانٌ، وإنّهُ ليعْلمُ أنّ محلّي منها محلُّ القُطْبِ من الرّحا، ينْحدرُ عنّي السّيْلُ، ولا يرْقى إليّ الطّيْرُ، فسدلْتُ دُونها ثوْباً، وطويْتُ عنها كشْحاً، وطفقْتُ أرْتئي بيْن أنْ أصُول بيد جذّاء، أوْ أصْبر على طخْية عمْياء، يهْرمُ فيها الكبيرُ، ويشيبُ فيها الصّغيرُ، ويكْدحُ فيها مُؤْمنٌ حتّى يلْقى ربّهُ». [نهج البلاغة]

ومن الواضح أن تثبيت مبدأ عظيم، كالإمامة، في بيئة تعيش تناقضاً صارخاً مع روحه ومحتواه، يتطلب عملاً حثيثاً وسعياً كبيراً وتضحيات فائقة ومواقف بالغة. ومن المتوقع، والحال هذه، أن يُروى عن رسول الله من المواقف والكلمات والأحاديث والروايات ما يتناسب مع هذه العملية التربوية العامة. وأن تكون المواقف النبوية والروايات الشريفة حاصلة أمام أعين وأنظار أعداد كبيرة من الناس؛ وأن تتكرر عبر الأزمنة والأوقات والأمكنة والمساحات.

ويبدو، من فهمنا لطبيعة ذلك المجتمع، لو أن رسول الله ﷺ كان قام بهذا الأمر، فإنه سيلقى معارضة عنيفة، أشد من أية معارضة حصلت! وفي أغلب الظن أن العرب كانوا سينبرون إلى معاداة مشروعه إلى حد الإستماتة، أكثر مما عارضوه على التوحيد والقرآن!.

فاقتراح: «نعبد ربك سنة وتعبد ربنا سنة»، والذي يمكن أن نستنتج منه مدى تمسّك المشركين بآلهتهم!، لم يبلغ قوة اقتراح: «منّا أمير ومنكم أمير»!! إنّ المجتمع الذي كان يعتد أشد الإعتداد بآلهته وأصنامه، كان مستعداً أن يتخلّى عنها من أجل مصالحه الدنيوية. لكن هذا المجتمع نفسه، وبعد عشرين سنة من التربية النبوية، لم يكن مستعداً أن يتنازل قيد أنملة عن الرئاسة والزعامة.

إن قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ في آية «تبليغ الولاية» يدل على حجم التهديد والخطر الذي كان يحيط برسول الله ﷺ فيما لو دفع أكثر باتّجاه خلافته. ولم يكن النبيّ ليخاف على نفسه . وهو الذي خاض غمار الحروب والمخاطر العظيمة وعرّض نفسه للقتل عشرات المرات في سبيل إعلاء كلمة الله؛ وإنما كان الموت الذي يتهدّده هذه المرة فيما لو بلّغ الولاية، سيعقبه الإرتداد العام: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[آل عمران:144]. لأنّ الذين سينقلبون هم الذين يُفترض أن يحملوا أمانة الرسالة وأن يظهروا للناس كمؤمنين بالنبوة[5].

ونفس هذا الأمر كاد يحدث في رزية يوم الخميس، عند اختلاف القوم بين يدي رسول الله، في احتضاره، وما ظهر من إنكار مبطّن لنبوته وعصمته. فلقد همّوا بالتنازع والإختلاف والنبيّ يدعوهم أن يكتب لهم ما لن يضلّوا بعده أبداً؛ وكانوا على استعداد أن يذهبوا بهذا الخلاف إلى حدّ القول بأنه ليس بنبيّ أو وحي إلهي! وهم يعلمون ضمناً أنه صلوات الله عليه وآله أراد أن يعيّن لهم الخليفة من بعده.

ولهذا فالأرجح أن جميع مواقف النبيّ ﷺ حول إمامة أمير المؤمنين عليه السلام لم تكن على مستوى تثبيت الإمامة في ذلك المجتمع، وهو العالم بالنفوس وما تخفيه؛ وإنما كانت تهدف إلى إلقاء الحجة وإتمامها على الناس عبر العصور الآتية.



إنّ المؤمن الواقعي يكفيه إشارة واحدة من النبي الأكرم ﷺ في موضوع الإمامة؛ بل أقل من ذلك. فالمؤمن يستدل بالعقل والبرهان على ضرورة الإمامة الإلهية كاستمرار لخط النبوة. ويعلم بصدق الإيمان أن الله تعالى لا يعقل أن يترك أمّة الرسول تضل وتتيه، دون أن يبيّن لهم ما يتقون. فالحجة تمّت من جانب الله؛ ولا بدّ من بقائها واستمرارها على مرّ الأزمنة والدهور.

وعلى هذا الأساس فإنّ ما وصلنا عن رسول الله ﷺ حول الإمامة مهما كان قليلاً (وهو ليس بالقليل) كاف وأكثر من كاف لنعتقد بها ونؤمن ونعمل. وهو صلوات الله عليه وآله أنجز ما عليه بأفضل تدبير وأحكم تخطيط؛ والذين خالفوا وضلّوا إنّما أرادوا الضلالة، ولو قدّم لهم النبي آلاف الدلائل والآيات وأعظم البراهين والمعجزات.

وفي أصول الكافي عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: سأل رجل أبي فقال: يا ابن رسول الله سآتيك بمسألة صعبة، أخبرني عن هذا العلم ما له لا يظهر كما كان يظهر مع رسول الله ﷺ؟ قال: فضحك أبي عليه السلام وقال: أبى الله أن يطلع على علمه إلا ممتحناً للإيمان، كما قضى على رسول الله ﷺ وآله أن يصبر على أذى قومه ولا يجاهدهم إلا بأمره، فكم من اكتتام قد اكتتم به، حتى قيل له: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وإيم الله انه لو صدع قبل ذلك لكان آمنا، ولكنه إنما نظر في الطاعة وخاف الخلاف، فلذلك كفّ فوددت أن عينك تكون مع مهدي هذه الأمّة، والملائكة بسيوف آل داود بين السماء والأرض، تعذب أرواح الكفرة من الأموات، وتلحق بهم أرواح أشباههم من الأحياء، ثم أخرج سيفاً، ثم قال: ها إنّ هذا منها قال: فقال أبي: إيه والذي اصطفى محمداً على البشر، قال: فرد الرجل اعتجاره، وقال: أنا إلياس، ما سألتك عن أمرك وبي منه جهالة، غير أني أحببت أن يكون هذا الحديث قوّة لأصحابك».[بحار الأنوار]

وهكذا نصل إلى نتيجة مفادها أن رسول الله ﷺ، ورعاية للأولويات، كان يمهّد الطريق لتثبيت الإمامة، لتصبح واقعاً عملياً يوماً ما؛ وهو اليوم الذي

تستشعر فيه الأمّة مدى حاجتها إلى الإمام وتعترف بأخطائها وضلالتها من دونه[انظر ملحق 1: تربية النبي ﷺ لعلي ﷺ]. وإنّ ما ركّز عليه النبي بالدرجة الأولى هو إتمام الحجة؛ ويكفي فيه تلك المواقف المختلفة في غدير خم.

قال الإمام الصادق ﷺ: «أنْزَلَ اللّه عزّ وجلّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وكان كمالُ الدِّين بولاية عليِّ بْن أبي طالب ﷺ، فقال عنْد ذلك رسُولُ اللّه ﷺ: أمّتي حديثُو عهْد بالْجاهليّة ومتى أخْبرْتُهُمْ بهذا في ابْن عمِّي يقُولُ قائلٌ ويقُولُ قائلٌ، فقُلْتُ في نفْسي منْ غيْر أنْ ينْطق به لساني، فأتتْني عزيمةٌ من اللّه عزّ وجلّ بتْلةً أوْعدني إنْ لمْ أُبلّغْ أنْ يُعذّبني فنزلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فأخذ رسُولُ اللّه ﷺ بيد عليٍّ ﷺ فقال: أيُّها النّاسُ إنّهُ لمْ يكُنْ نبيٌّ من الأنْبياء ممّنْ كان قبْلي إلّا وقدْ عمّرهُ اللّه ثُمّ دعاهُ فأجابهُ، فأوْشك أنْ أُدْعى فأُجيب، وأنا مسْئُولٌ وأنْتُمْ مسْئُولُون، فماذا أنْتُمْ قائلُون؟ فقالُوا: نشْهدُ أنّك قدْ بلّغْت ونصحْت وأدّيْت ما عليْك فجزاك اللّه أفْضل جزاء الْمُرْسلين؛ فقال: اللّهُمّ اشْهدْ ثلاث مرّات، ثُمّ قال: يا معْشر الْمُسْلمين هذا وليُّكُمْ منْ بعْدي فلْيُبلّغ الشّاهدُ منْكُمُ الْغائب؛ قال أبُو جعْفر ﷺ: كان واللّه عليٌّ ﷺ أمين اللّه على خلْقه وغيْبه وديْنه الّذي ارْتضاهُ لنفْسه، ثُمّ إنّ رسُول اللّه ﷺ حضرهُ الّذي حضر فدعا عليّاً فقال: يا عليُّ إنّي أُريدُ أنْ أئْتمنك على ما ائْتمنني اللّه عليْه منْ غيْبه وعلْمه ومنْ خلْقه ومنْ دينه الّذي ارْتضاهُ لنفْسه فلمْ يُشْرك واللّه فيها (يا زيادُ) أحداً من الْخلْق؛ ثُمّ إنّ عليّاً ﷺ حضرهُ الّذي حضرهُ فدعا وُلْدهُ وكانُوا اثْنيْ عشر ذكراً فقال لهُمْ: يا بنيّ إنّ اللّه عزّ وجلّ قدْ أبى إلّا أنْ يجْعل فيّ سُنّةً منْ يعْقُوب، وإنّ يعْقُوب دعا وُلْدهُ وكانُوا اثْنيْ عشر ذكراً فأخْبرهُمْ بصاحبهمْ ألا وإنّي أُخْبرُكُمْ بصاحبكُمْ، ألا إنّ هذيْن ابْنا رسُول اللّه ﷺ الْحسن والْحُسيْن ﷺ فاسْمعُوا لهُما وأطيعُوا ووازرُوهُما فإنّي قد ائْتمنْتُهُما على ما ائْتمنني عليْه رسُولُ اللّه ﷺ ممّا ائْتمنهُ اللّه عليْه منْ خلْقه ومنْ غيْبه ومنْ دينه الّذي ارْتضاهُ لنفْسه فأوْجب اللّه لهُما منْ عليٍّ ﷺ ما أوْجب لعليٍّ ﷺ منْ رسُول اللّه ﷺ فلمْ يكُنْ لأحد منْهُما فضْلٌ على صاحبه إلّا بكبْره، وإنّ الْحُسيْن كان إذا حضر الْحسنُ لمْ ينْطقْ في ذلك الْمجْلس

حتّى يقُوم، ثُمّ إنّ الْحسن عليه السلام حضرهُ الّذي حضرهُ فسلّم ذلك إلى الْحُسيْن عليه السلام، ثُمّ إنّ حُسيْناً حضرهُ الّذي حضرهُ فدعا ابْنتهُ الْكُبْرى فاطمة بنْت الْحُسيْن عليها السلام فدفع إليْها كتاباً ملْفُوفاً ووصيّةً ظاهرةً... فدفعتْ فاطمةُ الْكتاب إلى عليّ بْن الْحُسيْن ثُمّ صار والله ذلك الْكتابُ إليْنا».[الكافي]

وعلى هذا الأساس مرّت تجربة الإمامة في قيادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بثلاث مراحل أساسية، هي:

1. صناعة الإمام وتأمين استمرار الإمامة على مر العصور.
2. تعريف الناس على منزلتهم المعنوية عنده.
3. تثبيتهم كحجة إلهية بين الناس.

أما المرحلة الأولى فقد تمحورت حول الإستفادة من العطاء الإلهي الكبير المتمثل بعلي وفاطمة بما يحمل كل منهما من استعدادات هائلة وطهارة لا نظير لها؛ حيث استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله أن يربيهما تربية إلهية رسالية، صارت ضمانة لاستمرار جريان نهر كوثر الولاية العذب إلى يوم الساعة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا وضعْتُ في الصِّغر بكلاكل الْعرب، وكسرْتُ نواجم قُرُون ربيعة ومُضر، وقدْ علمْتُمْ موْضعي منْ رسُول الله صلى الله عليه وآله بالْقرابة الْقريبة والْمنْزلة الْخصيصة، وضعني في حجْره وأنا ولدٌ يضُمُّني إلى صدْره، ويكْنُفُني في فراشه، ويُمسُّني جسدهُ، ويُشمُّني عرْفهُ، وكان يمْضغُ الشّيْء ثُمّ يُلْقمُنيه، وما وجد لي كذْبةً في قوْلٍ، ولا خطْلةً في فعْلٍ، ولقدْ قرن الله به صلى الله عليه وآله منْ لدُنْ أنْ كان فطيماً أعْظم ملك منْ ملائكته يسْلُكُ به طريق الْمكارم ومحاسن أخْلاق الْعالم ليْلهُ ونهارهُ، ولقدْ كُنْتُ أتّبعُهُ إتّباع الْفصيل أثر أُمّه، يرْفعُ لي في كُلّ يوْمٍ منْ أخْلاقه علماً ويأْمُرُني بالاقْتداء به».[نهج البلاغة]

ويبيّن الإمام الخميني نتيجة تربية الرسول لابنته فاطمة بقوله إن الزهراء: *«موجود إلهي جبروتي ظهر بصورة امرأة، امرأة فيها جميع خصوصيات الأنبياء. امرأة لو كانت رجلاً لكانت نبياً، امرأة لو كانت رجلاً لكانت مكان رسول*

الله. وهي امرأة بتمام معنى المرأة. فقد بدأت من مرتبة الطبيعة، تحرّكت حركة معنوية وطوت هذه المراحل بقدرة إلهية، بيد غيبية، بتربية رسول الله ﷺ، إلى أن وصلت إلى مرتبة يقصر عنها الجميع».[صحيفة الإمام]

وأما المرحلة الثانية فقد تعاضد وحي القرآن مع وحي النبوة لبيان المنزلة المعنوية الخاصة لأهل البيت الذين يمثلون بيئة الإمامة ومنبعها؛ كما في حادثة المباهلة وقصة حديث الكساء مثلا. وقد استطاع رسول الله ﷺ أن يجعل المسلمين يدركون الموقعية العاطفية لأهل بيته ﷺ ، وربط حبه وتقديره بحبهم وتقديرهم. وكان بهذا العمل يهيئ الأرضية لتوجيه الأنظار إلى هذا البيت الشريف عسى أن يكون لهم موئلا من الفتن وسفينة للنجاة.[أنظر ملحق 2: مناقب أمير المؤمنين ﷺ] و[ملحق 3: فضائل السيدة الزهراء ﷺ]

وهكذا، فُسح المجال للمرحلة الثالثة التي تحدثنا عنها[6].

وعليه، لم يكن الرسول الأكرم ليقف موقفاً سلبياً لا مبالياً تجاه أخطر القضايا الإجتماعية التي سيكون لها عظيم الأثر على الإسلام والمسلمين. ولم يكن ليداهن فيها أو يُضل (لأن هذا الأخير مخالف تماماً لمعنى إتمام الحجة) لكنه كان يعلم أنّ تلك الطبيعة التي لم تخلص من حب الدنيا، ولم تتّحد مع معنويات الإسلام وقيمه سوف تتّجه بقوة نحو رئاسة المجتمع الإسلامي والتسلّط عليه رغم وجود الأعلم والأصلح. فعلمه هذا، حمله على أن يقلل من الخسائر قدر الإمكان، حتى يبقى الدين وتبقى الرسالة فتبقى الحجة ومعالم الهداية.

ولهذا نجد في آثار السيرة النبوية كيف أنه ﷺ لم يساوم على أمر الخلافة رغم مسيس حاجته للنصرة. وكيف كان يدعو الناس ويبذل لأجل جلبهم ومشاركتهم في نصر دين الله كل ما أمكنه حيث قام رسول الله ﷺ بحركة واسعة لعرض الإسلام على القبائل. ورد في سيرة ابن هشام أنّ النبيَّ ﷺ أتى كندة في منازلهم وفيهم سيّد لهم يقال له مُليح: فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه. وأتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه،



فقال له رجل منهم: أرأيتَ إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال له رسول الله: الأمر الى الله يضعه حيث يشاء. فقال له الرجل: أفتُهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

كيف استخدم النبي الأكرم ﷺ قدراته العظيمة؟

قلنا أنّ رسول الله ﷺ كان قد بلغ عشية البعثة من القدرة والعلم والإحاطة والحكمة والهداية والرحمة والعقل وباقي الكمالات ما لا يصنف ضمن دائرة البشر العاديين. وباختصار، فإنّ هذا النبي العظيم اتّصل بالبحر اللامتناهي للكمال؛ يغترف منه حيث يشاء وكيف يشاء. فالقدرات الإعجازية التي تتجلّى في إمكانية التصرّف بالكائنات والعناصر الطبيعية، والسيطرة على كل ما هو ممكن في عالم الأكوان، وخضوع كل موجود لقدرته الشاملة، كل هذه كانت صفات ملازمة لرسول الله ﷺ! فكيف نتوقع من هذا القائد الإلهي أن يستفيد من هذه الكمالات؟

إنّ أول شيء ينبغي أن نستحضره في عملية استخدام الموارد والإمكانات هو الهدف. والأمر الثاني هو الإمكان الظرفي. ويعبّر عن الأمر الأول حتمية وصول رسول الله ﷺ إلى هدفه لأنه هو المنصور وهو صاحب الفتح وهو المؤيد والغالب.

- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام، 34]
- ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال، 62]
- ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف، 110]
- ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 171،172،173]

- ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ (غافر، 51)
- ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح، 3]
- ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة، 56]
- ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران، 160]

ويعبر عن الأمر الثاني قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾. لماذا؟ لأن التأثير على أي شيء والقدرة عليه ينبغي أن تكون ضمن دائرة الإمكان. فما ليس بممكن لا يدخل ضمن دائرة القدرة. والذي لا يؤثّر بما هو غير الممكن لا يقال عنه أنه عاجز. وإذا جئنا إلى أهم عمل لرسول الله وهو هداية البشر، فإنّ تحقّق الهداية يستلزم شرطين أساسيين: فاعلية الهادي، وقابلية المهتدي. وهداية الناس لا يمكن أن تتحقق ما لم يريدوا ذلك من أنفسهم. وإلا صارت جبراً وتغييراً لنظام الخلقة؛ وهذا خلاف الحكمة الربانية.

نعم، إنّ رسول الله ﷺ أراد الهداية لكل البشر، وكان يحب أن ينقذ كل من في النار. لكن من صار جوهر شاكلته ونفسيته نارياً وجهنمياً، كيف يمكن تبديله إلى جوهر نوري؟! وقد جعل الله تعالى كل إنسان مختاراً يرسم مصيره بيده. والاختيار ليس أمراً اختيارياً.. ولو جئنا بإنسان لا يملك اختيار الطريق، لعلمنا أنّه فاقد للطبيعة البشرية، ولما كان إنساناً.

ولا ننسى أنّ المهمّة الأساسية لرسول الله تكمن في إقناع البشر، لينتقلوا إلى حالة الإيمان والإعتقاد الراسخ بضرورة المشاركة في عملية تبديل العالم وإصلاح مجتمعاتهم. مشاركةً طوعيةً تكون بملء الإرادة والإختيار. فما يريده رسول الله ﷺ هو أبعد من قناعة مؤقتة، وأرقى من نهضة طارئة، يمكن تأمينها باستعمال بعض المؤثّرات الإعلامية أو امتلاك سلطة مهيمنة وقاهرة.

قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة، 42]

فالمسيرة طويلة والسفر بعيد، ولن يثبت فيه إلا من رسخ الإيمان في قلبه وتجذّرت القناعة في نفسه.

إنّ صناعة أمثال هؤلاء الأتباع كانت أكبر مهمة أوكلت إلى النبي. ولأجل ذلك، يجب أن ينخرط المؤمنون الذين يتّبعون النبيّ بإحسان، في مشروعه الرسالي كأمّة واحدة ومجتمع متماسك، ليكون لهم التأثير الإيماني المطلوب. الأمر الذي يستدعي فهماً عميقاً وإيماناً راسخاً بقيادة المشروع وموقعيتها الإلهية. ويجب أيضاً، أن تكون نصرتهم له بقوّة وبأس لم تعرف له البشرية شبيهاً من قبل. هذه القوّة إنّما تُستمد من عمق الإيمان بالله تعالى. وهذا الإيمان إنّما ينبع من بحر العلم اللامتناهي، المتمثّل بمعارف الكتاب والحكمة.

وباختصار، إنّ تشكيل المجتمع الرسالي المؤلّف من أفراد يعلمون الكتاب والحكمة ويمتلكون تبعاً لذلك القدرات الإعجازية هو الهدف الأسمى الذي أراده رسول الله ﷺ وكُلّف به.!

ولا شك بأنّ التحرّك نحو الكتاب وطلبه وجعله هدفاً للحياة لا يمكن أن يكون إلا بكامل الإختيار. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[يونس:99]؟

ولهذا فإن القدرة المطلقة البحتة التي يمكنها أن تخضع كل ذرّات الوجود، لن تكون نافعة هنا في جعل الناس مؤمنين. وينبغي استعمال نوع آخر من القدرة. وهي الحكمة والعقل والمنطق.

فالعقل والإقناع بالحكمة هما من أقوى المؤثّرات على البشر.. فكيف إذا أضفنا الرحمة بهم والمحبة لهم والحرص عليهم؟! هذا، ويتفق أصحاب الوجدان على أن الطبيعة الإنسانية إنما تتأثر بفعل المنطق العقلي المشفوع بالحرص والعاطفة، بطريقة تعجز عنها أقوى القوى وأشدها بطشا.

فالمعوّل لتحقيق الهدف المنشود هو هذا المنهاج. ولأجل ذلك لا بد من تشكيل مجتمع يعمل أبناؤه وفق العقل والمنطق، وعلى أساس التراحم والتحابب. إنّ هذا المجتمع هو الذي كان غاية البعثة منذ البداية. وتكمن عظمة قيادة الرسول

ورسالته في إنجاز هذا الوعد، ولو بعد حين. وما عجز عنه جميع المصلحين في العالم، سيتحقق بفضل رسول الله ﷺ يوماً من الإيام.

نماذج من استعمال القدرات الإعجازية للهداية ومدى تأثيرها:

• فعن علي عليه السلام: «ولقد كُنتُ معهُ ﷺ لمّا أتاهُ الملأُ من قُريش فقالُوا لهُ: يا مُحمّدُ إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحدٌ من بيتك ونحنُ نسألُك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناهُ علمنا أنّك نبيٌّ ورسُولٌ، وإن لم تفعل علمنا أنّك ساحرٌ كذّابٌ؛ فقال: ﷺ وما تسألُون؟ قالُوا: تدعُو لنا هذه الشّجرة حتّى تنقلع بعُرُوقها وتقف بين يديك؛ فقال ﷺ: إنّ اللّه على كُلّ شيءٍ قديرٌ، فإن فعل اللّه لكُم ذلك أتُؤمنُون وتشهدُون بالحقّ؟ قالُوا: نعم. قال: فإنّي سأُريكُم ما تطلُبُون، وإنّي لأعلمُ أنّكُم لا تفيئُون إلى خيرٍ، وإنّ فيكُم من يُطرحُ في القليب، ومن يُحزّبُ الأحزاب، ثُمّ قال ﷺ: يا أيّتُها الشّجرةُ إن كُنت تُؤمنين باللّه واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسُولُ اللّه فانقلعي بعُرُوقك حتّى تقفي بين يديّ بإذن اللّه، فوالّذي بعثهُ بالحقّ لانقلعت بعُرُوقها وجاءت ولها دويٌّ شديدٌ وقصفٌ كقصف أجنحة الطّير حتّى وقفت بين يدي رسُول اللّه ﷺ مُرفرفةً، وألقت بغُصنها الأعلى على رسُول اللّه ﷺ وببعض أغصانها على منكبي وكُنتُ عن يمينه ﷺ، فلمّا نظر القومُ إلى ذلك قالُوا عُلُوّاً واستكباراً: فمُرها فليأتك نصفُها ويبقى نصفُها، فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفُها كأعجب إقبالٍ وأشدّه دويّاً فكادت تلتفُّ برسُول اللّه ﷺ، فقالُوا كُفراً وعُتُوّاً: فمُر هذا النّصف فليرجع إلى نصفه كما كان فأمرهُ ﷺ فرجع، فقُلتُ أنا: لا إله إلّا اللّه إنّي أوّلُ مُؤمنٍ بك يا رسُول اللّه، وأوّلُ من أقرّ بأنّ الشّجرة فعلت ما فعلت بأمر اللّه تعالى تصديقاً بنُبُوّتك وإجلالاً لكلمتك، فقال القومُ كُلُّهُم: بل ساحرٌ كذّابٌ عجيبُ السّحر خفيفٌ

فيه، وهل يُصدِّقُك في أمرك إلّا مثلُ هذا؟ (يعنونني) وإنّي لمن قوم لا تأخُذُهم في الله لومةُ لائم، سيماهُم سيما الصِّدِّيقين، وكلامُهُم كلامُ الأبرار، عُمّارُ الليل ومنارُ النّهار، مُتمسِّكون بحبل القُرآن، يُحيُون سُنن الله وسُنن رسُوله، لا يستكبرُون ولا يعلُون ولا يغُلُّون ولا يُفسِدُون قُلُوبُهُم في الجِنانِ وأجسادُهُم في العمل...». [نهج البلاغة]

• [في كتاب الاحتجاج]: بالإسناد إلى أبي مُحمّد العسكريّ ﷺ في احتجاج النّبيّ ﷺ على قُريش: "إنّ الله يا أبا جهل إنّما دفع عنك العذاب لعلمه بأنّهُ سيخرُجُ من صُلبك ذُرّيّةٌ طيّبةٌ، عكرمةُ ابنُك، وسيلي من أُمُور المُسلمين ما إن أطاع الله فيه كان عند الله خليلًا وإلّا فالعذابُ نازلٌ عليك، وكذلك سائرُ قُريش السّائلين لمّا سألُوا من هذا، إنّما أمهلُوا لأنّ الله علم أنّ بعضهُم سيُؤمنُ بمُحمّد وينالُ به السّعادة فهُو لا يقطعُهُ عن تلك السّعادة ولا يبخلُ بها عليه، أومن يُولدُ منهُ مُؤمنٌ فهُو يُنظرُ أباهُ لإيصال ابنه إلى السّعادة، ولولا ذلك لنزل العذابُ بكافّتكُم؛ فانظُر نحو السّماء، فنظر أكنافها فإذا أبوابُها مُفتّحةٌ وإذا النّيرانُ نازلةٌ منها مُسامتةٌ لرُءُوس القوم حتّى تدنُو منهُم، حتّى وجدُوا حرّها بين أكتافهم، فارتعدت فرائصُ أبي جهل والجماعة؛ فقال رسُولُ الله ﷺ: لا تروعنّكُم فإنّ الله لا يُهلكُكُم بها وإنّما أظهرها عبرةً، ثُمّ نظرُوا وإذا قد خرج من ظُهُور الجماعة أنوارٌ قابلتها ودفعتها حتّى أعادتها في السّماء كما جاءت منها، فقال رسُولُ الله ﷺ: بعضُ هذه الأنوار أنوارُ من قد علم الله أنّهُ سيُسعدُهُ بالإيمان في كُلّ منكُم من بعدُ، وبعضُها أنوارٌ طيّبةٌ سيخرُجُ عن بعضكُم ممّن لا يُؤمنُ وهُم مُؤمنُون".

• [وفي كتاب الخرائج والجرائح]: "من مُعجزات النّبيّ ﷺ أنّهُ

كان ليْلةَ جالساً في الْحِجْرِ وكانتْ قُريْشٌ في مجالسها يتسامرُون فقال بعْضُهُمْ لبعْضٍ: قدْ أعْيانا أمْرُ مُحمّد فما نـدْري ما نقُولُ فيه، فقال بعْضُهُمْ: قُومُوا بنا جميعاً إليْه نسْألُهُ أنْ يُرينا آيةً من السّماء فإنّ السِّحْر قدْ يكُونُ في الأرْض ولا يكُونُ في السّماء؛ فصارُوا إليْه فقالُوا: يا مُحمّدُ إنْ لمْ يكُنْ هذا الّذي نرى منْك سحْراً فأرنا آيةً في السّماء فإنّا نعْلمُ أنّ السِّحْر لا يسْتمرُّ في السّماء كما يسْتمرُّ في الأرْض فقال لهُمْ: ألسْتُمْ ترون هذا القمر في تمامه لأرْبع عشْرة؟ فقالُوا: بلى. قال: فتُحبُّون أنْ تكُون الآيـةُ منْ قبله وجهته؟ قالُوا: قدْ أحْببْنا ذلك، فأشار إليْه بإصْبعه فانْشقّ بنصْفيْن، فوقع نصْفُهُ على ظهْر الْكعْبة، ونصْفُهُ الآخرُ على جبل أبي قُبيْس، وهُمْ ينْظُرُون إليْه؛ فقال بعْضُهُمْ: فرُدّهُ إلى مكانه، فأوْمأ بيده إلى النِّصْف الّذي كان على جبل أبي قُبيْس فطارا جميعاً فالْتقيا في الْهواء فصارا واحداً واسْتقرّ الْقمرُ في مكانه على ما كان، فقالُوا: قُومُوا فقد اسْتمرّ سحْرُ مُحمّد في السّماء والأرْض؛ فـأنْـزل الله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾".

مقارنة بين نهج موسى ونهج خاتم الأنبياء

بإجراء مقارنة سريعة بين نهج نبيّ الله العظيم موسى بن عمران ﷺ ونهج خاتم الأنبياء يتبيّن لنا جانب من عظمة النهج المحمدي ﷺ وتقدمه.

أراد الله تعالى أن يعطي البشرية درساً عظيماً من خلال النهج الموسوي، الذي تصبو إليه النفوس وتتعلق به القلوب وتحاسب على أساسه ربها اللطيف. فكل إنسان مظلوم أو يعاني من الظلم أو يرفضه ويتوق إلى الحرية والإنعتاق من ظلم الظالمين سيتساءل بينه وبين ربّه لماذا يترك الله تعالى هؤلاء الطواغيت والمفسدين، وسوف يطلب من أعماقه نصرة الربّ، وتدخّله في إنقاذ البشر، لكي يعبده ويشكره ويقدسه ويسبحه. وبالنسبة لهذا المؤمن، لو تأخر المدد الإلهي، فإنّ ظنه بالله سيسوء ويجرّه إلى الكفر.

أكثر الناس يتصورون التدخل الإلهي بطريقة إعجازية، حيث يقفون جانباً ليشاهدوا كيف أن الله تعالى سيبيد الأعداء، ويزلزل بهم الأرض، وينزل عليهم ألوان العذاب من السماء! ولأجل هداية البشر إلى النهج المحمدي المخلّص، فإن الله تعالى ضرب لنا مثلاً سيرة موسى في هداية قومه.

فلنشاهد كيف أنّ الله تعالى أعطى عبده موسى تلك الآيات العجيبة، التي استخدمها لإنقاذ بني إسرائيل من براثن فرعون وقومه، الذين استعبدوهم واسترقّوهم واستحيوا نساءهم وقتلوا أبناءهم. فالمعجزات الباهرات أجبرت فرعون في النهاية أن يحرّر قوم موسى، بعد أن عجز عن قتله والقضاء عليه. ويحكي التاريخ كيف أنّ موسى ﷺ غزا فرعون في عقر داره وكان يدخل إلى قصره ويجول بين حاشيته وجنده وقواته المتجبّرة، دون أن يتمكّن فرعون من أن يمسّه بسوء أو يتعرّض له بأذى. هذا، وبنو إسرائيل يشاهدون مع كل آية عظمة موسى وقدراته الإعجازية. بل وصل الأمر أن استطاع موسى أن يهلك أبناء قوم فرعون؛ وانقلب الوضع، فإذ بالذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل الأمس، يشاهد أبناءه يقتلون اليوم، وهو لا يقدر على شيء!!



معجزات وعجائب تخلب الألباب، تظهر على يدي موسى وحيداً فريدا. لكن ماذا كانت النتيجة؟

بمجرّد أن خرج بنو إسرائيل من معجزة شقّ البحر، وهم بعد لم تجف أرجلهم، ورأوا قوماً عاكفين على أصنام لهم، حتى قالوا لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. وبمجرّد أن طلب موسى منهم أن يجاهدوا معه، لإقامة مجتمع رسالي نموذجي في الأرض المقدّسة، حتى قالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!!

ويتبيّن لنا أنّ نهج القيادة والتغيير بالمعجزات (الذي يسميه البسطاء التدخّل الإلهي) بما تحمله من قهر وغلبة، لا يتسلل إلى النفوس، ولا يسري إلى القلوب، ولا يصنع إنساناً ولا يحقق إيمانا..

أما رسول الله ﷺ فإنّه لم يستخدم المعجزة بهذا المعنى، إلا في نطاق ضيق ومحدود (نشير إليه عما قليل). ولم تشكّل المعجزة معالم نهجه في تحرير قومه من الرقّ والعبودية للطاغوت، ولم يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم بتلك الطريقة. بل تلا عليهم الآيات وخاطبهم بالعقل وسعى أن يحيي فيهم ما كمن من الطاقات والاستعدادات، ليتحملوا مسؤولية هداية أنفسهم بأنفسهم، وليصبحوا في النهاية قدوة للبشرية جمعاء[7]. [انظر الملحق 4: القرآن في معركة التحدي]

ولهذا وقف المقداد قائلاً حين جاء إمتحان الجهاد والتضحية: "لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل اذهب أنت وربك فقاتلا.. ففي حديث أبي حمزة الثمالي: بعث رسول الله ﷺ عيناً له على العير اسمه عُديّ، فلما قدم على رسول الله ﷺ فأخبره أين فارق العير، نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره بنفير المشركين من مكة، فاستشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ولا ذلّت منذ عزّت ولم نخرج على أهبة الحرب. وفي حديث أبي حمزة قال أبو بكر: أنا عالم بهذا الطريق فارق عدي العير بكذا وكذا وساروا وسرنا فنحن والقوم على بدر يوم كذا وكذا كأنا فرسا رهان، فقال ﷺ: اجلس فجلس. ثم قام عمر بن الخطاب فقال:

مثل ذلك، فقال: اجلس فجلس. ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها وقد آمنا بك وصدقنا وشهدنا أن ما جئت به حق والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾". [بحار الأنوار]

فمن خلال عملية الإقناع بالكلمة ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل، 125]، والموعظة ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾[سبأ، 46]، والمنطق ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[النمل، 64]، والمحبة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة، 165]، والرحمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران، 159]، شعر الأتباع بعمق المسؤولية، وانطلقوا نحو الجهاد بين يدي رسول الله، وتحمّلوا معه كل أنواع البلاءات، ومضوا على الطريق.. ولو أنهم استمرّوا واتّبعوا الرسول وأطاعوه في وصيته وحفظ تراثه، لوصلوا إلى علم الكتاب، ولجرت المعاجز الكبرى على أيديهم[8].

لقد تمثلت قدرة الرسول الأعظم ومعجزته التي تقهر كل شيء وتفوق كل معجزة (ظهرت في التاريخ أو يمكن أن تظهر في عالم الوجود) في كلمة الله، المودعة في الكتاب والنازلة في القرآن.

يقول الإمام الخميني قده: «*في ظلّ القرآن تغلّب الإسلام على جميع الإمبراطوريات في ذلك الوقت في ظرف خمسين عاماً. وما دمنا تحت ظلّ القرآن سوف نتغلّب على الأعداء. وإذا استطاع الأعداء لا سمح الله إبعادنا عن الإسلام والقرآن فإنه يجب علينا الجلوس حينئذ ومشاهدة ذلتنا وعبوديتنا. إنّ الاستقلال والحرية في اتّباع القرآن الكريم والرسول الأكرم*».[صحيفة الإمام].

ولا شك بأن القائد العظيم سيستخدم إمكاناته وقدراته بأفضل ما يكون. ففن القيادة يتمحور حول الإستخدام الأمثل للإمكانات. وقد اجتنب رسول الله ﷺ استخدام تلك المعاجز الوسطى والصغرى (مقارنة بمعجزة القرآن) مهما أمكنه.

- عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال نزل جبْرئيلُ عليه السلام على رسُولِ



اللّه ﷺ فقال: إنّ اللّه جلّ جلالُهُ يُقْرئك السّلام ويقُولُ لك هذه بطْحاءُ مكّة تكُونُ لك رضْراضُهُ ذهباً؛ قال: فنظر النّبيُّ ص إلى السّماء ثلاثاً، ثُمّ قال: لا يا ربِّ ولكنْ أشْبعُ يوْماً فأحْمدُك وأجُوعُ يوْماً فأسْألُك». [بحار الأنوار، 61]

• ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان، 7،8]

• ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، 94-90]

فصار نهجه الإعجازي العام هو القرآن وصار خلقه القرآن وجهاده القرآن. أي أنه ﷺ صبّ كل جهده في نشر كلمة الله بالقرآن. فما من قدرة في الكون بأعظم أو أقوى من كلمة الله العليا. وهكذا أورثنا هذا النبي العظيم إمكانية السير على هذا النهج، ويسّر لنا شريعته، وعلّمنا أنه بالمقدار الذي نستخدم القرآن في حياتنا وجهادنا سنحقق من نتائج. وبمقدار ما نبتعد عن القرآن فإننا سنفشل ونهزم.

يقول الإمام الخميني قده: *"إنّ الغرض من نزول هذا الكتاب المقدّس، ومن بعثة النبي الأكرم هو لكي يصبح هذا الكتاب في متناول أيدي الجميع، حتى يستفيدوا منه بمقدار سعتهم الوجودية والفكرية. ومع الأسف فلم نتمكن نحن، ولا البشرية، ولا علماء الإسلام من الاستفادة من هذا الكتاب المقدس بالمقدار*

الذي ينبغي الاستفادة منه. يجب على الجميع استخدام أفكارهم، وتسخير عقولهم نحو هذا الكتاب العظيم حتى نتمكن من الاستفادة بمقدار استعدادنا وكما هو عليه.

فالقرآن جاء لتستفيد منه جميع الطبقات، كلٌّ بمقدار استعداده. وطبعاً فإنّ بعض الآيات لا يمكن أن يفهمها إلا رسول الله والمتعلم بتعليمه، ويجب علينا فهمها بواسطتهم. وإنّ الكثير من الآيات الأخرى هي في متناول أيدي الجميع، حيث يجب عليهم استخدام أفكارهم وعقولهم ليستفيدوا منها مسائل الحياة، سواء حياة هذه الدنيا أو الحياة الأخرى". [صحيفة الإمام]

صحيح أن هذا المسار بعيد المدى، وهكذا هي طبيعة الرسالة المحمدية، التي لم تكن سفراً سريعاً ولا عرضاً قاصدا، لكنه موصل في النهاية.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: "**بعثهُ والنّاسُ ضُلّالٌ في حيْرةٍ وحاطِبُون في فِتْنةٍ قد اسْتهْوتْهُمُ الأهْواءُ واسْتزلّتْهُمُ الْكِبْرِياءُ واسْتخفّتْهُمُ الْجاهِليّةُ الْجهْلاءُ حيارى في زلْزالٍ مِن الْأمْرِ وبلاءٍ مِن الْجهْلِ فبالغ ص في النّصِيحةِ ومضى على الطّرِيقةِ ودعا إِلى الْحِكْمةِ والْموْعِظةِ الْحسنةِ**". [نهج البلاغة]

ولكي يتحقق الهدف البعيد، كان لا بدّ من تشكيل مجتمع يحمل الكتاب، وإن لم يتحمّله ويؤمن به.. فإن لم يعمل به، ينقله إلى من سيعمل به! هذا، وإن كان الأجر والثواب على العمل والتطبيق. وقد ينصر الله دينه وقرآنه بقوم لا يشمون رائحة الجنة أبداً. وقد يحمل الفقهَ رجلٌ إلى من هو أفقه منه.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قدْ علّمْناكُمْ ما شرط اللّهُ عزّ وجلّ على أهْلِ الْجِهادِ الّذِين بايعهُمْ واشْترى مِنْهُمْ أنْفُسهُمْ وأمْوالهُمْ بِالْجِنانِ، فلْيُصْلِحِ امْرُؤٌ ما علِم مِنْ نفْسِهِ مِنْ تقْصِيرٍ عنْ ذلِك، ولْيعْرِضْها على شرائِطِ اللّهِ، فإِنْ رأى أنّهُ قدْ وفى بِها وتكاملتْ فِيهِ فإِنّهُ مِمّنْ أذِن اللّهُ عزّ وجلّ لهُ فِي الْجِهادِ، فإِنْ أبى أنْ لا يكُون مُجاهِداً على ما فِيهِ مِن الْإِصْرارِ على الْمعاصِي والْمحارِمِ والْإِقْدامِ على الْجِهادِ بِالتّخْبِيطِ والْعمى والْقُدُومِ على اللّهِ عزّ وجلّ بِالْجهْلِ والرِّواياتِ الْكاذِبةِ فلقدْ لعمْرِي جاء**



الْأَثَرُ فِيمَنْ فعل هذا الْفعْل؛ إِنّ اللّه عزّ وجلّ يَنْصُرُ هذا الدِّين بِأَقْوام لا خلاق لهُمْ، فَلْيَتّقِ اللّه عزّ وجلّ امْرُؤٌ ولْيحْذرْ أنْ يكُونَ مِنْهُمْ فقدْ بيّن لكُمْ ولا عُذْر لكُمْ بعْد الْبيانِ فِي الْجهْلِ ولا قُوّة إِلّا بِاللّهِ وحسْبُنا اللّه عليْه توكّلْنا وإِليْه الْمصِيرُ.[الكافي]

ولما رأى رسول الله واقع المجتمع وسعى كامل جهده لإقناعهم بحمل القرآن وتحمّله، ورأى منهم ما رأى اضطر أن يدخل معهم بمقايضة، تلقي عليه أثقالاً باهظة وتتطلّب منه تضحيات لا يقدر على بذلها أحد غيره. فبعد أن دعا قومه ليكونوا أهل الأمانة، التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، ليكون لهم العزّ الأمجد، وتكون لهم عاقبة الدار، وعلم نكوصهم ورفضهم وانقلابهم على أعقابهم، كان عليه أن يستخدمهم للوصول إلى هدفه، وإن لم يريدوا الوصول إليه بأنفسهم.

وقد استدعى هذا الأمر من رسول الله ﷺ أن يسلك مع هؤلاء نهج الإستمالة. فيأمن بذلك عداءهم له وللقرآن وللإمام، قدر الإمكان. ويساومهم ضمناً، فيعطونه النصر، ويؤتيهم هو من حرث الدنيا والملك فيها[9]؛ وفي نفس الوقت يشق لخلفائه من بعده طريقاً لإكمال عملية الإصلاح الداخلي؛ فيتابع أتباعه الخلّص عملهم داخل الأمّة وبين صفوفها بحذر تام وتقية عظيمة؛ كل ذلك من أجل تهيئة الأرضية المناسبة لثورة جديدة هدفها إسقاط الطاغوت الذي يعشعش في النفوس، حتى يحدث التغيير في الأنفس، ويحدث من جرّائه التغيير في العالم: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقد تطلب نهج المساومة أو الإستمالة الضروري الأمور التالية:

1. أن يقرّب النبيّ إليه كل من لم يجاهر بالعداء.
2. أن لا يتعامل مع من أسلم على أساس باطنه وقلبه.
3. أن يعطي كل من يعطيه وزيادة؛ مهما كان الأمر.
4. أن يظهر بمظهر من لا يعلم ما في الغيب والباطن.

فنجم عن هذا أن طمع برسول الله كل من عرف فيه هذه الخصال؛ وأدّى هذا إلى أن تتضاعف مشاركتهم في نصرته! فما كانت تقدّمه الجاهلية أو القبيلة لن يفوق أو يزيد على ما يمكن أن يقدّمه النبيّ ﷺ. والمغامرون أيام الجاهلية في السعي والحرب والقتال، أضحت فرصتهم أكبر مع رسول الله ﷺ.

وهكذا استطاع رسول الإسلام العظيم أن يظهر للناس مشروعين؛ الأول: مشروع الآخرة؛ وكل من يريده سيؤتيه الله فيه أجراً عظيماً. ولا شك بأنّ هذا هو المشروع الإستراتيجي والذي يتحقق الهدف على طريقه. والثاني: مشروع الدنيا؛ وقد تمكّن رسول الله ﷺ من عرضه بصورة لا يمكن لأي عرض دنيوي آخر أن يتغلب عليه أو ينافسه! فمن أراد الدنيا وسعى لها سعيها سيجد مع النبيّ ﷺ ما يريد، وتكون فرصته في ذلك أكثر مما لو كان مع قبيلته أو عشيرته. ومن عظمة قيادة النبيّ ﷺ أنّه جعل طريق الدنيا في خدمة الدين، فكان مشروعه الدنيوي أرضية مناسبة لمشروعه الأخروي وخطته الإلهية.

ولكي يضمن أن لا يتحوّل المشروع الدنيوي إلى عقبة أو انقلاب على الأخروي، يجب أن يبقى الأمناء على المشروع الأخروي على رأس الدنيوي؛ وإلا تحوّل إلى عدوّ ومانع، وقضى على الإنجازات التي يفترض أن تكون خطوات أساسية على طريق الهدف الكبير.

لم تكن مهمة ضمانة القيادة الإلهية بالأمر اليسير أبدا! فالتحرّك نحوها يعني تهديد المشروع الدنيوي الذي لا بدّ منه للمشروع الإلهي. لأنّ قيادة المجتمع وإمامته تقف على رأس الأمور الدنيوية وتضمن لكلّ الطامعين استمرار مصالحهم وبقاء المجال لنيل مطامعهم. وعليه، لا يمكن لمن يريد العلوّ في الدنيا أن يتقبّل مجيء من لا يرى فيه أية مهادنة أو إدهان ليمسك بزمام الحكومة مع ما تعنيه من مكتسبات. وكان على رسول الله ﷺ أن يمشي بين نارين؛ ويا لها من مهمّة يعجز عنها الجميع، ولا يقدر عليها أحد.

إنّ على رسول الله والحال هذه أن يهيّئ الأرضية المعنوية والتقبّل النفسي للقيادة الإلهية والانتقال إلى المشروع الإلهي؛ وذلك دون أن يشعر الكثيرين



ممن أسلم أنّ دنياه في خطر؛ حتى يتسنّى له صناعة جيل يقبل بجعل دنياه في خدمة دينه. ويمكن القول أنّ القسم الكبير من جهود النبيّ ﷺ كانت تصب في هذا الإطار. ولكن ظهر مدى تجذّر الخيار الدنيوي في النفوس واستحالة إحداث التغيير المطلوب فيها. فشاء الله أن يتحقّق هذا من خلال عملية تطول عبر القرون. وهكذا امتدّ الإجراء الرسالي إلى صناعة خلفاء يبقون على مرّ هذه القرون، وشاءت الحكمة الربانية حفظ الدين الذي يمثّل برنامج السير نحو الآخرة (كما عرفنا) بطريقة إخفاء المعنى والمضمون في الظاهر والشكل.

وعَنْ أَبِي عَبْد اللَّه عليه السلام قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: إِنَّما أَقْضي بيْنكُمْ بِالْبيِّناتِ والأيْمانِ، وبعْضُكُمْ أَلْحنُ بِحُجّته منْ بعْضٍ، فأيُّما رجُلٍ قطعْتُ لهُ منْ مالِ أخِيه شيْئاً فإنّما قطعْتُ لهُ بِهِ قِطْعةً مِن النّارِ". [الكافي]

وقد ذكرنا أن النهج العام لرسول الله ﷺ في دعوته قام على أساس تغليب المنطق العقلي وإخفاء الغيب (لا تغييبه)؛ ولهذا وجدنا في أمّة النبيّ المختار من المؤمنين بدعوته من لم يرَ أثراً للغيب، وأخذ متشابه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾[الأعراف:188]، ومتشابه ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام: 50]، ومتشابه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[النمل:65] وترك محكم ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[آل عمران: 44]، ومحكم ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:24]، ومحكم ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن:26,27]. فكان الزيغ سبباً لأن يتساءل أقرب الناس إليه قائلين من أنبأك هذا؟

فإذا كان الوحي الإلهي والخطاب الربّاني لا ينقطع مع رسول الله فهل يوجد هنا ما هو أعظم غيباً؟ وهل هناك مقام أرقى وأعلى في العلم والإحاطة؟ لكن كانت نتيجة إصرارهم أن أزاغ الله قلوبهم.

وهكذا اعتقد الكثيرون منهم أنه لا يأخذ علمه إلا من الظواهر، كأي بشر مثلهم، فوصفوه بالأُذُن، لأنه يسمع لهم، ويصدّق أي واحد منهم.

• ففي كتاب الاحتجاج للطبرسيّ رحمه الله: «عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه، وقد ذكر علياً ﷺ وما أوصى الله فيه، وذكر المنافقين والآثمين والمستهزئين بالإسلام وكثرة أذاهم لي، حتّى سمّوني أذنا. وزعموا أنّي كذلك لكثرة ملازمته إيّاي وإقبالي عليه، حتّى أنزل الله عزّ وجلّ في ذلك قرآناً، ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ على الذين يزعمون أنه أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ (الآية). ولو شئت أن أسمي بأسمائهم لسميت، وأن أومئ إليهم بأعيانهم لأومأت، وأن أدلّ عليهم لدللت، ولكني، والله، في أمورهم قد تكرّمت».

• وفي تفسير عليّ بن إبراهيم قال: "كان سبب نزولها، أنّ عبد الله بن نفيل كان منافقا، وكان يقعد إلى رسول الله ﷺ فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين وينم عليه. فنزل جبرئيل ﷺ على رسول الله ﷺ، فقال، يا محمّد، إنّ رجلا من المنافقين ينمّ عليك، وينقل حديثك إلى المنافقين. فقال رسول الله ﷺ، من هو؟ فقال، الرّجل الأسود، الكثير شعر الرأس، ينظر بعينين، كأنّهما قدران وينطق بلسان شيطان. فدعاه رسول الله ﷺ فأخبره. فحلف، أنه لم يفعل. فقال رسول الله ﷺ، قد قبلت منك، فلا تقعد. فرجع إلى أصحابه، فقال، إنّ محمدا أذن. أخبره الله إني أنمّ عليه وأنقل أخباره، فقبل. وأخبرته أني لم أفعل ذلك، فقبل. فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي، يصدق الله فيما يقول له، ويصدقك فيما تعتذر إليه في الظاهر ولا يصدّقك في الباطن. وقوله، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، يعني، المقرّبين بالإيمان من غير اعتقاد".

• وفي تفسير العيّاشيّ: "عن الصّادق ﷺ، يعني، يصدّق الله

ويصدّق المؤمنين، لأنّه كان رؤوفا رحيما بالمؤمنين."

- **وفي الكافي: "عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن إبن أبي عمير، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز، عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل. يقول فيه عليه السلام لابنه إسماعيل: يا بنيّ، إنّ الله عزّ و جلّ يقول في كتابه: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. يقول: يصدّق الله و يصدق المؤمنين. فإذا شهد عندك المؤمنون، فصدّقهم."**

وسهل على المسلمين أن يطرحوا آراءهم مقابل رأي النبيّ ويظهروا إرادتهم خلاف إرادته:

فحين خرج المسلمون إلى بدر أفطر رسول الله، لكن جماعة لم يفطروا حتى نادى مناديه: يا معشر العصاة إني مفطر فأفطروا، وذلك أنه كان قد قال لهم قبل ذلك: أفطروا؛ فلم يفعلوا. وأثناء سيرهم إلى بدر عزم رسول الله على أن يسأل أصحابه عن استعدادهم للقتال في مثل تلك الظروف، يقول الواقدي: قام أبو بكر وقال وأحسن (ولم ينقل أحد ماذا قال) ثم قام عمر وقال: يا رسول الله! إنّها قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، وما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلّم عزّها أبدان، ولتقاتلنك، فاتّهب لذلك أهبته وأعدّ لذلك عدّته! ثم قام المقداد بن عمرو وأظهر صدق إيمانه وإتباعه للنبي كما مرّ. ثم التفت النبي إلى الناس وقال: «أشيروا عليّ أيها الناس» وفطن سعد بن معاذ الأنصاري أنه يريد الأنصار فقال: إنّا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ كل ما جئت به حقّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السّمع والطّاعة فامض يا نبيّ الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك.. ولما فرغ من كلامه أمر النبي بالسّير وقال: فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين.

وتذكر كتب السّير أن رسول الله كان قد طلب من المسلمين قبل الحرب ألاّ يقتلوا من كان ساعده في مكّة بنحو من الأنحاء أو جيء به إلى بدر مكرها، وكان بنو هاشم منهم، وفيهم أبو البختريّ الذي كان يحول دون إيذاء النبي ص وقتا ما، مع هذا فقد قُتل. كما كان رسول الله قد نهى عن قتل الحارث بن عمر بن

نوفل، إذ أتي به مرغما، وقد قتل أيضا.

وكان المسلمون مكلفون من قبل رسول الله ألا يأسروا أحدا أثناء القتال في المعركة ولم يلتزموا، فكانوا يُقلّون من قتل المشركين ويأسرونهم طمعا بأخذ الفدية. وكان بعض الأشخاص يهمَ بالأسر فيأتي مسلم آخر فيقتل الأسير أثناء القتال. وعلى سبيل المثال أسر ابن عوف أمية بن خلف ونجله لكن وصل بلال فقتل أمية. وقد عاتبهم القرآن على أخذ الأسرى قائلا: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال، 67]. ثم ظهر الخلاف بين المسلمين حول كيفية التعامل مع الأسرى: هل يُقتلون أم يؤخذ الفداء منهم؟ وقد أمر رسول الله بقتل اثنين من الأسرى كانا من أنشط المشركين عملا ضد النبي والمسلمين فقتلا بسيف علي عليه السلام.

يقول الواقدي: وكره خروجَ رسول الله ﷺ أقوامٌ من أصحابه إلى بدر، قالوا: نحن قليل وما الخروج برأي، ومن أسباب هذا الجدال أنهم قالوا: كيف خرجنا من المدينة ونحن لم نعلم ألقافلة جئنا أم للقتال! وذكر الله سبحانه في الآيات القرآنية هذه المجريات ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[الأنفال: 5،6]، وفي آية أخرى بيّن وعده لرسوله بالنصر على إحدى الطائفتين (القافلة أو الجيش): ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾[الأنفال، 7]، ثم أورد الله تعالى إرادته بقطع يد المشركين مكرّرا لها في عدة مواطن من السّورة ومذكّرا المسلمين بأنّ بدراً كانت عذاباً إلهياً وعد به المشركون: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأنفال، 7].

وفي أحد دار حوار مفصّل بين رسول الله وصحابته حول الخروج من المدينة أو البقاء فيها، ومن بين أهل المدينة كان عبد الله بن أبي يصرّ على البقاء وهو أحد المنافقين، وقال: «وما خرجنا إلى عدوّ قطّ إلا أصاب منّا، وما دخل علينا قطّ إلاّ أصبناه». وقال الواقديّ: إنّ رأي رسول الله كان في البقاء، وفي مقابل ذلك كان إصرار الصحابة على الخروج من المدينة ولقاء العدوّ، مثل حمزة بن عبد

المطلب، الذي قال لرسول الله ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارجا من المدينة. ولمّا رأى رسول الله إصرار القوم على الخروج استجاب. فشعر الصحابة وقتئذ أنّهم خالفوا ما أراده ﷺ وقلقوا. وعندما رأوه لابساً لامة الحرب، أتوه وقالوا ما كان لنا أن نلحّ على رسول الله في أمر يهوى خلافه لأن الأمر بيد الله، ثم بيد رسوله، فقال ﷺ: لا ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها. ثم قال: امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم.

وتحرّك الجيش الإسلامي عصر الجمعة، وتوقف للاستراحة في منطقة تعرف بشيخين فاستعرض رسول الله الجند وكان عبد الله بن أبيّ قد جاء أيضا مع عدد من حلفائه اليهود، فقال رسول الله: «لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك»، ثم فارقه عبد الله بن أبي ومعه ثلاثمائة من مرافقيه المنافقين وحلفائه.

وقبيل نهاية المعركة خالف معظم الرماة الذين وزّعهم رسول الله على الجبل أمر النبي بالبقاء فيه مهما كان، فنزلوا لئلا يحرموا من الغنائم على الرغم من إصرار قائدهم على البقاء، واستشهد عبد الله بن جبير مع أصحابه الذين كانوا أقلّ من عشرة باقين على الجبل. يقول نسطاس: كنّا قد استسلمنا للمسلمين وإذا الجبل خلا ورأيت أصحابنا يكرّون على المسلمين، ويقول: رأيت رماة المسلمين قبل ذلك وقد نزلوا من الجبل متأبطي قسيّهم وجعاعهم، وكل رجل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه! وحين بدأ كرّ خالد فرّ المسلمون من كلّ جهة وأكثرهم فرّ إلى جبل أحد، وبعضهم ذهب إلى المدينة.

واضطربت الأوضاع بنحو أعلى حين ظنّ المسلمون أن رسول الله قد قتل في المعركة فصار يضرب بعضهم بعضا ويجرح أحدهم الآخر دون أن يشعروا حتى قتل المسلم بسيف مسلم آخر. وبلغ تفرّقهم واضطرابهم مبلغاً أنّ محمد بن مسلمة كان يقول: أبصرت عيناي رسول الله ﷺ وإنّه ليقول: إلي يا فلان، إلي يا فلان أنا رسول الله، فما عرّج منهما واحد عليه ومضيا. وكان النبي بعدما جرح في المعركة يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. ولما انكشف المسلمون ذلك اليوم لم يكن مع رسول الله أحد إلا علي ونفر قليل.

وفي معركة الأحزاب كانت جيوش الشرك قد تقدمت في عشرة آلاف مقاتل ولم يكن مع النبيّ يومذاك سوى ثلاثة آلاف، فكان رأي النبيّ أن يتجنّب القتال إلا إذا اضطرّ إليه، وكانت المدينة محصّنة بالجبال والأشجار من كل الأطراف إلا في حدودها الشمالية. فطرح الرسول ﷺ الأمر للمشورة، فأشار عليه سلمان الفارسيّ بحفر خندق من الجهة الشمالية، واستحسن المسلمون هذا الرأي، وأخذ كل عشرة يحفرون أربعين ذراعاً وكان للرسول ﷺ سهم في الحفر.

وفي غزوة حنين استظهر رسول الله ﷺ بكثرة الجمع فخرج في عشرة آلاف من المسلمين فأعجب أبا بكر الكثرة وقال: لن نغلب اليوم من قلة فعالهم. فلما التقوا انهزموا جميعا ولم يبق مع رسول الله ﷺ من المسلمين سوى تسعة نفر [من بني هاشم] وعاشرهم أيمن بن أم أيمن فقتل وبقيت التسعة. فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، يريد علياً ومن ثبت معه. وكان علي ﵇ قائماً بالسيف بين يديه. والعباس عن يمينه والفضل بن العباس عن يساره وأبو سفيان بن الحارث ممسك بسرجه ونوفل وربيعة ابنا الحارث وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب حوله. فقال النبي ﷺ للعباس وكان جهوري الصوت: ناد في الناس وذكرهم العهد. فنادى: يا أهل بيعة الشجرة يا أصحاب سورة البقرة إلى أين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله والقوم قد ولوا مدبرين. وكانت ليله ظلماء ورسول الله في الوادي والمشركون قد خرجوا عليه من شعاب الوادي بسيوفهم فنظر إلى الناس ببعض وجهه فأضاء كأنه القمر ثم نادى: أين ما عاهدتم الله عليه؟

فأسمع أولهم وآخرهم فلم يسمعها رجل إلا رمى نفسه إلى الأرض فانحدروا حتى لحقوا العدو. وجاء رجل من هوازن اسمه أبو جزول ومعه راية سوداء فقتله أمير المؤمنين عليه السلام وكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جزول.

وبالرغم من كل هذا يذكر المؤرخون أن محمداً ﷺ كان يكثر مشاورة المسلمين في الحرب.



وقد تمكّن هذا النبي العظيم بإخفاء أخرويته (التي تتضمن القدرات الإعجازية والهيبة الشاملة والسطوة المطلقة)، وتغليب بشريته (التي تعني أن يجوع ويجرح ويتألم ويحكم على أساس الظواهر و..)، من ترك الكثيرين يضمرون التآمر أو الطمع بالمناصب والرغبة في استغلال قربهم منه دون أن يشعروا أنهم سيُفضحون أو يُكشفون. أما الحذر الذي عاشه المنافقون من أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، فذلك:

أولاً: لأنّ ما حدث من فضائح سابقة كاد يقترب من الفضيحة الشاملة ولم يحدث. بمعنى أنّ كل ما ظهر وكشف سابقاً لم يصل إلى الفضيحة الكاملة بالنسبة لهؤلاء. ولذلك بقي فيهم من الأمل ما يجعلهم يستمرون في تآمرهم الداخلي.

ثانياً: إنّ الذين تمّ فضح مؤامراتهم في القرآن الكريم من المنافقين هم الذين وصل خطرهم إلى درجة تهديد المشروع الدنيوي؛ حيث نجد كيف أنّهم كادوا وتآمروا لنسف الجهاد والتحرك الثوري وتثبيط النفوس عن القتال وتخويف المؤمنين بالمشروع الدنيوي.

ثالثاً: لم تصل هذه التهديدات الغيبية إلى درجة تحوّلها إلى نهج عام يتّبعه النبيّ في حركته. بل كانت تمثّل ما يخفيه من سلاح قد يستعمله في أية لحظة من باب وضع حدود للطمع والتآمر.

رابعاً: إن بعض هؤلاء المنافقين كانوا يطمعون بالدنيا أو لنقل يغلّبون الدنيا على الآخرة لمرض في قلوبهم؛ وكان عدد منهم يُرجى له الشفاء. وقد حدث ذلك فعلاً. وطالما أنّ أمثال هؤلاء المرضى القلوب لن يشكلوا في الوقت الحاضر تياراً سياسياً أو تكتّلاً إجتماعياً يقف بوجه المشروع الرسالي، فلا حاجة لفضحهم!

وعليه، كان النفاق في أمّة النبيّ المختار نوعين، وإن كان يجمعهما عدم الإيمان بالآخرة والقيم المعنوية والفضائل الروحية. الأول نفاق يتكتّل ويتحوّل إلى حزب مقابل حزب الله. والثاني نفاق مرضي لا يفكر حالياً بمواجهة النبيّ وإن كان يطمع أن يصل يوماً ما إلى سدّة الرئاسة[10].

ولا شك بأنّ مرض القلب يشكّل أرضية وبيئة مناسبة لنموّ النزعات التسلطية والتوجهات السلطوية. وقد شاهدنا كيف أنّه برز بقوة بعد أن مات الرسول أو قُتل.

إنّ تغليب بشرية الرسول على غيبه استلزم بطبيعة الحال أن يجوع هذا النبي جوعاً شديداً وأن يُصاب بالجراحات وأن يتألم ويُهجر ويهزم ويقتل أقرب الناس إليه ويرسل بعض مجموعات الاستطلاع أو بعثات التبليغ فتؤسر ويُقتل أفرادها ويُغدر بهم. كل ذلك، تثبيتاً لأصحاب المشروع الدنيوي على دنياهم نظراً لأهميته الفائقة ومدخليته العظمى في المشروع الأخروي!

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: 85]

- وفي خُطْبة لأمير المؤمنين ﵇: «ولقد كان ص يأكُلُ على الأرض ويجلسُ جِلسة العبد، ويخصفُ بيده نعلهُ، ويرقعُ بيده ثوبهُ، ويركبُ الحمار العاري ويُردفُ خلفهُ.. ولقد كان في رسُول الله ص ما يُدلُّك على مساوئ الدُّنيا وعُيُوبها إذ جاع فيها مع خاصّته، وزُويت عنهُ زخارفُها مع عظيم زُلفته..خرج من الدُّنيا خميصاً وورد الآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجرٍ حتّى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه».[نهج البلاغة]

- عَن الرِّضَا عَن آبَائه ﵈ قَالَ: "قَالَ أميرُ المُؤمنين﵇ كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في حَفر الخَنْدَق إذ جَاءَت فَاطمَةُ وَمَعَهَا كُسَيرَةٌ من خُبزٍ فَدَفَعَتهَا إلَى النَّبيِّ ﷺ؛ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: مَا هَذه الكُسَيرَةُ؟ فَقَالَت: خَبَزتُهُ قُرصاً للحَسَن والحُسَين جئتُكَ منهُ بهَذه الكُسَيرَة، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: يَا فَاطمَةُ أَمَا إنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ جَوفَ أَبيك مُنذُ ثَلَاثٍ".[بحار الأنوار]

- ورُوي عن أنس بن مالك وابن عباس والحسن وقتادة والربيع: "أنّه لما كان من المشركين يوم أحد من كسر رباعيّة

الرسول ﷺ وشجّه حتى جرت الدماء على وجهه، فقال: كيف تفلح قوم نالوا هذا من نبيّهم وهو مع ذلك حريص على دعائهم إلى ربّهم؟ فأعلمه الله سبحانه أنه ليس إليه فلاحهم، وأنه ليس إليه إلا أن يبلّغ الرسالة ويجاهد حتى يظهر الدين وإنما ذلك إلى الله؛ وكان الذي كسر رباعيّته وشجّه في وجهه عتبة بن أبي وقاص وأدمى وجهه رجل من هذيل يُقال له عبد الله بن قميئة ورُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ." [بحار الأنوار]

- "فأخبر سبحانه أنه ليس إليه إلا ما أمر به من تبليغ الرسالة ودعائهم إلى الهدى وذلك مثل قوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقيل إنه ﷺ استأذن ربّه تعالى في يوم أحد في الدعاء عليهم، فنزلت الآية، فلم يدعُ عليهم بعذاب الاستئصال، وإنما لم يؤذن له فيه لما كان المعلوم من توبة بعضهم. وقيل أراد رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين عنه من أصحابه يوم أحد، فنهاه الله عن ذلك وتاب عليهم".. [بحار الأنوار]

وضمن سياق هذا المشروع الدنيوي كان النبيّ ﷺ يستخدم المال لتأليف القلوب؛ وهي سياسة تقوم على التخفيف من شرّ بعض القوم، وتقريبهم إليه، عسى أن يسمعوا كلام الله فيؤمنوا وتخبت قلوبهم.

- ففي الدرّ المنثور، أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: «بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي ﷺ بذهبية فيها تربتها فقسمها بين أربعة من المؤلفة: الأقرع بن حابس الحنظلي، وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الخيل الطائي، فقالت قريش والأنصار: أتقسّم بين صناديد أهل نجد و تدعنا؟ فقال النبي ﷺ: إنما أتألفهم».

- وفي الدر المنثور، عن يحيى بن أبي كثير قال: "المؤلفة قلوبهم، من بني هاشم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ومن بني أمية أبوسفيان بن حرب، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع، ومن بني أسد حكيم بن حزام، ومن بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، ومن بني جمح صفوان بن أمية، ومن بني سهم عدي بن قيس، ومن ثقيف العلاء بن جارية أوحارثة، ومن بني فزارة عيينة بن حصن، ومن بني تميم الأقرع بن حابس، ومن بني نصر مالك بن عوف، ومن بني سليم العباس بن مرداس، أعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مائة ناقة إلا عبد الرحمن بن يربوع وحويطب بن عبد العزى فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين."

- وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: "المؤلفة قلوبهم، أبو سفيان بن حرب بن أمية، وسهيل بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤي، وهشام ابن عمر وأخوه أخو بني عامر بن لؤي، وصفوان بن أمية بن خلف القرشي، ثم الجمحي، والأقرع بن حابس التميمي أحد بني حازم، وعيينة بن حصن الفزاري، ومالك بن عوف، وعلقمة بن علاثة. بلغني أن رسول الله ﷺ كان يعطي الرجل منهم مائة من الإبل ورعاتها وأكثر من ذلك وأقل".

وقد تبين أنّه ولأجل تأكيد مشاركتهم وتأليف قلوبهم وطمأنة نفوسهم إلى بشريته، اعتمد ﷺ مبدأ الإستشارة في القضايا المهمة، حتى لو كان يعلم أن نتيجتها لن تكون خيراً عاجلا.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:159]

عملية تشكيل
الأمة الواحدة

«كان النبي يتحسّر لأنه يدعو وما من إجابة ﴿فلعلك باخع نفسك﴾. أحد هموم الأنبياء هو أنهم لم يستطيعوا توظيف كل تعاليمهم بالشكل الذي يقتضيه التعليم. أراد الرسول أن يجعل كل الناس على شاكلة علي بن أبي طالب، لكن هذا لم يحصل.

ولو لم يكن لبعثة النبي من ثمرة إلا وجود علي بن أبي طالب، ووجود امام العصر سلام الله عليه لكان هذا نجاحاً كبيراً للغاية. لو أن الله تبارك وتعالى بعث الرسول لتربية مثل هؤلاء الناس المتكاملين لكان هذا جديراً، ولكنهم أرادوا للجميع أن يكونوا على هذه الشاكلة، وهذا ما لم يحصل. الإسلام مجموعة أحكام هدفها بناء الإنسان. والقرآن كتاب لبناء الإنسان، هدفه أن يصنع بشراً. والرسول منذ أن بعث وإلى حين رحيله عن الدنيا كان بصدد صناعة الإنسان. كان مهتماً بهذا. كل الحروب التي شهدها في الإسلام كانت من أجل إدخال هؤلاء المتوحشين المفترسين داخل حدود الإيمان، لم يكن في الأمر نزعة إلى التسلّط، ولهذا نرى في سيرة النبي الأكرم وسائر الأنبياء والإمام علي سلام الله عليه والأولياء العظام، نرى انه لم تكن هناك في سيرتهم نزعة تسلطية أصلاً. ولولا أداء الواجب ولولا الحرص على بناء هؤلاء البشر، لما قبلوا حتى هذه الخلافة الظاهرية، ولتنحّوا جانباً، ولكنه التكليف. فالتكليف الإلهي يجب أن يقبله حتى يستطيع بناء الإنسان على قدر استطاعته. ولكنّه للأسف لم يستطع أن يجعل معاوية إنساناً، مثلما لم يستطع الرسول ان يجعل ابا جهل وابا لهب وامثالهم أناساً صالحين. وأمير المؤمنين لم يستطع جعل معاوية وأتباعه أناساً صالحين، لكنهم جاؤوا لهذا الغرض». [الإمام الخميني، صحيفة الإمام]



لكي نعرف حجم الإنجاز الذي تحقق بقيادة رسول الله ﷺ على صعيد بناء المجتمع الإسلامي والأمّة التي يجب أن تخرج للناس، ينبغي أن نتعرف على البيئة الثقافية والإجتماعية والسياسية لأهل الجزيرة العربية قبيل البعثة وما شكّلته أحوالهم من تحديات أو فرص للرسالة والمشروع الرسالي.

إنّ دراسة حقبة ما قبل الوحي تُعدّ إحدى النوافذ المهمّة للكشف عن عظمة الرسالة والرسول ﷺ، فالحضارة الإسلامية لم تتكوّن من فراغ؛ وتلك الأمّة التي صاغتها أيدي الرسالة والتي أصبحت أمّة الحضارة الإسلامية منبعها عرب الجزيرة الذين كانوا يغطّون في ليل سحيق. من هنا، لفهم حقيقة ما قام به رسول الإسلام ﷺ، ولإدراك أهميته، نحتاج بدايةً للرجوع إلى التاريخ، ودراسة المجتمع الذي أرسل إليه هذا النبي العظيم بشكل خاص، والإطلالة على المجتمع العالمي آنذاك بشكلٍ عام. ويمكن القول أنّ المجتمع الذي بُعث فيه نبيّ الإسلام كان أسوأ المجتمعات التي عرفتها البشرية على المستوى الحضاري؛ ويمكن تأييد هذا القول بالإستناد إلى مبدأ عقائدي ينطلق من أفضلية النبي الخاتم على سائر الأنبياء، وسر تفضيله بأنّه حجة الله وشاهده عليهم. حيث لا تتم مثل هذه الحجة إلا إذا كان بلاء النبيّ وامتحانه أشدّ من الجميع. والأذى الذي تعرّض له أكبر من الجميع. ومن المعلوم أنّ أكثر أذى الأنبياء من أقوامهم. وعليه لن يأتي أي مصلح في العالم وذلك حين يقف الناس جميعاً بين يدي الله، ليقول لله أنّ بيئتي كانت أسوأ بيئة، وأنّ قومي كانوا أشرّ الناس!

وآيات القرآن الكريم وكلام أمير المؤمنين ﵇ الذي كان قريب العهد من ذلك المجتمع تشكّل شواهد مهمة، يمكن الاستناد إليها في هذا المجال.

وقد أشار القرآن إلى مظاهر هذا الانحطاط المهول في الأبعاد الثقافية والاجتماعية والروحية والفكرية والاقتصادية، وأطلق على ذلك الزمان عنوان الجاهلية. يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:50]

• ويقول أمير المؤمنين ﵇: «إن الله بعث محمداً ﷺ وَالنَّاسُ

في فتن انجذم فيها حَبْلُ الدِّين، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي اليَقِين، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ الأَمْرُ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ، فَالهُدَى خَامِلٌ، والعَمَى شَامِلٌ.»[نهج البلاغة]

• "ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ في غَمْرَة، وَيَمُوجُونَ في حَيْرَة، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ". [نهج البلاغة]

• "أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَة مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَة مِنَ الأُمَمِ، وَاعْتِزَام مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَار مِنَ الأُمُورِ، وَتَلَظّ مِنَ الْحُرُوبِ، والدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ... قَدْ دَرَسَتْ أَعْلاَمُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَة لأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ في وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ". [نهج البلاغة]

• وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه ﷺ قَالَ: "قال أميرُ الْمُؤْمنين ﷺ: أيُّها النّاسُ إنَّ اللَّه تبارك وتعالى أرْسل إليْكُمُ الرّسُول ﷺ، وأنْزل إليْه الْكتاب بالْحقّ، وأنْتُمْ أُمّيُّون عن الْكتاب ومنْ أنْزلهُ، وعن الرّسُول ومنْ أرْسلهُ، على حين فتْرة من الرُّسُل، وطُول هجْعة من الأُمم، وانْبساط من الْجهْل، واعْتراض من الْفتْنة، وانْتقاض من الْمُبْرم، وعمًى عن الْحقّ، واعْتساف من الْجوْر، وامْتحاق من الدّين، وتلظّ من الْحُرُوب، على حين اصْفرار منْ رياض جنّات الدُّنْيا، ويُبْس منْ أغْصانها، وانْتثار منْ ورقها، ويأْس منْ ثمرها، واغْورار منْ مائها، قدْ درست أعْلامُ الْهُدى فظهرتْ أعْلامُ الرّدى، فالدُّنْيا مُتهجّمةٌ في وُجُوه أهْلها، مُكْفهرّةٌ مُدْبرةٌ غيْرُ مُقْبلة، ثمرتُها الْفتْنةُ، وطعامُها الْجيفةُ، وشعارُها الْخوْفُ، ودثارُها السّيْفُ، مُزّقْتُمْ كُلّ مُمزّق؛ وقدْ أعْمتْ عُيُون أهْلها وأظْلمتْ عليْها أيّامُها، قدْ قطّعُوا أرْحامهُمْ وسفكُوا دماءهُمْ ودفنُوا في



التُّراب المْوءُودة بينهُمْ منْ أوْلادهمْ؛ يجْتازُ دُونهُمْ طيبُ العْيْش ورفاهيةُ خُفُوض الدُّنْيا، لا يرْجُون من الله ثواباً ولا يخافُون والله منْهُ عقاباً، حيُّهُمْ أعْمى نجسٌ وميِّتُهُمْ في النّار مُبْلسٌ؛ فجاءهُمْ بنُسْخة ما في الصُّحُف الأُولى وتصْديق الّذي بيْن يديْه وتفْصيل الحلال منْ ريْب الحرام؛ ذلك القُرْآنُ فاسْتنْطقُوهُ ولنْ ينْطق لكُمْ، أُخْبرُكُمْ عنْهُ إنّ فيه علْم ما مضى وعلْم ما يأْتي إلى يوْم القيامة وحُكْم ما بيْنكُمْ وبيان ما أصْبحْتُمْ فيه تخْتلفُون فلو سألْتُمُوني عنْهُ لعلّمْتُكُمْ". [الكافي]

وضع العرب قبل أمة الإسلام [1]

يُطلق على ذاك العصر الذي سبق البعثة النبويّة بمائة وخمسين سنة أو مائتي سنة كحدّ أقصى اسم العصر الجاهلي. وقد أطلق الإسلام صفة الجاهليّة على جميع الخصائص النفسية للعرب، كالطبيعة القتالية، والحميّة العربيّة، والقسوة عند الثأر؛ وأطلقها على بعض عاداتهم كشرب الخمر والميسر، وما شاكلها.

الأوضاع السياسية والاجتماعية [2]

إذا ألقينا نظرة على حياة العرب وحضارتهم في شبه الجزيرة العربية عرفنا أن بوناً شاسعاً كان بينها وبين حياة الفرس والروم يومئذ. ويتمثل هذا البون الشاسع سياسياً في وجود الحكومة المركزية للساسانيين في بلاد الفرس، والحكومة المركزية للقياصرة في بلاد الروم. وأمّا ما كان في كل منطقة من مناطق شبه الجزيرة العربية فهو اجتماع ثلّة من الناس على أساس النسب العائلي المشترك كقبيلة من القبائل حيث ينحصر نطاق الحكم لكلّ قبيلة في المكان الذي اختارته لسكناها؛ حتى إنّ مساحة عملها وتحركها كانت محدودة به ولا علاقة لها بالقبائل الأخرى. ومن الثابت أن هذا الضرب من الحياة المتداول بين عرب الجزيرة معلَم على تشتتهم. ذلك التشتّت الذي فصل بعضهم عن بعض وأدّى إلى غياب الحكومة المركزية في الجزيرة. وإن وجود الاختلاف آية

1- رسول جعفريان، سيرة محمد ﷺ

2- المصدر السابق.



على انعدام التنظيم المتماسك والعلاقات الموحّدة بين الجماعات المتنوّعة التي كانت تعيش في تلك البيئة. والأسباب التي أفضت إلى اتّخاذ الحياة الاجتماعية للعرب طابع التفرّق هي:

أولاً، لم يكن في الجزيرة العربية ثقافة مشتركة تؤطرهم، أو مقدسات موحدة تجمعهم. ولكن كان لكلّ قبيلة في جوار الكعبة صنم خاص بها. بل كان في كل بيت صنم، من هنا كانت النزعة الفردية والتفكير بالذات سائدين في أوساطهم.

ثانياً، إن الأوضاع الجغرافية لشبه الجزيرة العربية تدل على أنّ المناطق الصالحة للسكن كانت جدّ متباعدة في مسافتها الجغرافية. فتباعد العرب وانعدام طرق الاتصال بينهم ووجود الصحارى القاحلة التي غطت أرضهم عوامل رئيسة أدّت إلى تفرّقهم.

ثالثاً، إذا ألقينا نظرة على الموارد الاقتصادية في الجزيرة، لأدركنا محدوديّتها ولاحظنا تبعاتها. ومن هذه التبعات التفرقة والتشتت؛ إذ عندما يكون الحصول على الموارد والإمكانات المعيشية محدوداً بين قومٍ بدو لا ثقافة لهم، فلا مناص من حدوث القتال بينهم. وكانت كل جماعة تحاول أن تصل إلى منطقة من المناطق مبكّراً ليتسنّى لها أن ترعى أنعامها مدّة وتعيش فيها برهة من الزمن بنحوٍ أفضل. ونظراً إلى المحدودية الموجودة، فإذا استطاعت القبيلة أن تُخرج المرعى من قبضة قوة أخرى فإنها لن تتوانى عن ذلك... وهكذا لا يتسنى أن نجد حكومة مركزية بسبب تلك العوامل المذكورة. حيث غلبة النزعة الفردية وانعدام مبدأ المواطنة والوطن الواحد أو المصير المشترك.

وعلى الصعيد الخارجي كانت السيطرة على العرب متعذّرة بسبب حياتهم البدوية، وتواجدهم في بيئة جغرافية قاسية وقلة ثرواتهم، وصعوبة ولائهم لغير قبيلتهم، وو. . وكان طبيعياً للحكومات والممالك المجاورة ألّا تفكّر بهذا الأمر، أو تعتبره مصلحة استراتيجية لها.

طبيعة القبيلة وقضاياها [3]

يتطلّب العيش في بيئة تتّسم بمواصفات البادية والصحراء ضرباً من الحياة ذا طابع قبليّ عشائريّ نظراً إلى المشكلات التي تكتنف البادية، والارتزاق، والمنازعات الكثيرة للحصول على المرعى، وغير ذلك. وكان أفضل خيار للعربي أن يعيش مع الجماعة. لا سيّما مع من يمكنه أن يقارع به ما يواجهه من مشكلات لا تنتهي. لذلك عزم العربيّ على الاتّحاد مع من يشترك معه في النسب ورابطة الدم، حين انعدمت الروابط والمشتركات بنظره أو ضعفت إلى حد كبير. ومن المعلوم أنه في ظل غياب التبادل الفكري والعلمي بين الناس تزول الروابط الإنسانية التي يمكن أن تجمعهم وتضعف، ليحل محلها الروابط المادية والشكلية. وهكذا نشاهد بعداً آخر لمعنى الجاهلية. فوحدة الدم في القبيلة هي أساسها وقوامها. من هنا كان للحسب والنسب قيمتهما عند العرب. وكلّما زاد أفراد القبيلة زاد فخرها، إذ تشعر بزيادة قوّتها. وبلغ الافتخار بهؤلاء مبلغاً أن القرآن الكريم ذكر أنهم ذهبوا إلى المقابر لإحصاء موتاهم وجمعهم مع أحيائهم عسى أن يفتخروا بعددهم، راجع تفسير سورة التكاثر.

المعايير القيمية لعرب الجاهلية تعود إلى طبيعة الرابطة القبلية. فقيمة كل فرد في القبيلة تنبع من موقعه ونفوذه، ودوره الذي يمارسه للمحافظة عليها. في المرحلة الأولى، كان رؤساء القبائل يحوزون أعلى القيم، وكانت مسؤولياتهم تتمثّل في اتّخاذ القرار في الشؤون العامة المرتبطة بالقبيلة، كاستقبال سفراء القبائل الأخرى، والبتّ في الحرب والسّلم، وعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى. وكانوا يرثون الرئاسة من آبائهم بين الحين والآخر. وينبغي الالتفات إلى أنّ النظام القبليّ يتلخّص في طاعة أفراد القبيلة لزعيمها، بمعزل عن أي قانون أو معيار للحق والباطل. ونقرأ في القرآن الكريم أنّ الكفار والمشركين كانوا يصرّون على طاعة آبائهم وأجدادهم. وكانوا يطيعونهم حتى لو لم يكن لديهم أي تعقّل.

3- المصدر السابق.

وفي شريحة أدنى، كان هناك العبيد والإماء المشغولون في خدمة القبيلة الذين لم يكن لهم أي حق أو قيمة طالما أنه لا تجمعهم مع أبناء القبيلة أية رابطة عرقية.

ومن الذين كان لهم الشرف والقيمة، أبطال القبائل وفرسانها وشجعانها، الذين كانوا يتولّون حمايتها في الحروب.

كانت القبيلة، وبالدرجة الأولى رئيسها، تأخذ على عاتقها الردّ على كلّ عدوان مهين تقوم به القبائل الأخرى عليها. وفي هذه الأثناء، لم تكن المسألة مسألة ظالم ومظلوم قط، بل يُدعم الفرد لمجرّد انتمائه للقبيلة. ويظل الفرد مدعوماً من عشيرته، حتى لو خالفها أحياناً في الفكر والعقيدة.

وإذا بايع أفراد القبيلة رئيسهم على أمر ما، أو إذا تحالفت قبيلة مع قبيلة أخرى أو أحد الأشخاص، فإن نكث البيعة أو التحالف يشق كثيراً على الطرفين. نجد مثل هذه الروحية حتى بعد مرور سنوات على التربية الرسالية عندما بايع الأنصار أبا بكر، ثم التقوا بأمير المؤمنين عليه السلام فقالوا له: لو دعوتنا إلى نفسك قبل البيعة لما عدلنا عنك.

إنّ العامل الذي كان يحول دون تفرّق القبيلة وتشتّتها هو الحميّة والعصبيّة. وشكّلت العصبية نزعة حلّت مكان المنطق والفكر بوصفها أهم حافز. وعدّ القرآن الكريم هذه الصفة من خصائص الكفار. وسماها بـ "حمية الجاهلية"، وجعلها في مقابل التقوى والإيمان.

كانت قريش من أكبر القبائل نفوذاً بين العرب. وظلّت حاكمة على العالم الإسلامي بعد البعثة لعدّة قرون. وكان الخلفاء جميعهم قبل العصر العثماني من قريش. وكانت هذه القبيلة التي نهض منها النبي صلى الله عليه وآله معروفة كأشهر القبائل العربية وأشرفها، وهي من بني كنانة، وبنو كنانة من مُضر، ومُضر من عدنان، وهكذا إلى أن ينتهي إلى إسماعيل عليه السلام.

والذي ساعد على ذيوع صيت قريش الخدمات التي كانت تقدّمها للحجّاج

الوافدين إلى مكة المكرمة. وصارت قريش، بتبع ذلك، محلاً مناسباً للتجارة بسبب وجود الأمان في أرجائها أولاً، والأهم أنها أهل الحرم ثانياً. وكانت للكعبة قداستها عند معظم العرب، فكانوا يحترمون أهل الكعبة والحرم. لذلك استأثرت قريش بامتيازات دينية خاصة، وما زاد من صيتها هو الأهمية التجارية لمكّة وموقعها على مفترق الطرق التي تجتازها تجارة الحبشة واليمن والشام.

الحياة في الحاضرة والبادية

ونظراً لنوعية الحياة القبلية وقيمها البعيدة عن المنطق، فقد انتشر الظلم على نطاق واسع بين أهل هذه القبائل والعشائر؛ حيث كانت فرص تغيير الوضع على المستوى الاجتماعي والمعيشي والأمني والسياسي شبه معدومة، إلا إذا كان الإنسان على رأس القبيلة أو من العائلة المالكة التي كانت تُحكم سيطرتها وقبضتها على المجتمع أكثر فأكثر. وهذا ما دفع الكثير من العرب للفرار إلى البوادي، فاختاروا الحياة القاسية البائسة على أن يكونوا في مجتمع يستعبدهم، ولا يخفى ما يرافق الاستعباد من شعور بالذلة والعار... فمن لم يكن قادراً على الزراعة، أو التجارة، أو العمل. فإمّا أن يتحوّل إلى عبد أو يفرّ إلى الصحراء. لذلك انتشرت ظاهرة البدو في تلك البيئة العجيبة بشكل واضح. وصحيح أنّ هؤلاء كانوا يفرّون من الانتماءات القاسية والنظام الاجتماعي الذي ظلمهم، إلا أنّهم بعد فترة أصبح وضعهم شديد السوء على المستوى النفسي والعلمي والتكاملي، إلى درجة نجد كيف أن الإسلام نبذ هذه الحياة أشدّ النبذ، وقال عنهم الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً. ولعل المقصود من الأعراب ليس مطلق العرب، وانما أولئك الذين يختارون هذا النمط من الحياة. حتى عُدّ التعرّب عنواناً للكفر ووضع في الذنوب ضمن الكبائر(التعرّب بعد الهجرة: أي عودة الإنسان إلى بيئة الكفر تلك بعد أن كان قد هاجر إلى الرسول ﷺ).

وبالطبع، وفي ظلّ هذه الظروف الاجتماعية التي يفقد فيها الإنسان أي أمل في التغيير والتحرر الاجتماعي وما يتبعه من ازدهار ورفاهية معيشية واقتصادية،



فإنّ الإنسان يزداد تعاسة وبؤساً. وقد أدّى هذا الوضع الاقتصادي المتردّي إلى نشوب الحروب بين القبائل؛ الحروب على الموارد مثلا، حيث أنّ وجود الماء والقليل من المرعى كان يشكّل قضية حيوية أو مصيرية تتصارع عليها القبائل.

ولمّا لم يكن من قانون عام حاكم يتسنّى من خلاله إرضاء جميع القبائل، كان الأكثر اقتداراً وقوة يستولي على أرضٍ أكثر ومنابع أفضل. وهذا ما كان يؤدّي إلى المزيد من النزاعات واشتعال العداوات وتأجج الأحقاد. وثمّة أسباب أخرى كان لها دورها أيضاً في إيقاد نار الحروب والنّزاعات. منها حبّ الاستعلاء وكسب الفخر والشرف. من هنا كانت نيران الحرب توقد بين حينٍ وآخر ولأسباب واهية. وكان العشق أحياناً يؤدّي إلى نشوب حرب، قد تستنزفُ الطاقات لعدّة سنين، فيما لو تقرّب شاب من قبيلة ما إلى فتاة من قبيلة أخرى. وكان هناك ثلّة من الناس يُعرفون بالصعاليك، وكان دأبهم النهب والسرقة وقطع الطرقات. ولعل الكثير منهم كانوا إما من الذين طردتهم القبائل بسبب جرائمهم الكثيرة، أو من أولاد الإماء السود، الذين كان العرب يرون في انتسابهم إليهم عاراً عليهم. فكان وقوف هؤلاء على الطرقات وغارتهم على القوافل من الأسباب المهمة لاندلاع الحرب أيضاً.

وكما هو متوقع دوماً، تولد المعارك المزيد من العداوات؛ فتحوّلت هذه العداوات التي سادت كل أرجاء الجزيرة العربية إلى ما يشبه النظام والقانون الذي له أعرافه؛ وهو النظام الثأري، حيث لا قانون ولا محكمة ولا عدالة؛ فتضاعف استعار نيران الحروب، وبقي منها ما هو مستعر لعشرات السنين. وقد اشتهر العرب بهذا النوع من النزاعات الداخلية، كحرب داحس والغبراء. والتي أدت هي وأمثالها إلى انهاك العرب وانشغالهم عن أي معنى إيجابي في الحياة. هذا العربي نفسه، والذي كان يرزح تحت وخامة القتل والقتال، لم يكن لديه أمل في أن يخرج من هذه البيئة؛ لأنّه لو خرج منها فإنّه سيُستعبد، ولو كان قبلها سيداً شريفا. حتى الشكل أو المظهر كان سبباً للاستعباد؛ فعندما كان الغريب يهاجر من مكان إلى مكان، ويبدو مختلفاً عن أبناء المكان الذي حل فيه،

كان يُستعبد مباشرةً، مثلما حصل مع سلمان الفارسي، الذي كان شريف قومه، وعندما أتى إلى العرب استعبدوه، وراحوا يبيعونه ويشترونه عبداً مملوكاً. بل كان الانتقال من قبيلة إلى أخرى سبباً للاستعباد.

وثمة مناطق أخرى كالمدينة والطائف كانت مستثناة من بين مناطق شبه الجزيرة من حيث شدة البداوة وشظف العيش؛ إذ عُرفت بأراضيها العامرة ومصادرها المائية. واتّخذت مكّة أيضاً طابع الحاضرة لقداسة الكعبة، ولموقعها في مسير القوافل التجارية كونها أمّ القرى. وكانت الحاضرة تتفاوت مع البادية في الفكر والخصال بسبب تردّد الشرائح الاجتماعية المختلفة وذات الثقافات المتنوّعة عليها. ومن الواضح أنّ القيود في البادية أقل منها في الحاضرة. فكلّ شخص هناك كان يرى نفسه حرّاً في القيام بأي عمل، حتى لو كان اعتداءً؛ كما أنّ طبيعة حياة البادية كانت تتطلّب من الإنسان استنفار كل قواه الذاتية والاستفادة القصوى من إمكاناته المحدودة والنادرة. فأصبح يتّسم بنوع من التهور والإقدام، والتمرّس بالقتال. ونتيجة خشونة العيش في البادية وثقل المعاش، كان أهلها يتّسمون بالفظاظة والقسوة. ونادراً ما كانوا يفكّرون في القضايا الدينية بسبب صعوبة الحياة و استمرار الحروب والمعارك. وعلى العكس من ذلك، كانوا يشعرون بتعصّب أكثر حيال صيانة العلاقات العائلية والمعتقدات التقليدية.

الأحلاف السياسية بين القبائل [4]

لما كانت شبه الجزيرة العربية تضم الكثير من القبائل، فإنّ قدرة كلّ منها كانت تتراوح بين الشدّة والضعف قياساً بغيرها. كانت القبائل الضعيفة تتحالف فيما بينها، وإذا تعرّض أحد الحلفاء إلى أدنى اعتداء، فإنّ الطرف الآخر كان يسارع إلى نصرته. وكانت هذه الأحلاف تُعقد على أساس المصالح المشتركة، كالأحلاف التي تُعقد اليوم في العالم. ومن الطبيعيّ أن زوال هذه المصالح كان

4 المصدر السابق.



سبباً في فسخ الحلف. والحلف الوحيد الذي ذُكر أنه كان يدافع عن حق المظلوم مقابل الظالم هو "حلف الفضول"؛ أمّا سائر الأحلاف فلم تتناول حقاً ولا باطلاً، وكان الحليف يحظى بالدعم والحماية ظالماً كان أو مظلوماً. ولم يكن الحلف قضيّة سياسية فحسب، بل كان يتّخذ الطابع العائلي أحياناً.

دين الناس وتديّنهم في الجاهلية

"يعلم الجميع أن رسول الله قد بعث في زمن كان الناس يرون فيه أن تعظيم الرب والفخر به هو بجعل بيت نارهم أكبر من بيوت النار الأخرى، أو بيت أصنامهم أكثر فخامة، وأصنامهم أكبر حجما؛ أو بصنعهم الأصنام من المعادن الأثمن، وهكذا من كان ربه من ذهب فمكانته أكبر وأهميته أكثر من غيره! حتى أن الناس كانوا يحملون آلهتهم في العربات الى الحروب، كما فعل أهل مكة عندما جاؤوا بهبل في حربهم مع المسلمين. في مثل تلك الأيام أرسل الله نبي الإسلام. وكانت دعوته الأولى للبشر أن يحطموا هذه الآلهة التي صنعوها وان يبلغوا الفلاح بتوحيد الله ﴿قولوا لا اله الا الله تفلحوا﴾؛ ثم أتى بالقوانين السماوية التي ترتكز جميعها على أساس العقل؛ وبلّغها للناس بالتدريج، وقضى على الأفكار الجاهلية والأوهام التي ابتدعها الناس من أنفسهم. وشكّل حكومة عادلة ترتكز على شريعة السماء. وبعد عشرين ونيف من السنين التي حفلت بسلسلة من الإنجازات والتبليغ والتعاليم المنطقية الإلهية والسيرة العادلة والأخلاق العظيمة التي جذبت القلوب، واستخدام قوى معنوية ومادية فريدة من نوعها وبذل الكثير من تضحيات المضحين في سبيل الدين الإلهي المقدس وفق رسول الله لإقامة تشكيلات تقوم على العدالة والتوحيد، ولم يتوقف حتى آخر عمره عن بذل الجهد واستمر في تثبيت توحيد الله وتوحيد الكلمة حتى يقيم الدين والمدينة الفاضلة". [الإمام الخميني، كشف الأسرار]

وأهمّ العقائد التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية آنذاك هي الشرك، واليهودية، والنصرانية، والحنفية[انظر الملحق5: النبي ويهود شبه الجزيرة]. ويذكر المؤرّخون

العرب بأنّ العرب العدنانيّين والقحطانيين قبل ظهور عمرو بن لحيّ كانوا على دين إبراهيم ﷺ، وكانوا قد أخذوا دينهم من إسماعيل، ويُصطلح على الأشخاص الذين رغبوا عن الشرك وعبادة الأوثان، ووجهوا وجوههم لإبراهيم ﷺ الحنفاء. إذاً، ما كان له سابقة تاريخية في شبه الجزيرة العربية من الوجهة العقيدية هو الاعتقاد بالتوحيد. وقد استُبدل به الشرك على مرّ الزمن. وذُكر لذلك عدّة أسباب:

أولاً، أنّ كل مسافر كان يخرج من مكّة يأخذ معه حجراً من أحجار الحرم، وحيثما توقّف في سفر فإنّه يضعه على الأرض ويطوف حوله، كما كان يطوف حول الكعبة. ويعود هذا العمل إلى اعتقادهم بالكعبة والحرم. ثمّ أفضى بهم هذا العمل إلى عبادة ما كانوا يحبّونه شيئاً فشيئاً، حتى نسوا دينهم القديم.

ثانياً: أشير في الأخبار التاريخية أنّ عمرو بن لحيّ كان سبباً في عبادة الناس للأصنام. فقد أتى من الشام إلى مكّة بصنم يُدعى هُبل. ودعا الناس إلى عبادته. وهكذا انتشرت عبادة الأصنام شيئاً فشيئاً.

والعامل الأهم في انتشار عبادة الأوثان والأصنام عند العرب هو هيمنة بعض القبائل التي أرادت أن تعطي لنفسها مشروعية السلطة. وكان لقريش، تحديداً، المنزلة الكبرى من بين هذه القبائل. حيث استطاعت أن تستفيد من الكعبة الشريفة، التي كان لها منزلة تاريخية كبيرة بين العرب، لتحكم سيطرتها وعلوّها على سائر القبائل من خلال عبادة الأصنام. بعبارة أخرى كانت القضايا الاجتماعية والسياسية سبباً في نشر الصنمية وتوسيع رقعتها. فقد كانت كلّ من القبائل تريد حصر الشرف والفخر بها، وإلى الحط من القبيلة الأخرى. واتّسعت هذه الخلافات تدريجياً حتى عرّضت التوحيد إلى التغيير ومهّدت الأرضية لكلّ قبيلة أن تختار إلهها الخاص بها. فقد كان العزّى صنم قريش وبني كنانة، ومناة صنم الأوس والخزرج وأهل يثرب، واللات صنم ثقيف والطائف....واتّسعت شقّة التفرقة والتشتّت إلى درجة أنّه أصبح في كل بيت من بيوت مكّة صنماً. وعندما لاحظ العرب عظمة الكعبة ودورها في زيادة نفوذ قريش وقدرتها، بنى بعضهم في مناطقهم كعبةً، لئلا يُحرموا من هذا الفخر.

ويذهب القرآن الكريم إلى أنّ أحد أهم أسباب عبادة الأوثان خلو الذهنية العربية من التفكير الحر والتعقل المنطقي والبحث العلمي الجاد: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنعام: 100]، ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾[الحج: 71].

وكان التقليد الأعمى من البواعث على انتشار الوثنية أيضاً. وكان لكلّ من هذه العوامل تأثيره في انحراف الناس عن التوحيد وترويج الوثنية.

وقد اتّخذ الشرك عند العرب أشكالاً عدّة. وأطلق القرآن الكريم اصطلاح المشركين على عبدة الأصنام من العرب. وكان فريق آخر من المشركين يعتقد بالله خالقاً، ولكنه كان يجعل له شركاء بوصفهم خالقين. ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾، وفئة ثالثة كانت تعتقد بالله الخالق الواحد، بيد أنها كانت تؤمن بمدبرين آخرين. وكان الجن من الشركاء الذين جعلهم المشركون لله، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾.

ويتبيّن من الآيات القرآنية الكريمة أنّ منكري المعاد كانوا كثيرين أيضاً. وقد أدى هذا الإنكار إلى ضحالة الحياة وابتذالها وانحطاط الفكر والسعي، وانتشار روح العبث واللغو على نطاق واسع جدا.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "وَأَشْهَد أَنَّ محمَّداً عَبْده وَرَسوله وَنَجيبه وَصَفْوَته لَا يوازَى فَضْله وَلَا يجْبَر فَقْده أَضَاءَتْ به الْبِلَاد بَعْدَ الضَّلَالَة الْمُظْلمَة وَالْجهَالَة الْغَالبَة وَالْجفْوَة الْجَافيَة وَالنَّاس يَسْتَحِلّونَ الْحَرِيمَ وَيَسْتَذلّونَ الْحَكيمَ يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَة وَيَموتونَ عَلَى كَفْرَة". [نهج البلاغة]

الشريعة والقانون عند العرب

أعمال العرب وممارساتهم كانت تجري تقليداً لكبرائهم بسبب غياب الفكر والاستدلال والمنطق عندهم. وكان كل ما يحدث في الأعراف اليوميّة يتّخذ طابع السنّة والقانون على مر الزمان. وكانت القبيلة تلزم الجميع بإطاعته.

وكان إهماله يُفضي إلى طرد المخالفين من القبيلة. ولم يكن الحلال والحرام عندهم إلّا ما تراه القبيلة نهجاً طبيعياً في حياتها. ويُلحظ في النّظام القبليّ أنّ رؤساء القبائل كانوا مصدر التشريع، وأنّ موقفهم هو معيار الصّواب والخطأ عند القبيلة. من هنا كان لكلّ قبيلة حاكمها الخاص بها. ولم تكن سيرة الرؤساء نظاماً وسنّة في الشؤون العامّة المرتبطة بالقبيلة فحسب، بل كانت كذلك في الشؤون الدينية أيضاً.

ولعلّ المشكلة الرئيسية لهذا المجتمع الذي بُعث فيه الرسولﷺ، أنّ القيم الفاسدة والمنحطّة فيه قد أضحت قوانين ثابتة وقواعد لأنماط التبادل الاجتماعي وأُسَاً للنظام الحاكم.

ويمكن جمع هذه القيم السلبيّة تحت أربعة عناوين عامة، ميّزت المجتمع الجاهلي وأظهرت ما وصل إليه على جميع الصعد: استحقار المرأة، والجهل الشديد، والقذارة، والعصبية القبلية. هذا، وإن تفاوتت شدّةً وضعفاً بين منطقة وأخرى، إلا أنّها تبقى صورة للمناخ السائد والجوّ الحاكم. وكلمات أمير المؤمنينعليه السلام في نهج البلاغة حول وصف حال الناس قبل الرسولﷺ تلقي الضوء على هذه القيم السائدة. يقول عليه السلام: "إنّ اللّه سُبحانه بعث مُحمّداً... وأنْتُمْ معْشر العربِ على شرِّ دِين، وفي شرِّ دار، مُنِيخُون بيْن حِجارة خُشْن، وحيّات صُمٍّ، تشْربُون الكدِر، وتأْكُلُون الجشِب، وتسْفكُون دماءكُمْ، وتقْطعُون أرْحامكُمْ، الأصْنامُ فِيكُمْ منْصُوبةٌ، والآثامُ بِكُمْ معْصُوبةٌ" [نهج البلاغة].

وقال عليه السلام: "فالأحْوالُ مُضْطرِبةٌ، والأيْدِي مُخْتلفةٌ، والْكثْرةُ مُتفرِّقةٌ، في بلاءِ أزْل، وأطْباقِ جهْل؛ مِنْ بنات موْءُودة، وأصْنام معْبُودة، وأرْحام مقْطُوعة، وغارات مشْنُونة." [نهج البلاغة]

وضع المرأة كاشف عن حالة الإنسان

فعلى المستوى الاجتماعي، كانت النظرة إلى المرأة محكومة بشدة الإستعلاء



والتحقير والمهانة، وكانت المعاملة السائدة والتصنيف العام لها باعتبار أنها أقل شأناً من الحيوان. ويحكى الكثير من القصص التي تبين تفضيل أبناء ذلك العصر واحترامهم لجمالهم وإبلهم أكثر من الزوجات أو البنات. ولعل أحد الاسباب هو أنّ العربيّ قد ضنّ بالمرأة وكان يغار عليها إلى درجة القضاء التام عليها. هذا بالإضافة إلى أنّ وجود الحروب والصراعات القبلية جعلت المرأة تشكّل مشكلة العار بالنسبة لأهلها. وقد وصل بهم الأمر إلى وأد البنات نتيجة نظرة العار التي كانوا يحملونها، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[النحل:59]. وقد أدّى هذا الاستحقار إلى ضعف التماسك الاجتماعي وانتشار الكثير من الموبقات الاجتماعية. فمن المعلوم أنّه إذا كان وضع المرأة، التي تمثّل نصف المجتمع، سيئاً في المجتمع ولا يُسمح لها السير في مدارج الكمال، فإنّ ذلك سيكون له تأثيره المدمّر على المجتمع ككل. فمن غير الممكن إيجاد مجتمع مزدهر معنوياً وتكون النساء فيه بهذه الحالة من الانحطاط.

ويوجد في القرآن الكريم والروايات الشريفة وما ذكره التاريخ الكثير من الشواهد على هذا الأمر، كسبي النساء، ووأد البنات، وتبادل الزوجات، وشرائهن وامتلاك عدد كبير منهن دون رعاية الحقوق والزواج من زوجة الأب بعد وفاته وأمور أخرى لعلها أسوأ وأشر.

إضافةً إلى ذلك، فإن نفس تقبّل هذا المجتمع لوأد البنات وعدم إنكار هذا الفعل الشنيع الذي يمثّل أفظع حالات الإجرام. حيث يتم قتل طفلة رضيعة لا جرم لها ولا ذنب. يحكي عن واقع نفسي منحط جداً. حتى أنّه في بعض الحالات كان الزوج يجبر زوجته أن تقوم بنفسها بهذا العمل كبرياءً منه وعتوّاً، فأي شقاء كان أعظم من شقاء هذه الأم المفجوعة. وأيّ قلب قاسٍ فارغ من الإنسانية والمحبة كان يمتلكه هذا الزوج ولا يعبأ بمنظر الضحية ولا بمنظر الأم الوالهة. لا يوجد نموذج واحد في العالم اليوم يقبل بمثل هذا الفعل. لم تكن المشكلة في عدد من يقتل من البنات، بقدر ما كانت تمثّله هذه الظاهرة من انحطاط عجيب. والأفظع من ذلك هو

تحولها إلى ديانة يتقرب بها إلى الآلهة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾. [الأنعام،137]

وعليه، إنّ نوعية التعامل مع المرأة في أيّ مجتمع إنّما يكشف عن قيمة الإنسان وحقوقه فيه. فهي الخاصرة الرخوة التي تدلّ على مدى مناعة الوضع الإجتماعي والثقافي. وبهذه الطريقة يمكننا أن نتصور مدى ما وصل إليه إنسان الجاهلية من مهانة وضياع.

الجهل والتخلف الفكري

الثقافة الجاهلية كما يُستشفّ من عنوان الجاهليّة تفتقر إلى روح التفكّر؛ وكانت غالباً مجموعة من الآداب والتقاليد المتعصّبة. كان العرب في تلك البيئة يرفضون العلم وكل ما يتعلّق به من أبحاث أو طرق علمية أو تفكير علمي. فلم يكن هناك أي تقدير أو احترام للبحث أو الاستدلال العقلي والمنطقي. حتى أنهم كانوا يستحقرون أهل العلم والتعلّم. ولهذا الأمر أسباب عديدة، لعلّ أبرزها ما كان يراه إنسان ذلك الوقت في العلم من تهديد للعادات القبلية والنظام السائد. فظهور المتعلمين في القبيلة من الطبيعي أن يكثر من الآراء، ويهدد السلطة الاستبدادية لزعيم القبيلة. وبالاصطلاح السياسي، كان من شأن انتشار العلم وحرية الفكر أن يؤدي إلى بروز قوى أخرى على ساحة السلطة والانتماء والتبعية؛ لذلك تمت مواجهة أيّة حركة علمية أو نشاط علمي ورفضها رفضاً قاطعاً. ويُستفاد من القرآن الكريم والأحاديث وكتب التاريخ القديمة والحديثة أن العرب في الجاهلية كانوا محرومين من نعمة الكتابة والقراءة، إلا القليل منهم. فلم يكن للعرب علم ولا فلسفة ولا كتب ورثوها من القديم. وأنّ أولئك الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين العرب كانوا يخجلون من ذلك، ويخفون هذا الأمر، وذكر المؤرّخون أن سبعة عشر شخصاً فقط كانوا يعرفون الكتابة في تلك البيئة بأسرها. ولعلّ هذا من أهم أسباب تسمية هذا العصر

بعصر الجاهلية.

وتُعتبر هذه الخاصية من الخصائص السيئة جداً، لأنها تؤدي مع الوقت إلى تجمّد العقول وتجعلها متحجّرة. حتى الشعر لا يمكن عدّه آية على تقدم ثقافيّ وحضاريّ، فالقرآن الكريم ذمّ شعراء المشركين الذين ينضمّ إليهم شعراء الجاهلية واتّهمهم بقول ما لا يفعلون. وفي الحقيقة، إن الشعر كان أحد الضرورات في حياة العرب، كما كان أداة التفاخر، والاستعلاء النسبيّ. وذكر الآلوسي أنّ العرب في الجاهلية لما كانوا يتفاخرون بحسبهم ونسبهم ويرومون المحافظة على شرفهم ومجدهم وسيادتهم، فإنّهم كانوا عند نشوب الحوادث بينهم كالحرب والنهب يحتاجون إلى كلمات تنبّههم على الثأر وتبعد قبائلهم عن العار، لذا مضافاً إلى استعانتهم بالشعر في هذا المجال كانوا يستعينون بالخطب والوصايا أيضاً.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الجهل الشديد الذي كان يمجّده العرب ويتفاخرون به بقوله: "إنَّ اللّه سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً"، "بأرضٍ عالمها مُلجم، وجاهلها مُكرم". [نهج البلاغة]

الروح القبلية

إذا طالعنا حياة الجاهلية وجدنا أنّ الحميّة والتعصّب القوميّ والقبليّ قد حلّا محلّ الدين والقيم الدّينيّة. وكان حافزهم الأساسي في تحرّكاتهم الجماعيّة وكافّة الحروب التي شنّوها حماية المصالح القبليّة. وقد أدى مثل هذا التعصب إلى أن يصبحوا مستعدّين لإخضاع جميع مقدساتهم للدوافع والانتماءات القبليّة. فعلى سبيل المثال كانوا يغيّرون وقت الأشهر الحرُم ليتمكّنوا من القتال والجدال في أيّ وقتٍ أرادوا. وإنّ انشغالهم بالثأر والصراع والقتال لم يدع لهم الفرصة للتأمّل في القضايا الوجودية والمصيرية. ويُستشف من بعض الآيات القرآنية أنّهم كانوا يرون أن تأثير آبائهم أكبر من تأثير الله، أو تأثير الآلهة. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[البقرة، 200] وتذكر الكثير من الآيات أنّهم تبنّوا عقائدهم الدينية بسبب ارتباطهم بأجدادهم. ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء، 74]، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[العنكبوت، 25]. فلفقدانهم الحجة والدليل العقلي، لم يكن لدى العرب وجه لعبادة الأصنام سوى الشأن الذي كان يراه الكبراء والوجهاء كالآباء والرؤساء للأبناء. وبسبب هذا الضرب من العلاقة ظلّت التقاليد القبليّة سائدة وواصلت مسيرها الطبيعيّ.

ونتيجة هذه الروح القبلية أو التعصّب العشائري أيضاً كان يمكن إشعال حرب لعدة سنوات بكلمة واحدة، ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[الفتح، 26].

القذارة والقسوة

إذا جئنا إلى ظاهر العرب من حيث النظافة والمظهر الخارجي، والاهتمام بأجسادهم، يوجد شواهد كثيرة على أنّ هذا المجتمع لم يكن يهتم بالنظافة أبداً. فقد كان لمعايشة العرب للدواب بالإضافة إلى قلّة المياه في أوساطهم الأثر الكبير في عدم اهتمامهم بالنظافة. ولم يكن الاستحمام مألوفاً عندهم . كما لم يكن عند الأقوام الأخرى. ومن الروايات التي تُذكر بهذا الشأن هو أنّ العربي كان يأكل شيء من الدهن وكان يمسح لحيته ووجهه بها.

النقطة الأخرى اللافتة هي حريّة المجتمع القبليّ في القيام بأيّ عمل يرغب فيه. فالبيئة المتفلّتة من جهة، وشحّ المصادر الاقتصادية وضغط الحياة من جهة أخرى تركا الباب مفتوحاً لعرب الجاهلية في الاختيار الخاطئ. ويُلاحظ أن الأهواء كانت تتّخذ الطابع العمليّ في هذا المجتمع. لذلك كان قلّما يعير أحدهم اهتماماً للقيم الدينية ويظل متمسّكاً بها. وقد وصل بهم الأمر إلى أن يصنعوا الصنم من التمر. ربما لعدم توفر الصخر أو الخشب أو الحجر أو المعدن في بعض الأماكن. وكانوا عندما يجوعون يأكلونه. وهذا، إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على عدم رسوخ معنى القداسة والتقديس في النفوس؛ فقد فرضت تلك الحياة أن يكون الأفراد بعيدين عن التجربة المعنوية والحالات الروحية إلى أقصى حد. فتميزت طبائعهم بالقسوة والغلظة والبعد عن معاني الإنسانية. وأدى ذلك إلى سيادة شريعة الغاب والقيم السبعية.

ولنا أن نتصور والحال هذه، كيف ستكون مهمة هذا النبي العظيم في هداية هؤلاء وإخراجهم من تلك الظلمات، وهم لم يعهدوا في حياتهم أي معنى للدين ومعنوياته!

ما هو سر نزول الرسالة في المجتمع العربي؟

بالرغم من كل ما تقدّم، كان المجتمع العربي يعد أفضل منطلق للدعوة والرسالة الإسلامية نظراً لما كان يمتلكه من قابلية للتغيير وتقبّل الرسالة؛ ولعل مقارنةً معمقة بينه وبين المجتمعات الأخرى، توصلنا إلى أن الجزيرة العربية (بما حوته من قبائل تعيش حياة بدائية بعيدة عن تنوع الأفكار ورسوخ العقائد والفلسفات) كانت الأنسب لنشر دينٍ، يفترض أن يكون آخر رسالات السماء.

إن أسوأ ما يمكن أن تبتلى به الدعوات الإلهية ما يصطلح عليه بعملية التحريف المعنوي؛ والذي ينطلق في الأغلب من وجود علوم ومعارف وأطروحات فكرية سابقة ومتجذرة، يصعب التخلص من آثارها وثمارها. فمثل هذه الأفكار والعقائد ستحضر بقوة وتفرض نفسها في عملية التلقي والاستنباط؛ مما يصعب مهمة النبي المرسل، ويذهب بالكثير من جهوده أدراج الرياح.

والرسالة الإلهية، لكي تحقّق أهدافها، تحتاج إلى مجتمع يتقبّلها ويحميها دون أن يعتبر نفسه أفضل منها أو يمنّ عليها.. وينبغي أن يرى هؤلاء عظمة الدين وأهميته المطلقة في حياتهم حتى يبذلوا من أجله كل غال ورخيص. فإذا رأوا في الدين الوافد أنه ليس سوى عملية إصلاحية بسيطة أغفلوا هذا الشأن ولم يروا أنفسهم مسؤولين عن الدفاع عنه والاستماتة من أجله.

كل هذه المؤهلات جعلت مجتمع الجزيرة الأنسب للدعوة الإسلامية العظيمة.



وبالطبع يمكن الوقوف على عدد كبير من العوامل والأسباب. لكنها جميعاً تندرج ضمن الأمرين التاليين:

1. جاهلية العرب وفقدانهم لنظام قيمي يواجه الرسالة المحمّدية.

2. رسوخ القيم الحضارية الطاغوتية والضالة عند غير العرب.

كيف أمّنت جاهلية العرب الأرضية الأفضل لمشروع التغيير؟

لبقاء الرسالة الجديدة واستمرارها يشترط أن لا تصبح مورد تكذيب أتباعها وإنكارهم. ولبقائها صالحة للهداية والإحتجاج يجب أن لا تتعرّض نصوصها المقدسة للتحريف. لهذا، فإنّ استمرار الرسالة يكمن ببقاء سندها ووثيقتها الأساسية. وقد كان السند الأساسي للرسالة الإسلامية هو القرآن الكريم. فإذا ما أريد للإسلام أن يبقى ديناً إلى يوم القيامة، يجب أن لا يشك الناس في أيّة كلمة جاءت فيه أنها من عند الله تعالى.

يقول الإمام الخامنئي حفظه الله: "*إن البعثة النبوية وقعت في فترة فراغ روحي ومعنوي، فالبشرية كانت بحاجة الى تلك البعثة العظيمة، والله بحكمته البالغة جعل هذه البعثة والحادثة العظيمة في منطقة؛ بحيث أصبحت المفاهيم الحقيقية لهذه البعثة معروفة في تلك الأيام وبقيت مصونة ومحفوظة على مدى تاريخ البشرية، ودون أن تتلوث أو أن تندس فيها المفاهيم المتداولة والرائجة تلك الأيام. فقد كان ممكناً وقوع البعثة الخاتمة في المناطق ذات الحضارة المتقدّمة كدولة الروم أو اليونان أو الدول المتقدمة آنذاك والتي كانت لديها فلسفة ومعارف إنسانية وعلوم مدنية، فالله سبحانه وتعالى لم يرسل النبيّ ﷺ إلى هؤلاء، ولم يجعل انعقاد هذه الدعوة والفكرة في تلك المناطق لئلا تصبح العناصر والمفاهيم الأجنبية دخيلة عليها.*

أمّا في الجزيرة العربية فلم يكن للمعارف الإنسانية أي أثر، بل الشرك ومظاهره



﴾ أولى صورة، لذا يُلاحظ أنّ القرآن حارب الشرك بشدّة؛ بحيث تمّ تعظيم الآية ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ في سورة الإخلاص، بأن وضعت في قلب سورة تتألف من خمس آيات، كل هذا لأجل محو الشرك من الأذهان والقضاء على مظاهره.

ولكن رغم هذا وُلد الاسلام وانتشر في العالم خالصاً نقيّاً، في كلّ مكان في قبال الثقافات والحضارات المختلفة، إلى أن خلت الدعوة تدريجياً من الخلوص والنقاء بسبب عدم إخلاص الدعاة". [الامام الخامنئي، من لقائه مع مسؤولي الدولة - 27 رجب 1414]

وبالتأمّل فيما أصاب الكتب السماوية السابقة من تحريف أدى إلى افتقادها للحجية المطلوبة، نجد أنّ المشكلة الأساسية كانت تكمن في عدم رسوخ تلك الكتب بين الناس؛ وانحصار معرفتها والإطلاع عليها بالعلماء.

فاحتكار العلماء والقرّاء لتلك الكتب المقدّسة من جهة، ودخولهم في مشاريع السلطان من جهة ثانية، جعلهم يستسهلون تحريف تلك الكتب حيث لا رقيب ولا حسيب.

وهنا كان على رسول الله ﷺ أن ينشر الكتاب بين الناس إلى الدرجة التي لا تسمح بنشوء طبقة خاصة إحتكارية، يمكن أن تطمع بها سلطة الطاغوت فيما لو تحكّمت بالبلاد والعباد. وبعبارة ثانية يجب منع تشكّل تحالف علمائي طاغوتي إحتكاري بأي ثمن. والحل هو توسعة رقعة حفظة القرآن والعارفين به قدر الإمكان.

ويبدو أنّ أوضاع العرب في ذلك الزمان كانت مهيّئة بصورة جيدة لمثل هذا العمل. حيث سذاجة الفكر وعدم وجود علماء سلطة أو وعّاظ سلاطين وبساطة العيش وضعف الثقافة وقلّة المحفوظات العلمية أو انعدامها.

فمن هذه الجهة، يمكن التأسيس لمثل هذا الأمر بطريقة أسرع. ولعلّ أحد أسرار تنزّل القرآن على مرّ السنين أن يسمح لانتشاره ورسوخه في المجتمع العربي على نطاق واسع. فإنّ هذه المدة كفيلة بأن يسمع به كل فرد وأن يحفظه عدد كبير جداً من الناس نظراً لخلوّ الساحة الفكرية والعلمية من الكتب والمحفوظات.

وما كان العرب يحفظونه من أشعار أو آثار لا يمكن أن يرقى ولو بدرجة واحدة إلى مستوى القرآن الكريم. ولهذا نجدهم قد نسوا أشعارهم دفعة واحدة؛ حيث استطاعت لغة القرآن وأسلوبه الإعجازي أن يقضي على هيبة الشعر ومكانته بسرعة قياسية. وباختصار، لم يكن لدى العرب إمكانية أن يقولوا للقرآن أنت تقول ونحن نقول.

وبرسوخ الظاهر القرآني، تثبت الحجة الإلهية مدى الدهور. وتبقى مهمة مواجهة التحريف المعنوي والتفسير الإنحرافي. ولهذا قصة أخرى!

وقد يُقال أنّ أشد ما واجه القرآن من تحدٍّ كان في الشعر الذي تفاخر به العرب على مرّ الزمان، واستخدموه كسلاح قويّ في مقابل الدعوة الإسلامية. وأنّ هذا ما يفسّر الإنفعال الشديد من قبل المسلمين وقيام الرسول بإهدار دماء بعض الشعراء أو اغتيالهم. وقد يلمّح أصحاب هذا القول إلى أنّ النبيّ الأكرم ﷺ قد اعتمد سياسة كمّ الأفواه وإسكات الإعلام المعادي وتحريم التعبير عن الرأي ومحاربته، حتى لا يبقى في الساحة أي كلام غير كلام القرآن! ومفاد هذا الرأي: أنّ تفوّق القرآن الكريم لم يكن نتيجة مواجهة عادلة، يقابل فيها الكلام بالكلام!.

ويكفي لمعرفة مدى صحّة هذا الإدّعاء أن نتأمّل في المعارف والقضايا التي طرحها القرآن الكريم، وتلك الموجودة في جميع أشعار الجاهلية حتى ندرك عظم الفارق وبعد المسافة. فما جاء به القرآن من حيث المحتوى والمضمون جعل الناس أمام واقع فكري جديد جداً لم يعهدوه من قبل. ولهذا قام زعماء قريش في المرحلة الأولى بالبحث عن ما يعينهم للردّ على النبي والقرآن عند أهل الكتاب؛ وقد أحدثت هذه الصدمة القرآنية تزلزلاً شديداً عند المشركين إلى الدرجة التي راحوا يبحثون عن مطمئن عند اليهود أنفسهم (هؤلاء الذين لم يكونوا يعتنون بدينهم ولا يرون لهم وزناً). وقد أجابهم هؤلاء.الذين يفترض أن يكونوا موحّدين منكرين للشرك وعبادة الأصنام.أنّ دينكم أفضل من دين محمد!

ذُكر في السيرة الحلبية أنّ أبا سفيان زعيم قريش كان يسأل كعب بن الأشرف اليهوديّ ويقول: "ديننا خيرٌ أم دين محمد؟ وقد أوفد كفّار قريش النضر بن

الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة ليسألوهم عن دين محمد ﷺ ويتحدّثوا لهم عن صفاته بوصفهم أهل الكتاب.. وجاء في أسباب النزول أن اليهوديان حي بن أخطب وكعب بن الأشرف قدما إلى مكة فقال لهم أهلها: أنتما من أهل الكتاب والعلم القديم، أخبرانا عن ديننا ودين محمد، فقالا لهما: أنتم أهدى سبيلاً منهم.

أما على مستوى البيان واللغة، فالشعراء وإن كانوا يمثّلون الشريحة الأكثر معرفة باللغة العربية وفنونها لكنهم كانوا في واقع الأمر قد امتهنوا طريقة العبث باللغة (لضرورات الشعر كما يقال) إلى الدرجة التي صار ذلك قانوناً عاماً لا يدركه إلا الشاعر نفسه ويخفيه عمن سواه. وهنا يمكن تشبيه الشعر الجاهلي بالسحر الفرعوني الذي يظنّه الناس سحراً وتأثيراً واقعياً، لكن السحرة يعلمون أنّه ليس سوى تلاعب بالأوهام والعيون: سحروا أعين الناس واسترهبوهم. ولكي لا ينكشف أمرهم لا بدّ أن يخفوا حقيقة الخداع. ولهذا عندما جاءهم موسى عليه السلام بسحر حقيقي (هو في الواقع تأثير وتصرف تكويني) كانوا أول من آمن لأنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم مخادعون. لقد أدرك سحرة فرعون منذ اللحظة الأولى، عندما التهمت حية موسى عصييهم وحبالهم، أنّ ما يرونه ليس بالسحر ولا بالخداع، بل هو أمر يفوق قدرة البشر، ولا يمكن لأحد مهما عظم سحره وفنّ خداعه أن يأتي بمثله!

وقد فعل القرآن الكريم في مجموعة من شعراء الجاهلية ما فعلته معجزة موسى بالسحرة، حيث أدرك هؤلاء الشعراء الضالعون بفنون العربية وسحرها، أنّ فصاحة القرآن وبلاغته ليس فيها أي تلاعب ولو بمقدار ذرة. ونظراً لخبرتهم العميقة بكل أساليب التفنن الشعري لم يروا ذلك الخداع الذي اعتمدوه على مرّ العصور. فعلى سبيل المثال، قد يضع الشاعر مفردة مكان أخرى لضرورة الموسيقى وهو يعلم أنها في غير محلّها، ويظنّ المستمع العادي أنّ هذا ترادف لغوي؛ لكن نفس الشاعر يعلم أنّه كان عليه أن يضع المفردة الأخرى ليفصح عن المعنى ويصح، وأن هذا الاستعمال ليس من البلاغة في شيء. وعندما استمع إلى

القرآن صُعق من قوّة البلاغة والفصاحة فيه حيث لم يتمكن من طرح أي إشكال حول وضع كلمة في غير محلّها. فالمخادع هو الأكثر معرفة بمكامن الخداع وإن لم يلتفت الناس إلى ذلك. ولهذا، كان للقرآن وقع الضربة القاضية على الشعر الجاهلي، حيث أصابه بالشلل شبه التام.

أما ما استُخدم من شعر لمواجهة النبي، فلم يعدُ الذمّ والحرب النفسية والهجاء الساقط. فقد كان بمعظمه عبارة عن سباب وشتم وإهانة. وقد علم رسول الله ﷺ أنّ هذا المسلسل لن يتوقّف إلا إذا اتّخذ بشأنه ضربات موجعة. فهو صلى الله عليه وآله يريد في الواقع أن يجعل المعركة معركة فكر مقابل فكر، وأولئك الشعراء الساقطون، الذين لم يمتهنوا سوى الهجاء المنحط، كانوا يجرّون المعركة نحو الإسفاف والشناعة. [انظر الملحق 6: القرآن والشعر]

وباعتقادنا، تُعتبر اللغة العربية من أسهل لغات العالم وأكثرها يسراً للتعلّم والتعليم، ولهذا فإنّها تصلح لتكون لغة عالمية، يستخدمها جميع الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، ويتواصلون على أساسها فيما بينهم، ليحققوا تلك الوحدة العامة التي تمثّل أحد أهم أهداف النبوة والرسالة. لكن ما جرى من تشويه جديد على أيدي اللغويين في عصور الإنحطاط، جعل هذه اللغة من أصعب اللغات، نظراً لما دخل عليها وأُدخل فيها من قواعد وقوانين لا تمت إليها بصلة. والأشد إيلاماً أنّ هؤلاء لم يكتشفوا الطريق إلى لغة القرآن التي تمثّل أصل العربية ومعدنها. فإنّه لو تمّ اكتشاف هذه اللغة الأم لتغيّر وجه العالم ومصيره.

إنّ لغة القرآن والتي تمثّل بوابة الإعجاز الدائم المستمر عبر العصور تمّ تحريفها على أيدي الأصدقاء الجهلة، حينما تمّ تهميش المفسّرين الحقيقيين للكتاب الإلهي، فاضطر الناس أن يبحثوا مجدداً في أشعار الجاهلية عما يمكّنهم من فهم المعاني القرآنية. لكن عبثاً كانوا يفعلون، وبالمزيد من البعد عنه كانوا يتسبّبون.

ولو لم تحدث عملية التشويه المنظمة والاعتباطية، لكان من السهل علينا

ونحن نتعرّف على الفارق الكبير بين بيان القرآن وبيان الشعر أن ندرك حجم الضربة التي أنزلتها آياته بأبياته!.

وبالنظر إلى حكمة الرسولﷺ (التي هي التجلّي التام لحكمة الله تعالى) نعلم أنّه صلى الله عليه وآله لو وجد في ذلك الزمان شعباً يمتلك قابلية أفضل من قابلية العرب لحمل الرسالة، لبُعث فيهم وانتقل إليهم. فالرسول لا يمكن أن يواجه أي عائق على صعيد معرفة الشعوب ولغاتها. وعندما يرسل الله نبياً بلسان قومه، فإنّما يكون ذلك لأجل الناس، لا بسبب قدرات ذلك النبيّ وإمكاناته. ومن هنا لا نستبعد أن تكون خطة الرسول الأكرمﷺ في جعل قومه حملة الرسالة والمدافعين عنها لتثبيتها وترسيخها؛ لتنتقل إلى قوم آخرين يؤمنون بها بحق ويسعون لتطبيقها كما هي دون استغلال أو استئثار، يرفعون رايتها وينشرون تعاليمها لعل العرب بعد ذلك يصبحون على أيديهم مهتدين وبحقها عارفين. وقد ورد عن النبيﷺ أنه قال: «**فِي فَارِسَ ضَرَبْتُمُوهُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ وَلَا تَنْقَضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَضْرِبُوكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ**».[بحار الأنوار]

كيف يؤثّر استحكام القيم الحضارية في المجتمعات الأخرى سلباً على انتشار الرسالة؟

لم تكن الشعوب الأخرى في زمن نزول القرآن والبعثة تمتلك القابلية اللازمة لتقبّل الدين الجديد بسبب استحكام وتجذّر قيمها الحضارية التي تتناقض مع تعاليم الرسالة وترفضها؛ فلو قدّر أن ينزل الدين الإلهي إلى الفرس أو الروم في ذلك الزمان لقاموا بتحريفه منذ اللحظات الأولى، ليس بالضرورة معاندةً ومحاربةً، بل لسبق الكثير من المعارف والأحكام التي جرت قضايا الدين والقرآن حولها إلى أذهانهم؛ وقد يتمكن النبيّ في النهاية من القضاء على أباطيلهم وفلسفاتهم وتصحيح رؤيتهم الكونية وبيان الفاسد من أحكامهم المسبقة، لكن هذا الأمر يتطلّب وقتاً طويلاً، وهو ليس من مصلحة الرسالة. فالعامل الزمنيّ أمر مهم لتثبيت التنزيل، وصناعة التجربة؛ ويجب أن يتم ذلك في مدة وجيزة في عمر الأمم.

إنّ ما نشاهده اليوم في حضارة الغرب من إنجازات فكرية ومساهمات فلسفية مبنية على حجم هائل من الأبحاث والمشاركات العلمية، مع ما نراه معه من استكبار لا مثيل له، يجعلنا نقترب من تصوّر أوضاع زمن البعثة. فكيف نحتمل أن يبدأ الغرب بالتفكير فيما لدينا من معارف وحقائق ومعاني وحكمة وعرفان لا نظير لها جميعاً، وهو يمتلك في موضوع حقير جداً ستة آلاف مصنّف وكتاب! (تحتوي مكتبة الكونغرس الأمريكية على ستة آلاف تأليف حول الديدان). فعندما يرى أهل التكاثر كم لديهم من علم ويفرحون بما أوتوا منه لا نظن أنهم سيفكّرون بما عند غيرهم من معارف إلا بطريق الإستغلال والجمع والإستكثار!



وإذا نظرنا إلى العامل القومي، لوجدناه أكثر رسوخاً عند معظم شعوب العالم في زمن الرسالة؛ مما يشكل عائقاً كبيراً أمام عملية التغيير. فإنّ العرب، ورغم عصبيتهم القبلية التي لم يكن لها مثيل، لم يكونوا يشعرون بعروبتهم مقابل الفرس أو الروم أو الصينيين والهنود. ومن المتوقّع والحال هذه أن لا يروا أنّ عروبتهم هي أساس الفخر، وبالتالي ينبغي أن يروا الإسلام والنبيّ والقرآن عنوان مجدهم. ومثل هذا الإفتخار مطلوب وممدوح، لأنّه لا يلغي الآخر ولا يغلق عليه باب الكمال. لكن هذا الشعور المهم للتقدّم بالرسالة نحو الأمام، لا يُتوقّع من أقوام وشعوب يمكن أن تنسب مجد الرسالة والرسول إلى قوميته وعنصرها!

أجل، لقد عادت العصبية القبلية لتتشكل بصورة أقوى في العروبة وتؤدّي إلى نزعة الشعوبية البغيضة، نتيجة فراغ الحكام الذين استولوا على السلطة وحكموا الشعوب الإسلامية وهم لا يمتلكون مقومات التفوّق الواقعي في مشروعهم السياسي والإداري. فاضطروا نتيجة ذلك إلى البحث عن أي عامل أو أمر يظهرون فيه تفوقهم. وهنا بالتحديد لم يجدوا سوى العروبة، لأنّ غيرهم من المسلمين كانوا قد تفوّقوا عليهم في العلوم والقيم!

إنّ نزعة الشعوبية والروح القومية لم تتفاقم في الواقع الإسلامي إلا على يد الحكام! وصحيح أنّ كلاً من سايكس وبيكو قد قسّما العالم الإسلامي إلى دويلات شعوبية وقبلية، لكنهم لم يفعلوا ذلك اعتباطاً بل وجدوا الأرضية مهيئة بنسبة كبيرة. وقاموا بتغذيتها أضعافاً كثيرة من خلال عملية التقسيم المعروف، والذي ما زلنا ندفع ثمنه باهظاً وكلفته دماً.

إنّ الفارق الحضاري الذي ظهر بسرعة نتيجة التجربة النبوية (التي لم تستمر كما أراد) أعطى للعرب المسلمين تفوقاً ملحوظاً، استطاعوا بفضله أن يفتحوا البلدان ويسقطوا الأنظمة. وصحيح أنّ العسكر قال كلمته في تلك الفتوحات، لكن الكلمة الأولى كانت للتفوّق القيمي الذي حققته الرسالة بين العرب. ولو استمرّ هؤلاء على السير في خطّ القيم الذي رسمه لهم رسول الله ﷺ، لفتحوا بفضله كل بلاد العالم دون إراقة الدماء!11

كيف تمكّن الرسول من جعل قومه أمةً واحدة قادرة على حمل الرسالة؟

كان العرب يحملون مجموعة من القيم والأعراف التي قاومت وواجهت قيم الرسالة الإسلامية؛ وقد ظهرت قيمهم وثقافتهم فيما ذكرناه من: استحقار المرأة وإهانة الإنسانية، والجهل الشديد، والقذارة، والعصبية. وتجذّر هذه القيم كان يشكّل سدّاً منيعاً أمام عملية صناعة الأمّة الواحدة، وتطبيق المشروع الحضاري للرسول، والذي يهدف إلى توحيد العرب على أساس: كنتم خير أمّة أخرجت للناس؛ وذلك بإظهار ما يحملونه من عظمة وجمالية في قيمهم الإسلامية وتجربتهم الإجتماعية والسياسية؛ ومن ثم عرضها على الناس كافة. هناك سيحصل الإقبال الكثيف، وتسقط الأنظمة الممانعة وتنهار الجدران الحائلة!

من هنا كان على الرسول أن يواجه تلك القيم والأعراف السلبيّة ليستبدلها بقيم الإسلام السامية.

فاستحقار المرأة في ذلك المجتمع أدّى إلى تفكّك الروابط الأسرية السليمة، وساعد على رواج جميع أنواع الفاحشة والفساد، وحال دون توجّه الناس إلى المعنويات والقيم الإنسانية.. وكان لا بدّ إزاء هذا الوضع من العمل على جبهتين: تصحيح وتأكيد مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي من جهة، ومن جهة ثانية إنشاء الأسرة المتينة التي تشكّل النواة الحقيقية للمجتمع بحسب الرؤية الإسلامية.

في المقام الاول ساوى القرآن بين المرأة والرجل في الحقيقة والإنسانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[النساء: 1] وجعل المرأة شريكة أساسية في تكوين الطفل ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾[النساء: 1] وليس حقلاً لبذر الرجل. وجعل رسول الإسلام نسله من ابنته، وردّ على من نعته بالأبتر بسورة الكوثر. وأكّد القرآن الكريم في غير موضع تساوي المرأة والرجل بتكرار عبارة ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾، واحترم عمل المرأة مادياً ومعنوياً ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾[آل عمران: 195] واقتصادياً ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ

نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾[النساء، 32] وسياسياً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ﴾[الممتحنة، 12]، وحفظ حقها في الإرث ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[النساء، 7] بل اعترف بجميع حقوقها في جميع شؤون الحياة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾. ولم يمنع الإسلام المرأة من التصرّف في أموالها أو اختيار زوجها، والآيات التي تذكر المرأة مع الرجل لبيان التقدير أو المواعظ أو العبر كثيرة جداً ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل، 97] ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب، 35]. وقد استطاع رسول الله أن يرفع مستوى المرأة التي كانت تعيش في عصره، والتي كانت تحمل تبعات الاضطهاد للماضي الطويل وعُقده، حين فضّلها في الإحسان والهدية بنتاً، وقدّمها في البرّ والخدمة أمّاً، واعتبر أن "خير الأولاد البنات"، وأن "المرأة ريحانة"، وأن "الجنة تحت أقدام الامهات".

وفي المقام الثاني عدّ الرسول البناء الأسري من أعظم الأبنية في المجتمع، فقال ﷺ: ما بني في الإسلام بناء أحب إلى الله من التزويج؛ وأرسى لأجل ذلك مجموعة كبيرة من الأحكام المفصلة، تنظم حياة الأسرة وروابط الزواج والمصالح الجنسية. وعزا سبب التفاوت في الأحكام وفي الواجبات والحقوق بين الرجل والمرأة إلى التفاوت في الطبيعة والاستعداد. كل ذلك تحقق بدقة مذهلة، وفي ظرف زمني قياسي.

ومقابل تحقيق هذا الأمر كان لا بدّ للرسول من أن يجسّد في حياته

وسلوكياته المختلفة قيمة تلك التعاليم ودورها في إحداث النهضة الكبرى. ولا يخفى أنّ الرسول لم يتحرّك في ذلك المجتمع كمجرد معلّم أو مبلّغ، بل كانت عظمة أخلاقه التي تأسر الألباب عاملاً أساسياً في تأثيره وشدة نفوذه.

يقول الإمام الخامنئي: *«قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة يربّي الرسول الأكرم بنتاً تحرز جدارة أن يقبّل الرسول يدها! تقبيل الرسول ليد فاطمة الزهراء يجب أن لا يُحمل إطلاقاً على محمل عاطفي. إنه لمن الخطأ والتفاهة جداً أن يُتصور أنه كان يقبل يدها لأنها بنت ولأنه يحبها. شخصية بتلك المكانة السامية و بما له من العمل والحكمة وباعتماده على الوحي والإلهام الإلهيين ينحني ويقبّل يد ابنته؟ لا، إن هذا شيء آخر وله معنى آخر. هذا دليل على أنّ هذه الفتاة الشابة وهذه المرأة التي كان عمرها حينما فارقت الحياة ما بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، كانت في ذروة الملكوت الإنساني وشخصاً خارقاً للعادة. هذه هي نظرة الإسلام للمرأة.»* [8/2/2010]

ولقد أُسر المسلمون بشخصية الرسول الأخلاقية قبل أن تأسرهم قوانين الإسلام وتعاليمه المذهلة. وما كان الإقبال العجيب والخضوع الكبير لهذا النبيّ إلا بفضل ما ظهر للمسلمين من عظمة لا يمكن تصورها. وقد كان هذا البعد الأخلاقي والنفوذ الهائل عاملاً أساسياً ساعد النبيّ ﷺ في إحداث تغييرات مهمة وإصلاحات جذرية على صعيد العلاقات الإجتماعية، التي انطلقت من إصلاح العلاقات الزوجية. قال ﷺ: **«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»**.

ففي مثل تلك البيئة المنحطة، كانت أخلاق النبيّ تشقّ الطريق وتعبّده لأجل التعرّف على معنى الإنسانية وحقوق الإنسان. واضعة بذلك أسس بناء الحضارة المعنوية الشامخة.

وأما على صعيد القذارة وتبعاتها، فقد تجلّت عظمة الإسلام في البرنامج التفصيلي للطهارة والتطهير الذي فرضه لحلّ هذه المشكلة؛ فكانت النتائج السريعة أن ظهرت الأمم الأخرى في مستوى أدنى بكثير على صعيد هذه القيمة وما تعنيه. فقد حوّلت تشريعات الدين الجديد النظافة والإهتمام بالصحة

والبنية الجسمانية إلى ظاهرة عامّة. فأحكام الغسل والوضوء وكافّة الطهارات حتّمت على كل مسلم أن يكون نظيفاً بشكل مستمرّ. وقضت بالتالي على عدد مهم من الأمراض التي تسبّبها القذارة، وجعلت رائحة المسلم عطرة جذّابة، بعدما كانت الروائح الكريهة العلامة الفارقة!. ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ مثل هذه الأحكام والتشريعات الإسلامية كانت تهدف إلى تحقيق مثل هذه الجاذبية والجمالية بالدرجة الأولى، وإن نسي المسلمون مقصده الأهم وحصروها في إطار عبادي ضيق. وكان المراد الأول من كل هذه التفاصيل التشريعية أن يصبح المسلم عنواناً للجمال والجاذبية والطهارة التي تؤدّي إلى انبعاث الدوافع المعنوية والروحية فيه، ليكون بالتالي قدوة يستقطب كل شعوب العالم.

وأمّا بالنسبة للجهل، فقد علمنا أنّ عرب الجاهلية كانوا يتفاخرون به، وينبذون العلم وكل ما يمت إليه؛ ولهذا استحق زمانهم وبيئتهم تلك التسمية البغيضة. وكانوا ينسبون كل قول بليغ إلى الجنّ (ومنه الجنون)؛ وقد اشتُهر وادي عبقر (الذي كانوا يعتبرونه مسكن الجن!) على أنّه مصدر الإيحاء بالشعر والنبوغ. وحتى لا يُتّهم أحدهم بالشعوذة والتواصل مع المخلوقات الجنّية، فضّلوا أن يعرفوا بالجهل ولا يعرفوا بالعلم والمنطق!. وكانت النتيجة كما علمنا أن ضاع التعليم وزال رسمه.

في مثل هذه الظروف التجهيلية العجيبة، نهض الرسول الأكرمﷺ كمعلّم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة،2]، وبدأ بتلاوة الآيات الكثيرة على طائفة من الذين لم يعرفوا معنى التفكر وقيمته، وألقى عليهم مجموعة كبيرة من المعارف مصحوبة بحركة وتحوّلات اجتماعية متناسبة، فعظم العلم في بعض النفوس وشاعت ثقافة التعلّم ودخل في العبادة والمكانة عند الله.

يقول الإمام الخميني قده: *«وقد كثرت الدعوة إلى التفكر وتمجيده وتحسينه في القرآن الشريف قال تعالى:* ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ *وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكر، لأنها جعلت*

غاية إنزال الكتاب السماوي العظيم والصحيفة النورانية المجيدة احتمال التفكر، وهذا من شدّة الاعتناء به حيث أنّ مجرّد احتماله صار موجباً لهذه الكرامة العظيمة، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾».

[معراج السالكين]، [انظر الملحق 7: القرآن يفتح باب التفكر والتعقل]

معركة القيم
والإنجازات الكبرى

كان القرآن الكريم هو السلاح الأعظم والأشد تأثيراً في حركة الرسالة والدعوة الإسلامية. لهذا، كان التبليغ عنوان التحرّك الرسالي، وكذلك التعليم: «إنما بُعثت بالتعليم».

أراد رسول الله ﷺ بثورته الكبرى التي زلزلت الكيانات الإجتماعية والنفسية أن يغيّر المجتمع من الناحية المعنوية والقيمية والثقافية، لأنّها هي التي تحرّك المجتمع وتحدّد فعاليته وقدراته. ولكي يتم تغيير القيم، يجب القضاء على النظام السياسي والإجتماعي الذي يدعمها ويستغلها. فالنظام السياسي بعلاقاته وأنظمته هو الذي يحفظ القيم فيستمد منها قوّته ويدعمها بمنظومته.. وقد اقتضت عملية التغيير هذه إيجاد مناخ مناسب للحراك الثوري ينبغي أن يشارك فيه الجميع؛ وأوّل إرهاصات هذا المناخ الجديد للثورة كانت في قدرة الرسول ﷺ على تحويل جميع القوى الفاعلة في المجتمع إلى وضعية الإنفعال تجاه دعوته. وهو دليل قوّة الدعوة وتقدّمها والبشارة بنجاحها. ففي ظلّ انفعال العدوّ يتمكن القائد من تحديد قوانين المعركة، فينقل الوضع إلى حالة جديدة من عملية صياغة القيم. [انظر الملحق 8: القرآن يواجه الروح القبلية]

وقد جاهد الرسول ﷺ منذ البداية لكي يكون القرآن في صلب التحدّيات والمواجهات والمعارك والتفاعلات، وهو يعلم أنّ هذا يعني استجلاب القدرة الإلهية، لأنّ كلمة الله لا يمكن أن تُهزم فهي العليا أبداً. وبعبارة ثانية، كان رسول الله ﷺ مثل سائر الأنبياء يسعى لنقل المعركة من الإطار الضيّق الدنيوي، إلى الإطار الواسع الإلهي لتكون المواجهة بين الإيمان والكفر، أي بين الله والشيطان. وهو يعرف النتيجة سلفاً. لأنّ العدوّ إذا استطاع أن يجعل المعركة في دائرة المصالح

الدنيوية فإنّ العناية الإلهية لن تكون حاضرة بالمقدار الذي يضمن النصر. وما دامت المعركة بين البشر على أساس الدنيا والماديات، فإنّ الله يترك الغلبة للكثرة والكمية. أما عندما يتمكّن القائد من جرّ أعدائه نحو المواجهة القيمية، فإنّه يحقّق الإتصال بمبدأ النصر ومنبع المدد الغيبي والقوة الملكوتية.

ومع سقوط النظام السياسي الطاغوتي، ستتم عملية تبديل القيم بصورة أسرع، فتتحرّك القوى المختلفة في المجتمع نحو الأهداف الإلهية، وذلك في قناة واحدة وتوجّه عام.

فما هي التحوّلات القيمية التي حدثت في ذلك المجتمع الذي بعث إليه رسول الله ﷺ، وما هي الإنجازات على هذا الصعيد؟

وقبل ذكر هذه المفاخر، ينبغي أن نعترف بأنّ إحصاءها جميعاً أمر فوق القدرة والوسع، وأنّ التعرف على آثارها يتطلّب فهماً عميقاً لمسيرة المجتمعات البشرية. حيث نتوقف هنا عند المعنى الذي ذكره الإمام الخميني وهو يصف أهم إنجازات النبوات على مرّ العصور بأنّه لولاهم لكان حال المجتمعات تسوده شريعة الغاب. فإنّ كل ما لدى البشر اليوم من خير وفضيلة وقيم سامية (مهما كانت ضعيفة أو قليلة) إنّما بقي بفضل الأنبياء. وبعبارة أخرى، لولا خطّ النبوّة لساخت الأرض بأهلها، ولانتفى معنى وجودهم عليها. فالدين الذي هو سرّ الوجود لا حياة له إلا بالقيم والعمل بها.

إنّ أهم ما وصلنا إليه على صعيد التحولات القيمية، في عصر صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، هو أنّ كلمة مثل كلمة الإسلام، ولفظ النبيّ محمّد، وظاهر القرآن، أضحت أموراً مقبولة ومعظّمة ولها قداستها العليا بين عدد كبير من البشر. وبمعزل عن مدى ما وصل إليه هؤلاء المسلمون أو فهموه حول هذه المضامين والمعاني، التي تحتويها تلك الكلمات الشريفة والألفاظ المقدّسة، فإنّ من شأن هذا التقدير والإحترام أن يهيّئ فرصة مناسبة للتوجّه والإقبال على القضايا الأساسية الموجودة فيها.

فمنذ مئات السنين لم يعد الإسلام كمنظومة قيمية أو طقوسية محارباً من قبل منطقة واسعة من العالم. وليس هذا إلا بفضل التدبير المحكم لرسول الله ﷺ وقيادته الربانية.

وفي المقابل، انتهت عبادة الأصنام وتقديس الأوثان التي تمثّل أحط ما يمكن أن يصل إليه المجتمع على صعيد الفكر والمعنويات والعادات والتقاليد. واضطرّ قسم كبير من عبدة الأصنام في العالم أن يؤولوا عبادتهم هذه، ويتراجعوا عن الكثير من الأوهام التي كانوا يحملونها؛ فقالوا بأنها ليست سوى رموز لمعان سامية، وأنّها عبارة عن أيقونات تمثّل مقدّسات شريفة، و.. وباختصار، تمّ طيّ صفحة مخجلة من تاريخ البشرية إلى غير رجعة.

يقول الكاتب الأمريكي المسيحي الدكتور مايكل هيرد معلّلاً اختياره محمداً ليكون الأول، في كتابه "المئة الأوائل": *"إنّ اختيار محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القرّاء، لكنه الرجل الوحيد في التاريخ كلّه الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والمدني.*

فهناك رسلٌ وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة ولكنّهم ماتوا دون إتمامها كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم بها سواهم، كموسى في اليهودية. ولكنّ محمداً هو الوحيد الذي أتمّ رسالته الدينية كاملة وتحدّدت كل أحكامها وآمنت بها شعوبٌ بأسرها في حياته، ولأنّه أقام إلى جانب الدين دولة جديدة فإنّه في هذا المجال الدنيوي أيضاً وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمّة ووضع لها كلّ أسس حياتها ورسم أمور دنياها ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم في حياته أيضاً.

ومن أجل هذا النفوذ الديني والدنيوي فإنّي وجدت أنّ محمداً هو صاحب الحق الوحيد في أن أعتبره صاحب أعظم تأثير على الإطلاق في التاريخ الإنساني كله".

وعلى صعيد علاقة الدنيا والآخرة، استطاع رسول الله بما جمعه في شخصيته من قوّة الروحانية التي فاقت أيّة روحانية ظهرت في العالم، وزهده العجيب

الذي حيّر الألباب، واعتنائه بالدنيا إلى حدّ لم يترك فيها صغيراً ولا كبيراً إلا وأدخله تحت رحمته الربانية وإدارته لشؤونها المتشعبة، وعمق جهاده وقوّته من أجل إعمارها وإصلاحها؛ استطاع بكل ذلك أن يرسم لكل عقلاء العالم معالم المنهج القويم لصيرورة الدنيا في خدمة الآخرة دون إفراط أو تفريط. وثبّت بذلك طريقاً للروحانية الأصيلة.

لقد اتّضح للعرب أنّ في الحياة أموراً أساسية تحت عنوان الروح والمعنويات والآخرة والملكوت. وتم القضاء على ثقافة التكالب على الدنيا (وإن لم يتم القضاء عليه)، بمعنى أنّ جمع الدنيا وحطامها لم يعد أمراً يبعث على التفاخر؛ ولهذا اضطُرّ من سيطر على الخلافة فيما بعد، وتأمّر على المسلمين، أن يجتنب الإعلان عن زخارف الدنيا لكي يبقى تحت عنوان خليفة رسول الله ﷺ.

وبتبع هذا، عرف المسلمون معنى جديداً للسير في الدنيا هو الإهتمام بتزكية النفوس وتطهيرها والتخلّق بالأخلاق الفاضلة. وسقط على إثره أيضاً مجموعة من الأعراف والأخلاق الجاهلية، كالحمية والاستعلاء والعنصرية. وعرف المسلمون أهمية أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لتغيير الواقع، وانبعث الأمل في النفوس وزال اليأس من الصلاح والإصلاح.

ومن أعظم المفاهيم والقيم التي تعرّف عليها المجتمع الإسلامي الفتي وبقيت إلى يومنا هذا، قيمة الشهادة وبقاء من يقتل في سبيل الله حيّاً يُرزق.

وفُتح الباب أمام احترام حقوق الإنسان والشعور بقيمته الذاتية بمعزل عن انتمائه القبلي أو القومي.

وصار للنظافة والطهارة حضوراً قوياً في حياة المسلمين، ممّا دفعهم إلى البحث عن مناطق أرقى للعيش، فتعالت أخلاقهم وسمت طبائعهم، بعد أن اشتهرت بالقسوة والجلافة والغلظة.

أما العلم فقد صار محترماً، وصار للعالم قداسته، بعد أن كان للجهل قيمته الراقية. وفُتح الباب للبحث العلمي والجدال المنطقي والاكتشاف المعرفي.

ودخلت الزكاة ومواساة المحرومين في الحياة اليومية للمسلمين كفريضة بها يدينون لله، بعد أن كان البخل سمة عامة، والجود والسخاء لدفع العار فقط. أي أنّ العطاء والصدقة والإحسان المادي والمعنوي صارت جزءاً أساسياً من التديّن وبناء الشخصية.

وبالطبع، تعرّضت هذه الإنجازات القيمية لضربة قوية جداً عندما اهتزّ النظام السياسي بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ ولمّا رأى الناس في حكّام المسلمين من بني أمية والعباسيين تكالباً على الدنيا وزخارفها والإستعلاء فيها، رجعت راجعة الناس إلى ما قبل الإسلام في كثير من القيم. فاتّخذت العصبية بعداً قومياً شعوبياً، وارتكبت أفظع الجرائم وصار قتل النفس المحترمة أمراً عادياً لأنّه من صلاحيات الحاكم ومبرّرات السلطة؛ واستُبدل التحقيق العلمي بالجمع والحفظ، والبحث والجدال المنطقي بالمغالطات والمناظرات المذهبية؛ وتمّت مهاجمة الروحانية تحت حجج المجوسية والهندوسية والزندقة. وبرز على إثر ذلك تيارات منحرفة وطرق ضالة!

لكن يبقى أن ما أراده رسول الله من الإسلام أن يكون حجة على العالمين في مبادئه الأساسية كالتوحيد والمعاد والشريعة والقرآن وأمثالها قد استقرّ وثبت كقيمة لا تتزلزل أبداً. وبهذه الطريقة وُجدت الفرصة دوماً لطلاب الحقيقة والهداية؛ وسوف تأتي الفرصة يوماً لتحقيق الأهداف الكبرى التي بعث هذا النبي العظيم من أجلها.

الملاحق

الملحق1:

تربية النبي ﷺ لعلي عليه السلام

نستطيع القول بكل تأكيد أن الرسول الأعظم ﷺ قد قام بعملية الإعداد الرسالي(التربوي والفكري) لعليّ بن أبي طالب عليه السلام منذ صدع بالوحي، وكان صلوات الله عليه يضع الخطوات العملية من أجل بلوغ الغاية المتوخّاة من ذلك، وهي تولّي عليّ للمهمّة القيادية (الإجتماعية والسياسية) بعده مباشرةً. ويظهر لنا من سير الأحداث، وما تناقلته كتب السيرة والتواريخ، وما نقله الرواة الثقاة أن ذلك تمّ عن طريقين:

الأول: تعهّد الرسول القائد ﷺ نفسه بكفالة عليّ عليه السلام منذ صغره، وتولّي تربيته ورعايته، والحرص البالغ على أن لا يفارقه إلا لضرورة.

والثاني: إفراد علي عليه السلام من بين سائر الصحابة بمقامات وعلوم ومواقف ترتبط بوجود الاسلام وبمستقبله.

فأما أولاً: فإنّ كتب السيرة والرواية قد تكفلت ببيان تفصيلات وافية في هذا الصدد، حتى أن أمر تعهد الرسول الأعظم ﷺ لعلي بكفالته منذ صغره، وتربيته في بيته من أوضح ما تؤرخ به سيرته الشريفة، ويكفي أن نورد ما بيّنه الامام علي عليه السلام نفسه في خطبته الشهيرة بالقاصعة إذ يقول: «وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد،

يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشئ ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة...».

إن هذه الصورة التي ينقلها لنا الامام علي عليه السلام نفسه عن كيفية وطريقة التعامل التي كان يتبعها النبي معه، تكشف لنا عن حقيقة وأبعاد الهدف الأعظم من ذلك.

إن هذه التربية المخصوصة لعلي عليه السلام، والرعاية الفائقة، والحرص على أن يكون علي قريبا جدا من أنوار الوحي، وأن يكون متعرضا لنفحات النبوة، وأن يكون ثالث ثلاثة في بيت الرسول القائد حيث مهبط الوحي، فيتلقى في هذا المكان المشرف الدروس الاولى والتوجيهات النبوية المباشرة فينعكس ذلك على تكوينه الفكري والعقيدي (فلا يسجد لصنم قط) ولا يخالط عقله لحظة شرك، وينعكس على سلوكه فلا كذبة في قوله، ولا خطلة في فعل. إن هذا ليكشف عن إعداد تربوي خاص بلا أدنى شك.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن تعهد الرسول القائد ﷺ لعلي بالرعاية والعناية الخاصتين لم يقتصر على فترة الطفولة والصبا، ولم يتوقف عند مرحلة معينة لاننا نجد أن الرسول القائد كان حريصا على أن يكون علي إلى جانبه دائما لا يفارقه ليلا ولا نهارا، كما ورد عن علي عليه السلام أنه قال: «كان لي مع النبي مدخلان، مدخل بالليل، ومدخل بالنهار». بل نجد الرسول القائد لا يفارق عليا ولا يتركه إلا لضرورة تتصل بحفظ حياة الرسول نفسه أو بحفظ الدعوة الاسلامية وحمايتها من أخطار محتملة.

ونذكر على كل حالة مثالا واحداً لتأكيد المطلب:

أ - المورد الاول الذي يتصل بحفظ حياة الرسول القائد نفسه، وهو عندما ترك رسول الله عليا ليبيت في فراشه ليلة هجرته المباركة إلى المدينة، إيهاما لقريش المترصدين، وإنجاء لنفسه صلوات الله عليه وآله وسلم من مؤامرتهم لقتله. وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ.. ﴾ كما ذكره الفخر الرازي.

ب - المورد الاخر الذي يتصل بحفظ الرسالة وحمايتها، وهو عندما أراد رسول الله ﷺ أن يخرج إلى بعض مغازيه وقيل تبوك، ترك عليا في المدينة خليفة عنه، لان ابن أبي بن سلول رأس المنافقين كان قد تخلف في المدينة فاقتضى الموقف أن يترك علي لمواجهة أي تطور غير محسوب قد يهدد دولة الرسول القائد في المدينة، ذكر الطبري: «أنه لما سار رسول الله إلى تبوك تخلف عنه عبد الله بن ابي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.. وكانوا ممن يكيد الاسلام وأهله». وقال الطبري: «وفيه - فيما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن اسحاق، عن عمرو بن عبيد عن الحسين البصري، أنزل الله تعالى: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور..﴾». «وهنا أدرك المنافقون أن بقاء علي في المدينة سيفوّت الفرصة عليهم». قال الطبري في تتمة الخبر: «فأرجف المنافقون بعلي بن ابي طالب، وقالوا: ما خلّفه إلا استثقالا له وتخففا منه. فلمّا قال ذلك المنافقون، أخذ علي سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو بالجرف - موضع على مسافة من المدينة - فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون انك إنما خلّفتني انك استثقلتني وتخففت مني فقال: كذبوا، ولكني إنما خلفتك لما ورائي.. أفلا ترضى أن يكون مني يا علي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي! فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره».



وقد نقل البخاري ومسلم حديث المنزلة هذا، وفي الرواية عن سعد بن أبي وقاص قال: «خلف رسول الله عليا - في بعض مغازيه - في المدينة، فقال علي: يا رسول الله قد خلفتني مع النساء والصبيان، فسمعت رسول الله يقول: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي».

ومن الأمور الملفتة للنظر أن الرسول الأعظم ﷺ كان يعبر عن تلهفه وهواجسه عندما يغيب عنه علي(ع)، ويتطلع إلى رؤيته والاطمئنان عليه، فعن أم عطية على ما أخرجه ابن كثير وحسنة، قالت: «بعث النبي ﷺ يقول: اللهم لا تمتني حتى تريني عليا ويصل الأمر أحيانا إلى أن النبي ﷺ عندما يخص بأكلة لا يطيق أن يأكلها لوحده، ثم هو لا يكتفي بأن يدعو الله إلى أن يشاركه علي بتلك الاكلة، بل يجعلها مناسبة لبيان مقام علي (ع) ومنزلته»، فعن أنس بن مالك قال: «كان عند النبي طير - وفي بعض الروايات طائر مشوي - فقال ﷺ: (اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير، فجاء علي فأكل معه)».

ومن الملفت للنظر أن بعض الروايات تنقل أن محاولة جرت لصرف علي عند مجيئه إلى بيت الرسول ﷺ بعد دعوته تلك، ولكنها فشلت بتدخل الرسول نفسه على ما نقله ابن كثير. ويستفاد من هذه الرواية - كما هو ظاهر - أن النبي ﷺ أراد أن يرسخ ويؤكد أن عليا هو أحب الخلق الى الله تعالى أيضا. كل ذلك يدل بما لا يدع مجالا للشك على أن التربية التي خص بها نبينا محمد ﷺ عليا، كانت تهدف الى إعداده وتهيئته لمسؤولية قيادة الدعوة، وليس لمجرد أن يكون أحد أركانها وكوادرها الاساسية، إذ وجدنا الرسول القائد يتعهد جمعا من صحابته بالتربية والتثقيف والرعاية، ولكن ليس بمثل المستوى والطريقة والأسلوب والعناية التي اتبعت مع علي مما يكشف أن المسؤولية المنوطة بعلي هي أكبر بكثير من مسؤولية الآخرين.

أما الأسلوب الثاني: وهو إفراد علي واختصاصه بالعلوم، وخاصة القرآنية، وبالمواقف الحاسمة في تاريخ الرسول والرسالة، وتثقيفه تثقيفا مركزا بإحكام الشريعة، فإن هناك شواهد كثيرة وأدلة وفيرة عليه، ومن يراجع كتب الحديث

والسيرة والتواريخ يظفر بالكثير جدا.

ونذكر أمثلة وشواهد عليه تثبيتا للمطلب: لقد تولى رسول الله ﷺ بنفسه، وبأمر إلهي مهمة الاعداد الفكري والعلمي لعلي، وتزويده دون سواه بالمعرفة القرآنية الشاملة، وبأصول العلوم ينابيعها وبالحكمة وآدابها، وبتفهيم أحكام الشريعة حلالها وحرامها. جاء عن علي عليه السلام قوله: «علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب». وكان علي عليه السلام تارة يبادر هو بالحصول على المعارف والعلوم والاحكام من الرسول الاعظم، وتارة يبادر الرسول ﷺ نفسه بذلك، قال علي عليه السلام: «كنت إذا سألت النبي ﷺ أعطاني، وإذا سكتّ ابتدأني».

ثم قال مرة: «إن الله وهب لي لساناً سؤولا وقلبا عقولا..».

وفي حديث طويل تحدث الامام علي عليه السلام في هذا الصدد قائلا: «ما نزلت على رسول الله ﷺ آية إلا أقرانيها وأملاها علي فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها ودعا الله لي إن يعطيني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله تعالى، وعلما أملاه علي وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك رسول الله علما علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي كان أو يكون إلا علمنيه وحفظته، ولم أنس حرفا واحدا منه.»

وقد أورد السيوطي أن معمر روى عن وهب عن أبي الطفيل قال: «شهدت عليا يخطب وهو يقول: سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أحدثكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم في نهار أم في سهل أم في جبل..»

قال السيوطي: «إن احدا من الصحابة لم يجرؤ على أن يقول سلوني غير علي».

وكل ما تحدث به علي، ونقله لنا التاريخ نقلا أمينا، شهد به أجلاء الصحابة وأقر به علماؤهم وكبارهم، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود أنه قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وان علي



بن ابي طالب عنده من الظاهر والباطن...» وجاء عن ابن عباس أنه قال: «والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم»، وورد عنه أيضا قوله: «كنا نتحدث أن النبيﷺ عهد الى علي سبعين عهدا، لم يعهد الى غيره». وعمليا كان علي مرجع الصحابة في كل ما يعرضهم من المسائل العلمية والمشاكل الادارية، والمعضلات القضائية . فلقد ثبت عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه قال: «لولا علي لهلك عمر» وأنه كان يقول: «أعوذ بالله من معضلة، ولا أبو حسن لها»، وثبت عنه أنه قال: «أقضانا علي...» والقضاء يعني العلم بكل احكام الشرع.

السيد محمد باقر الصدر، نشأة التشيع والشيعة

الملحق2:

دور أمير المؤمنين وموقعيته مع رسول الله

لا خلاف بين المسلمين كافة أنّ الدين إنّما تمهدت قواعده وتشيّدت أركانه بسيف مولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام لم يسبقه في ذلك سابق ولا لحقه لاحق.

رُوي أنّ الإمام الحسن بن علي عليه السلام خطب بالمسلمين يوم شهادة أمير المؤمنين، فقال: «لقد فارقكم بالأمس رجل لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون. كان رسول الله صلى الله عليه وآله يبعثه بالراية جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله لا ينصرف حتى يفتح له».

ونقل الواحدي فقال: إنّ علياً والعباس وطلحة افتخروا. فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها. وقال علي عليه السلام: ما أدري ما تقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد. فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أجر عظيم﴾ فصدق الله علياً عليه السلام في دعواه وشهد له بالإيمان والمهاجرة والجهاد.



وغزواته مشهورة. ففي غزوة بدر كان عمر علي ﷺ سبع عشرة سنة حين أمره النبي أن يبرز إلى المشركين فبارزه الوليد بن عتبة، وكان شجاعاً جريئاً فقتله وقتل العاص بن سعيد العاص بعد أن أحجم عنه الناس لأنه كان هولاً عظيما. وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله. وطعن ابن عدي ثم نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش وكانت تقدمه وتعظمه وتطيعه.

وقال رسول الله ﷺ لما علم بحضور نوفل بدرا قال: اللهم اكفني نوفلا.

فلما قتله أمير المؤمنين ﷺ قال رسول الله ﷺ: من له علم بنوفل؟ قال: أنا قتلته يا رسول الله. فكبر وقال: الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه.

وفي غزاة أحد لم يكن أمير المؤمنين قد بلغ تسع عشرة سنة، وقد جعل رسول الله لواء المسلمين بيده ﷺ وكان لواء الكفار بيد طلحة بن أبي طلحة وكان يسمى: كبش الكتيبة. فضربه علي فندرت عينه وصاح صيحة عظيمة وسقط اللواء من يده. فأخذه أخوه مصعب فرماه عاصم بن ثابت فقتله. فأخذه عبد لهم اسمه صواب وكان من أشد الناس فقتله أمير المؤمنين.

وحين أكبّ المسلمون على الغنائم. ومال أصحاب الشعب إلى الغنائم وغادروا الجبل وجاء خالد بن الوليد من ظهر النبي وقال لأصحابه: دونكم هذا الذي تطلبون، فحملوا على رسول الله حملة رجل واحد ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح ورميا بالنبال ورضخا بالحجارة. وجعل أصحاب رسول الله ﷺ يقاتلون عنه حتى قتل منهم سبعون رجلا. وثبت أمير المؤمنين يدفع عن النبي ﷺ.

وجعلت هند بنت عتبة لوحشي جعلا على أن يقتل رسول الله ﷺ أو عليا أو حمزة.

فقال: أما محمد فلا حيلة فيه لأن أصحابه يطوفون به. وأما علي فإنه إذا قاتل أحذر من الذئب. وأما حمزة فأطمع فيه لأنه إذا غضب لا يبصر ما بين يديه. فقتله وحشي.

وقال جبريل: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي. وسمع الناس كلهم ذلك.

وقال جبريل: يا رسول الله قد عجبت الملائكة من حسن مواساة علي لك بنفسه.

فقال رسول الله ﷺ ما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه.

فقال جبريل ﷺ: وأنا منكما.

وكان جمهور قتلى أحد مقتولين بسيف أمير المؤمنين ﷺ. وكان الفتح ورجوع الناس إلى النبي ﷺ بثبات أمير المؤمنين ﷺ.

وفي غزوة الخندق اتفق المشركون مع اليهود واشتد الأمر على المسلمين. وركب فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل. فقال رسول الله ﷺ «أيكم يبرز الى عمرو أضمن له الجنة؟»، وقد قالها رسول الله ﷺ ثلاث مرات وفي كل مرة يقوم علي ﷺ ويقول أنا له يا رسول الله، والقوم ناكسوا رؤوسهم فقال رسول الله لعلي: اُدنُ منّي. فدنا منه فعمّمه بيده ودفع إليه سيفه ذا الفقار وقال له: إذهب وقاتل بهذا .

ثمّ دعا له فقال: اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته

فخرج إليه. ثم قال: يا عمرو إنك قد عاهدت الله تعالى ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين أخذتها منه.

فقال له: أجل.

فقال له علي ﷺ: فإنّي أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام.

فقال: لا حاجة لي بذلك. فقال: إني أدعوك إلى النزال.

فقال له: يا ابن أخي فوالله إني لا أحب أن أقتلك وأنت كريم وأبوك لي نديم.

فقال له علي: ولكني والله أحبّ أن أقتلك.

فحمى عمرو ونزل عن فرسه ثم تجاولا ساعة. فضربه علي ﷺ، فقتله وقتل ولده أيضا. وانهزم عكرمة بن أبي جهل وباقي المشركين وردهم الله (بغيظهم لم ينالوا خيرا) وكفى الله المؤمنين القتال قال ربيعه السعدي: أتيت حذيفة اليمان فقلت: يا أباعبد الله إنا لنحدث عن علي ومناقبه فيقول لنا أهل البصرة: إنكم لتفرطون في علي فهل أنت محدثني فيه بحديث؟

فقال حذيفة: يا ربيعة وما تسألني عن عليﷺ والذي نفسي بيده لو وضع جميع أعمال أصحاب محمدﷺ في كفة الميزان منذ بعث الله محمدا إلى يوم القيامة ووضع عمل علي في الكفة الأخرى لرجح عمل عليﷺ على جميع أعمالهم.

فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له ولا يقعد.

وفي غزوة الحديبية: كان أمير المؤمنينﷺ سهو الذي كتب بين النبيﷺ وبين سهيل عمرو حين طلب الصلح عندما رأى توجه الأمر عليهم. وله في هذه الغزاة فضيلتان:

إحداهما: إنه لما خرج النبي ﷺ إلى غزاة الحديبية نزل الجحفة فلم يجد بها ماء فبعث سعد بن مالك بالروايا فغاب قريبا وعاد وقال: لم أقدر على المضي خوفا من القوم. فبعث آخر. ففعل كذلك فبعث علياﷺ بالروايا فورد واستسقى وجاء بها إلى النبي ﷺ فدعا له بخير.

والثانية: أقبل سهيل بن عمرو فقال: يا محمد إن أرقاءنا لحقوا بك فارددهم علينا.

فغضب النبيﷺ حتى ظهر الغضب على وجهه ثم قال: لتنتهن يا معشر قريش أو ليبعثن الله عليكم رجلا امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب رقابكم على الدين.

فقال بعض الحاضرين: من هو يا رسول الله؟

قال: خاصف النعل في الحجرة.

فتبادروا إليها ليعرفوه فإذا هو أمير المؤمنينﷺ وكان قد انقطع شسع نعل رسول اللهﷺ فدفعها إلى علي يصلحها. ثم مشى في نعل واحد غلوة سهم.

ثم أقبل رسول اللهﷺ على أصحابه فقال: إن بينكم من يقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل؟

فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله؟

فقال: لا.

فقال عمر: فأنا؟

فقال: لا.

فأمسكوا ونظر بعضهم إلى بعض.

فقال رسول الله ﷺ لكنه خاصف النعل وأومأ إلى علي عليه السلام فإنه يقاتل على التأويل إذا تركت سنتي ونبذت وحرف كتاب الله وتكلم في الدين من ليس له ذلك فيقاتلهم على إحياء دين الله.

وفي غزوة خيبر: وكانت في سنة سبع من الهجرة الفتح فيها لأمير المؤمنين عليه السلام حاصرهم رسول الله ﷺ بضعا وعشرين ليلة. ففي بعض الأيام فتحوا الباب وكانوا قد خندقوا على أنفسهم خندقاً وخرج مرحب بأصحابه يتعرض للحرب. فدعا النبي ﷺ أبا بكر وأعطاه الراية في جمع من المهاجرين فانهزم فلما كان من الغد أعطاها عمر فسار غير بعيد ثم انهزم.

فقال صلى الله عليه وآله ائتوني بعلي.

فقيل: إنه أرمد.

فقال لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار يأخذها بحقها.

فجاؤوا بعلي عليه السلام يقودونه إليه.

فقال: يا علي ما تشتكي؟

قال: رمدا ما أبصر معه وصداعا برأسي.

فقال: اجلس وضع رأسك على فخذي ثم تفل في يده ومسح بها على عينيه ورأسه ودعا له فانفتحت عيناه وسكن الصداع. وأعطاه الراية وكانت بيضاء وقال: امض بها فجبرئيل معك والنصر أمامك والرعب مبثوث في صدور القوم واعلم يا علي أنهم يجدون في كتابهم أن الذي يدمر عليهم رجل اسمه إليا فإذا لقيتهم فقل: أنا علي بن أبي طالب. فإنهم يخذلون إن شاء الله.

فمضى علي عليه السلام حتى أتى الحصن فخرج مرحب وقد لبس درعاً يمانياً، ووضع على رأسه خوذة منحوتة من حجارة خاصة، فتنازلا حين من الوقت، الى ان ضربه امير المؤمنين ضربة قدت خوذته نصفين ونزلت الى رأسه وشقته نصفين الى اسنانه.

وقال حبر منهم: لما قال أمير المؤمنين عليه السلام أنا علي بن أبي طالب خامرهم رعب شديد وانهزم من كان تبع مرحبا وأغلقوا باب الحصن. فعالجه أمير المؤمنين عليه السلام ففتحه وأخذ الباب وجعله جسرا على الخندق حتى عبر عليه المسلمون فظفروا بالحصن وأخذوا الغنائم. ولما انصرفوا رمى به بيمناه أذرعا وكان يغلقه عشرون رجلا. ورام المسلمون حمل ذلك الباب فلم ينقله إلا سبعون رجلا.

وقال عليه السلام: وما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة ربانية.

وفي غزوة الفتح: التي وعد الله تعالى نبيه بنصره فقال:

(إذا جاء نصر الله والفتح) كانت الراية مع علي عليه السلام وكان عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يقاتلوا بمكة إلا من قاتلهم سوى نفر كانوا يؤذونه. فقتل أمير المؤمنين الحارث بن نفيل بن كعب وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة. ولما دخل النبي صلى الله عليه وآله المسجد وجد فيه ثلاثمائة وستين صنما بعضها مشدود ببعض بالرصاص فقال: يا علي أعطني كفا من الحص فناوله كفا (من الحصى) فرماها به وهو يقول: (قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فلم يبق فيها صنم إلا خر لوجهه وأخرجت من المسجد وكسرت.

وفي غزوة حنين: لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله من المسلمين سوى تسعة نفر من بني هاشم. فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد عليا عليه السلام ومن ثبت معه. وكان علي عليه السلام قائما بالسيف بين يديه.

وجاء رجل من هوازن اسمه أبوجزول ومعه راية سوداء فقتله أمير المؤمنين عليه السلام - وكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جزول. وقتل أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذلك أربعين

رجلا فكملت الهزيمة وحصل الأسر.

وفي غزوة تبوك: أوحى الله تعالى إلى نبيه أنه لا يحتاج إلى القتال وكلفه المسير بنفسه واستنفار الناس معه. فاستنفرهم النبي ﷺ إلى بلاد الروم وقد أينعت ثمارهم واشتد الحر فأبطأ أكثرهم عن طاعته حرصا على المعيشة وخوفا من الحر ولقاء العدو ونهض بعضهم. واستخلف أمير المؤمنين ﷺ على المدينة وعلى أهله بها وحريمه. وقال ﷺ: إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك. ولما علم المنافقون استخلافه له حسدوه وعلموا أن المدينة تتحفظ به وينقطع (طمعهم) وطمع العدو فيها فأرجفوا به وقالوا: إنه لم يستخلفه إكراما له وإجلالا بل (استقلالا به) واستثقالا به. مع علمهم بأنه أحب الناس إليه.

فلحق بالنبي ﷺ وقال: إن المنافقين زعموا إنك خلفتني استثقالا بي.

فقال: ارجع يا أخي إلى مكانك. فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك. فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي. أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبي بعدي.

وفي غزاة السلسلة: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وقال: إن جماعة من العرب قد اجتمعوا بوادي الرمل على أن يبيتوك بالمدينة.

فقال النبي ﷺ لأصحابه: من لهؤلاء؟

فقام جماعه من أهل الصفة وقالوا: نحن فول علينا من شئت.

فاقرع بينهم فخرجت القرعة على ثمانين رجلا منهم ومن غيرهم.

فأمر أبا بكر أن يأخذ اللواء ويمضي إلى بني سليم وهم ببطن الوادي فهزموه وقتلوا جمعا كثيرا من المسلمين وانهزم أبو بكر. فعقد لعمر وبعثه فهزموه فساء رسول الله ﷺ ذلك.

فقال عمرو بن العاص: ابعثني يا رسول الله.



فأنفذه فهزموه وقتلوا جماعه من أصحابه وبقي النبيﷺ أياما يدعو عليهم. ثم دعا بأمير المؤمنين عليه السلام وبعثه إليهم ودعا له وخرج معه مشيعا إلى مسجد الأحزاب وأنفذ جماعة معه منهم أبو بكر وعمر وعمرو بن العاص. فسار الليل وكمن النهار. فلم يشك عمرو بن العاص في الفتح له فقال لأبي بكر: إن هذه أرض ذات ضباع وذئاب وهي أشد علينا من بني سليم والمصلحة أن نعلو الوادي. وأراد إفساد الحال وأمره بأن يقول ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام فقال له أبو بكر فلم يجبه أمير المؤمنين عليه السلام بحرف واحد.

فرجع إليهم وقال: والله ما أجابني حرفا واحدا.

فقال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: امض أنت إليه فخاطبه.

ففعل فلم يجب أمير المؤمنين عليه السلام بشئ.

فلما طلع الفجر كبس على القوم. ونزل جبرئيل على النبيﷺ بالحلف بخيله فقال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾.

فاستبشر النبيﷺ واستقبل علياً عليه السلام فنزل علي عليه السلام، وقال له النبي: لولا أن أشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح لقلت فيك اليوم مقالا لا تمر بملأ منهم إلا أخذوا التراب من تحت قدميك اركب فإن الله ورسوله عنك راضيان.

كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين للمؤلف العلامة الحلي

الملحق3:

الرسول يشير إلى فضل فاطمة الزهراء عليها السلام

• قال النبي صلى الله عليه وآله: «يا فاطمة إن الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك».

• وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إنّ فاطمة شعرة مني، فمن آذى شعرة مني فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله لعنه الله ملء السماوات والأرض".

• وعن الروضة النديّة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "فاطمة روحي التي بين جنبي".

• وعن الحسن بن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فاطمة بهجة قلبي، وابناها ثمرة فؤادي وبعلها نور بصري، والأئمة من ولدها أمناء ربّي وحبله الممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بها نجا ومن تخلّف عنها هوى".

• وقال صلى الله عليه وآله: ليلة عرج بي الى السماء رأيت على باب الجنة مكتوبا: لا اله الا الله محمد رسول الله، علي حبيب الله، والحسن والحسين صفوة الله، فاطمة خيرة الله، على باغضهم لعنة الله".

• ورووا عن عبد الله بن عوف قال: سمعت رسول الله يقول:

"أنا الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرها، وشيعتنا ورقها".

• وقال ﷺ: "إنّ فاطمة خير اهل الارض عنصرا وشرفا وكرما".

• وعن سلمان الفارسي قال: قال النبي ﷺ: يا سلمان من أحبّ فاطمة فهو في الجنة معي ومن أبغضها فهو في النار، يا سلمان حبّ فاطمة ينفع في مائة من المواطن أيسر تلك المواطن الموت والقبر والميزان والحشر والصراط والمحاسبة، فمن رضيت عنه ابنتي رضيت عنه، ومن رضيت عنه رضي الله عنه، ومن غضبت عليه فاطمة غضبت عليه، ومن غضبت عليه غضب الله عليه، ويلٌ لمن يظلمها ويظلم بعلها أمير المؤمنين".

• ووقع الخلاف بين بعض أصحاب النبي ﷺ حول أحبّ الناس الى رسول الله يوماً، فكان كلّ من العباس وجعفر يظنّ أنّه أحبّ الى رسول الله ﷺ فمشوا الى رسول الله ليعرفوا ايّهم أحبّ إليه. روى الخوارزمي بسنده عن محمد بن أسامة بن زيد بن أبيه، قال: "اجتمع جعفر وعليّ وزيد بن حارثة فقال جعفر: أنا أحبّكم الى رسول الله ﷺ وقال عليّ: أنا أحبّكم الى رسول الله ﷺ قالوا: "فانطلقوا بنا الى رسول الله ﷺ فنسأله، قال أسامة: فاستأذنوا على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال: اخرج فانظر من هؤلاء، فخرجت ثم جئت فقلت: هذا جعفر وعلي وزيد بن حارثة يستأذنون فقال: أذن لهم، فدخلوا فقالوا: يا رسول الله جئنا نسألك من أحبّ الناس إليك؟ قال: فاطمة، قالوا: إنّما نسألك عن الرجال قال: علي بن أبي طالب.

• وروى المجلسي عن بعض كتب المناقب بإسناده عن أسامة قال: "مررت بعليّ والعبّاس وهما قاعدان في المسجد فقالا: يا

أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا علي والعباس يستأذنان فقال: "هل تدري ما جاء بهما؟ قلت: لا والله ما أدري، قال: لكن أدري ما جاء بهما، فأذن لهما، فدخلا فسلّما ثم قعدوا فقالا: يا رسول الله ﷺ أيّ أهلك أحبّ اليك؟ قال: فاطمة عليها السلام.

• وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "وأمّا ابنتي فاطمة، فإنّها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة مني... متى قامت في محرابها بين يديّ ربّها جلّ جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض، ويقول الله عزّ وجل لملائكته: يا ملائكتي، انظروا إلى أمتي فاطمة سيّدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أني قد آمنت شيعتها من النار..." .

من كتاب حياة الصديقة فاطمة، الشيخ محمد جواد الطبسي

الملحق4:

القرآن في معركة التحدّي

لقد تحدّى اللّه أعداء الإسلام بأن يأتوا بمثل القرآن، فلمّا عجزوا تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن، فعجزوا عن ذلك أيضا، ثم صعّد تحدّيه لهم، وطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فلو أنّهم استطاعوا أن يأتوا ولو بقدر سورة الكوثر، التي هي سطر واحد، لثبت بطلان هذا الدين الجديد من أساسه، ما دام أنه هو قد قبل بهذا التحدّي مسبقاً، ولكانوا قد وفّروا على أنفسهم الكثير من الويلات، التي أقدموا عليها بإعلانهم الحرب على النبي الأعظم ﷺ، والتي أدّت إلى إزهاق النفوس الكثيرة، وهدر الطاقات العظيمة، وغير ذلك من مصائب وكوارث، انتهت بهزيمتهم، وانتصار الإسلام وقائده الأعظم ﷺ.

فما هي تلك الخصيصة التي في القرآن، والتي جعلتهم يعجزون عن مجاراته، وحتى عن أن يأتوا بـ «سورة من مثله»؟!.

بل ما هي تلك الخصيصة التي سوّغت التحدّي بالقرآن للإنس والجن معاً دون اختصاص بزمان دون زمان، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.[الإسراء، 88]

ربما يقال: إنّها إخباراته الغيبية الصادقة، سواء بالنسبة إلى الماضين كقوله



تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[هود،49]. أو بالنسبة لتنبؤاته المستقبلية، كقوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[هود،3-1]. وكإخباره بنتائج حرب بدر العظمى، وغير ذلك.

وربما يقال: إنه لتضمن القرآن للمعارف العلمية، التي تنسجم مع العقل والبرهان. وإخباراته عن سنن الكون وأسرار الخليقة، وأحوال النظام الكوني، وغير ذلك من أمور لا يمكن الوصول إليها إلا بالعلم والمعرفة الشاملة والواسعة، الأمر الذي لم يكن متوفراً في البيئة التي عاش فيها النبيﷺ وسلم، كقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[الحجر،22] وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى دقائق وحقائق علمية، في مختلف العلوم والفنون.

وربما يقال: إن إعجازه إنما هو في نظامه التشريعي الذي جاء به، والذي لا يمكن لرجل عاش في بيئة كالبيئة التي عاش فيها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وعانى من الظروف والأحوال الاجتماعية، ومستوى الثقافة في ذلك العصر، أن يأتي بمثل ذلك مهما كان عظيما في فكره، وذكائه، وسعة أفقه.

ولربما نجد الإشارة إلى هذين الرأيين في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.[يونس، 16]

وأخيراً، فلربّما يقال: إنّ إعجاز القرآن هو في عدم وجود الاختلاف فيه، ولذلك ترى أنه قد تحداهم بذلك فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[النساء،82]. و ثمّة إشارات أخرى لجزئيات ربّما يدخل أكثرها فيما قدمناه ...

ولعلّ فيما ذكرناه كفاية. وثمة قول آخر، أكثر شيوعا ومعروفية ولا سيما بين القدماء. وهو إعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة. وقد كتبوا في هذا الموضوع الشيء الكثير قديماً وحديثا. أما نحن فنقول: إنّ هذا الأخير هو السرّ الأعظم

في إعجاز القرآن الكريم حقاً. وهو يستبطن سائر الجوانب الإعجازية المذكورة آنفاً وغيرها مما لم نذكره.

ونقصد بـ «البلاغة» معنى أوسع مما يقصده علماء المعاني والبيان، وهذا المعنى يستبطن جميع وجوه الإعجاز وينطبق عليها، وبيان ذلك يحتاج إلى شيء من البسط في البيان فنقول:

إنّه إذا كان الرسول ﷺ قد أرسل للناس حيث يجد كل فريق في هذا القرآن ما يناسب فكره وعقليّته ويراه معجزاً حقا؛ فالإخبارات الغيبية والنظام الكامل الذي أتى به وغير ذلك من أمور لا تخفى مما يمكن لأهل كل لغة أن يدركوها هي من مصاديق البلاغة لهم. وحتى الفصاحة والبلاغة فإنّ بالإمكان لغير العربي أن يدركها أيضا بتعلّم اللغة العربية ومعرفة سرّ القرآن أو الاعتماد على النقل القطعي ممن قد إطلع على بعض جوانب إعجاز القرآن كافة، فلا بدّ أن تكون معجزته بحيث يستطيع كل من واجهها أن يدرك إعجازها، وأنها أمرٌ خارق للعادة وأنها صادرة عن قدرة عليا، وقوة قاهرة، تهيمن على النواميس الطبيعية، وتقهرها. وإلا فإنّه إذا جاء شخص مثلاً إلى بلد، وادعى أنه يعرف اللغة الفلانية، ولم يكن أحد في البلد يعرف شيئاً من تلك اللغة، ولا سمع بها، فإنّهم لا يستطيعون أن يحكموا بصدقه ولا بكذبه، إذ ليس لهم طريق لاثبات هذا الصدق أو الكذب.

وأما إذا ادعى أمراً لهم خبرة فيه، واستطاعوا أن يتلمّسوا فيه مواقع خرقه للنواميس الطبيعية فلا بدّ لهم من التسليم له والقبول بدعوته، لأنّ ذلك يكون قاطعاً لعذرهم، و موجبا لخضوع عقولهم لما يأتي به.

وبكلمة.. لا بد أن تكون معجزة النبي في كل عصر متناسبة مع خبرات ذلك العصر، ولكل من أرسل إليهم؛ ليمكن إثبات إعجازها لهم، وإقامة الحجة عليهم. وإذا كان القرآن قد تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فلا بد أن يكون وجه الإعجاز فيه ساريا ليصل حتى إلى أصغر سورة فيه.



و إذا نظرنا إلى ما ذكروه آنفا، فإننا نجد أن بعض السور لا تشتمل على شيء مما ذكروه، مع ان التحدي به وارد.

أضف إلى ذلك: أنَ الإخبار بالغيب مثلاً لا يمكن أن يكون قاطعاً لعذر من ألقي إليهم إلا بعد تحقق المخبر عنه. وقد يطول ذلك إلى سنوات عديدة. أما من يأتون بعد ذلك فلربَما يصعب عليهم الجزم بتحقق ما أخبر به.

أما القضايا العلمية فلربّما لا يكون من بينهم من له الخبرات اللازمة في تلك العلوم؛ ليمكن إدراك الإعجاز فيها؛ فإنّ ذلك رهن بتقدّم العلم، وتمكن العلماء من استجلاء تلك الحقائق من القرآن.

وحتى لو أدرك ذلك بعضهم، فلربما يحمله اللجاج، أو غير ذلك من مصالحه الشخصية (بنظره) على إنكار ذلك وإخفائهِ كما كان الحال بالنسبة الى أهل الكتاب، الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه و آله وسلم كما يعرفون أبناءهم، ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

ولكن الأحبار والرهبان أخفوا ذلك وأنكروه، لمصالح شخصية، أو لغير ذلك، مما وجدوا فيه مبرراً للإقدام على خداع أنفسهم، وخداع غيرهم. وهكذا يقال بالنسبة للإعجاز التشريعي، وغير ذلك من أمور.

ويبقى سؤال: ما هو وجه الإعجاز في القرآن إذن؟

وفي مقام الإجابة على هذا السؤال نقول: بلاغة القرآن.

وقبل كل شيء ينبغي التذكير بأنّ ما ذكرناه آنفا لا يعني أن الإخبار بالغيب، وغير ذلك مما ذكرناه، ومما لم نذكره، غير موجود في القرآن. بل هو موجود فيه بأجلى مظاهره وأعظمها، وهي معجزات أيضا لكل أحد ولكننا نقول: إنّ ذلك ليس هو الملاك الأول والأخير لإعجاز القرآن، وإنما ملاك الإعجاز فيه هو أمر يستطيع كل أحد أن يدركه، وأن يفهمه وهو أمر تشتمل عليه حتى السورة التي لا تزيد على السطر الواحد، كسورة الكوثر مثلا. وهو أيضاً أمر يجده كلّ أحد، مهما كان تخصّصه، ومهما كان مستواه الفكري، وأيا كان نوع ثقافته، وفي

أي عصر، وفي أيّ ظرف.

وأما كيف عجزت الإنس والجن، عن مجاراة هذا القرآن. وكيف أمكن اعتبار البلاغة القرآنية هي سرّ الإعجاز فيه؛ فإن ذلك يحتاج إلى توسّع في القول، وبسط في البيان، فنقول:

إنّ لدلالة الكلام على المعنى في مقام التفهم والتفهيم شروطا:

منها: أن يكون اللفظ الذي يلقيه المتكلم قادراً على تحمّل المعنى المطلوب، بأيّ نحو من أنحاء التحمل، سواء من حيث مفردات الجملة، أو من حيث نوعية تركيبها، أو من جهة المقايسة بينها وبين غيرها.

ومنها: أن يكون المستوى الفكري والثقافي للمتكلّم بحيث يستطيع أن يقصد تلك المعاني التي يقدر اللفظ على تحمّلها.

ومنها: أن يكون ذلك المعنى منسجماً أيضاً مع نوعية اختصاص ذلك المتكلم، ومع مراميه وأهدافه.

ومنها: قدرة المخاطب أو المخاطبين على استيعاب مقصود المتكلم، ولو على امتداد الزمن.

هذه هي الشروط التي لا بدّ أن تتوفّر في عملية التفهم والتفهيم بين كل متكلم ومخاطب.

ولكن ذلك يحتاج إلى توضيح وتطبيق بالنسبة لما نحن بصدده، فنقول:

إنّ اللغة العربية بما لها من خصائص ومميزات أقدر اللغات إطلاقاً على تحمّل المعاني، فنجد أنهم يذكرون للجملة المؤلفة من كلمتين فقط عشرات الخصائص والمميزات التي تشير كلّ منها إلى العديد من الآثار المحتملة، التي يمكن للفظ أن يتحمّلها بالنسبة للمعنى المدلول، حتى إنهم ليذكرون العديد من الإمتيازات لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ على ما كان أبلغ كلام عند العرب، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل».

ولا بدّ أيضا من معرفة خصوصيات الألفاظ و أسرار اختياراتها لمواقعها. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء،98]، قال إبن الزبعري: فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى عليه السلام، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا ويل أمّه، أما علم أنّ ما لما لا يعقل، ومن لمن يعقل.

هذا، ولقدرة اللغة العربية على تحمّل المعاني الدقيقة والعميقة، نجد أن الله تعالى قد اختارها لتكون لغة القرآن، وقد نوّه بذلك، ووجّه إليه الأنظار والافكار، ودعا الى استخلاص المعاني الدقيقة من كتابه الكريم فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف،2] وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت،3] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.[الشعراء،195 -193] إلى غير ذلك من الآيات؛ فلننظر بدقة إلى قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وإلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وإلى قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ فإنّه كلّه يشير الى ما ذكرنا.

العلامة السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم

الملحق5:

النبي ويهود الجزيرة العربية

تنتشر بين اليهود أفكار العنصرية، والإعتقاد بالتفوق والعلو على البشر كافة. فالناس بحسب هذه النظرة، لا قيمة لهم ولا اعتبار... كل الناس يجب أن يكونوا في خدمتهم، وتحت سلطتهم، كما يذكرون في تلمودهم.

فقد جاء في نسخ من التلمود ما ملخصه: أن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. وأن اليهودي جزء من الله. ومن ضرب يهوديا فكأنه ضرب العزة الإلهية. والشعب المختار هم اليهود فقط... ويعتبر اليهود غير اليهود أعداء لهم، ولا يجيز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم. ويلزم التلمود الإسرائيليين بأن يكونوا دنسين مع الدنسين. ويمنع من تحية غير اليهودي إلا أن يخشوا ضررهم، ولا يجيزون الصدقة على غير اليهودي. ويجوز لهم سرقة ماله، وغشه، كما أن على الأمميين أن يعملوا، ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل. ولا يجوز لليهودي الشفقة على غيره. ويحرم على اليهودي أن ينجي غيره إلى آخر ما هنالك.

وقد نعى الله تعالى عليهم هذه النظرة السيئة، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[المائدة:18].

وقد اشتهر عن اليهود أيضا النزعة المادية، والفكر الذي يمجد جمع المال وحبّه حبا جما، ولأجل ذلك لا ينبغي أن نستغرب إذا رأينا: أن ارتباطهم بالناس مصلحي ونفعي، وأن المال واللذة هما المنطق السائد في الموقف، والمقياس للحق وللباطل عندهم. كل ذلك بعد أن جرت عملية تحريف واسعة للقيم المعنوية في اليهودية، وانتصار النزعة الدنيوية والفكر المادي. فالمشكلة لا تكمن في عنصرهم أو جيناتهم، ولا في موروثاتهم، بل في ما حصل من انتصار التفسير المادي والظاهري والدنيوي للنص الديني على التيار الروحي والمعنوي عندهم. ومن الطبيعي أن يتم تسليط الضوء على اليهود وهم أقلية شديدة الفاعلية والتأثير في محيطها فتبرز بذلك سيئاتهم وتصبح سمة بارزة في تقييمهم والنظر إليهم. وتصبح المشكلة أن نخفي سيئاتنا برميها على قوم آخرين.

أكثر اليهود لا يعيشون الإيمان الواقعي بالحياة الآخرة: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[البقرة: 96]

ولعلّ سر ذلك يعود إلى أن توراة اليهود المحرّفة الحاضرة لم تشر بشكل واضح إلى البعث والقيامة، وإنما ورد حديث عن الأرض السفلى، والجب التي يهوي إليها العصاة، ولا يعودون «وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد».

ويعتقد أكثرهم أن الله سيغفر لهم كل ما يرتكبونه من جرائم وعظائم، فقط لأنهم من عنصر معين أو شعب محدد. دون الإشارة إلى معنى رحمة الله وقانون العفو الإلهي وشروطه؛ وهذا ما شجعهم على الفساد والإنحراف، والإمعان في المنكرات والجرائم.

وقد ردّ الله تعالى على عقيدتهم هذه، حينما قال: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأعراف: 169 - 168]

من أسباب العداء للإسلام:

بدأ قسم كبير من اليهود يحاربون الإسلام من أول يوم ظهوره، وكانوا وما زالوا يحقدون عليه، رغم أنهم كانوا أول من بشّر بظهور النبي الأعظمﷺ، مستندين في بشاراتهم تلك إلى الدلائل القاطعة التي يجدونها في كتبهم. ونستطيع أن نذكر من أسباب عدائهم للمسلمين وللإسلام:

1. إنهم قد وجدوا أن هذا النبي يدعو الناس إلى دين هو نظام كامل وشامل للحياة؛ لا ينسجم مع أطماعهم، ومع ما ألفوه وأحبوه، بل رأوه يتنافى مع مصالحهم، ومع نظرتهم للكون، وللحياة، وللإنسان.

2. حسدهم للعرب أن يكون النبي الذي تعد به توراتهم منهم، ليس إسرائيليا، وقد أشار إلى ذلك تعالى فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: 90 89].

3. ثم إنهم قد رأوا أن هذا الدين يبطل مزاعمهم، ويقضي على اليهودية المحرّفة، وعلى أحلام بني إسرائيل وقد أبطل أسطورتهم في دعواهم التفوق العلمي، وأظهر كذبهم في موارد كثيرة، وتبين لهم أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

في مواجهة الإسلام وطريقة تعامل الرسول معهم

لقد حاول زعماء اليهود مواجهة المدّ الإسلامي الكاسح بكل ما لديهم من قوّة وحول. ونذكر هنا بعض ما يرتبط بالأساليب والطرق التي حاولوا الإستفادة منها في هذا السبيل:

1. قد أشار الجاحظ إلى أنهم: «شبّهوا على العوام، واستمالوا الضعفة، ومالأوا الأعداء والحسدة، ثم جاوزوا الطعن، وإدخال الشبهة إلخ». نعم، لقد حاولوا تشكيك العوام، وضعاف النفوس بالإسلام، وكانوا يرجّحون لهم البقاء على الشرك.

بالإضافة إلى ممالأتهم للذين وترهم الإسلام، أو وقف في وجه مطامعهم وطموحاتهم اللامشروعة واللاإنسانية. ونذكر مثلا على ذلك: ما جاء في الروايات من أن الناس يعتبرون أن من علامات الحق أن لا يرجع عنه من يقتنع به، فإذا رجع عنه فلا بدّ أن يكون ذلك لأجل أنه وجد فيه ضعفا، أو نقصا، ولذلك نجد ملك الروم يسأل أبا سفيان أحد ألدّ أعداء محمدﷺ: «هل يرجع عن الإسلام من دخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا».

وقد حاول اليهود أن يتبعوا نفس هذا الأسلوب. وقد حكى الله تعالى عنهم هذا الأمر، فقال: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[آل عمران، 72]

"وفي قوله: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ ﴾: قال الحسن والسدي: تواطأ أحد عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرنية وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل الكتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينه إلى دينكم وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: كان هذا في شأن القبلة لما حوّلت إلى الكعبة وصلّوا، شقّ ذلك على اليهود فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بما أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلّوا إليها وجه النهار وارجعوا إلى قبلتكم آخره لعلّهم يشكّون." [بحار الأنوار]

2. طرح الأسئلة الإمتحانية على النبيﷺ بهدف تعجيزه: ويلاحظ أن هذه المحاولات كانت تبذل من قبل مختلف قبائلهم: قريظة، النضير، قينقاع، ثعلبة

إلخ. ولكن محاولاتهم هذه قد باءت بالفشل الذريع. بل لقد ساهم ذلك بشكل فعال في تجلّي ووضوح تعاليم الإسلام، وترسيخها، وقد دفعهم فشلهم هذا إلى أن يطلبوا من النبيﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[النساء:153]

ثم تمادوا في العناد واللجاج، إلى ما هو أبعد من ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقرة: 118]. فإن سياق الآيات ظاهر في أن اليهود هم الذين قالوا ذلك.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وجاء قَوْمٌ من الْيهود إلى رسول اللهﷺ فقالوا: يا محمّد هذه الْقبْلة بيْت الْمقْدس قدْ صلّيْت إليْها أرْبع عشْرة سنةً ثمّ تركْتها الْآن، أفحقّاً كان ما كنْت عليْه فقدْ تركْته إلى باطل فإنّما يخالف الْحقّ الْباطل؟ أو باطلًا كان ذلك فقدْ كنْت عليْه طول هذه الْمدّة فما يؤْمننا أنْ تكون الْآن على باطل؟ فقال رسول اللهﷺ: بلْ ذلك كان حقّاً وهذا حقٌّ، يقول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذا عرف صلاحكمْ يا أيّها الْعباد في اسْتقْبال الْمشْرق أمركمْ به، وإذا عرف صلاحكمْ في اسْتقْبال الْمغْرب أمركمْ به، وإنْ عرف صلاحكمْ في غيْرهما أمركمْ به، فلا تنْكروا تدْبير الله في عباده وقصْده إلى مصالحكمْ، ثمّ قال رسول اللهﷺ: قدْ تركْتم الْعمل يوْم السّبْت، ثمّ عملْتمْ بعْده سائر الْأيّام أفتركْتم الْحقّ إلى الْباطل والْباطل إلى حقٍّ؟ أو الْباطل إلى باطل أو الْحقّ إلى حقٍّ؟ قولوا كيْف شئْتمْ فهو قوْل محمّدﷺ وجوابه لكمْ، قالوا: بلْ ترْك الْعمل في السّبْت حقٌّ، والْعمل بعْده حقٌّ، فقال رسول اللهﷺ: فكذلك قبْلة بيْت الْمقْدس في وقْته حقٌّ، ثمّ قبْلة الْكعْبة في وقْته حقٌّ؛ فقالوا: يا محمّد أفبدا لربّك فيما كان أمرك به بزعْمك من الصّلاة إلى بيْت الْمقْدس حين نقلك إلى الْكعْبة؟ فقال رسول اللهﷺ: ما بدا له عنْ ذلك فإنّه الْعالم بالْعواقب والْقادر على الْمصالح لا يسْتدْرك على نفْسه غلطاً ولا يسْتحْدث رأْياً يخالف الْمتقدّم جلّ



عنْ ذلك، ولا يقع أيْضاً عليْه مانعٌ يمْنعه عنْ مراده، وليْس يبْدو إلّا لمنْ كان هذا وصْفه وهو عزّ وجلّ متعالٍ عنْ هذه الصّفات علوّاً كبيراً، ثمّ قال لهمْ رسول الله ﷺ: أيّها الْيهود أخْبروني عن الله أليْس يُمْرض ثمّ يصحّ ويصحّ ثمّ يمْرض أبدا له في ذلك؟ أليْس يحْيي ويميت؟ أليْس يأْتي باللّيْل في أثر النّهار ثمّ بالنّهار في أثر اللّيْل؟ أبدا له في كلّ واحد منْ ذلك؟ قالوا: لا. قال فكذلك الله تعبّد نبيّه محمّداً ﷺ بالصّلاة إلى الْكعْبة بعْد أنْ تعبّده بالصّلاة إلى بيْت الْمقْدس وما بدا له في الْأوّل؛ ثمّ قال: أليْس الله يأْتي بالشّتاء في أثر الصّيْف والصّيْف في أثر الشّتاء؟ أبدا له في كلّ واحد منْ ذلك؟ قالوا: لا. قال: فكذلك لمْ يبْد له في الْقبْلة. قال ثمّ قال: أليْس قدْ أَلْزمكمْ في الشّتاء أنْ تحْترزوا من الْبرْد بالثّياب الْغليظة وأَلْزمكمْ في الصّيْف أنْ تحْترزوا من الْحرّ؟ فبدا له في الصّيْف حتّى أمركمْ بخلاف ما كان أمركمْ به في الشّتاء؟ قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: فكذلك تعبّدكمْ في وقْت لصلاح يعْلمه بشيْء ثمّ بعْده في وقْت آخر لصلاح آخر يعْلمه بشيْء آخر، فإذا أطعْتم الله في الْحالين اسْتحْققْتمْ ثوابه وأنْزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أيْ إذا توجّهْتمْ بأمْره فثمّ الْوجْه الّذي تقْصدون منْه الله وتأْملون ثوابه ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله أنْتمْ كالْمرْضى والله ربّ الْعالمين، كالطّبيب فصلاح الْمرْضى فيما يعْلمه الطّبيب ويدبّره به لا فيما يشْتهيه الْمريض ويقْترحه ألا فسلّموا لله أمْره تكونوا من الْفائزين فقيل له يا ابْن رسول الله: فلم أمر بالْقبْلة الْأولى؟ فقال: لمّا قال الله عزّ وجلّ وما جعلْنا الْقبْلة الّتي كنْت عليْها وهي بيْت الْمقْدس إلّا لنعْلم منْ يتّبع الرّسول ممّنْ ينْقلب على عقبيْه إلّا لنعْلم ذلك منْه موْجوداً بعْد أنْ علمْناه سيوجد ذلك إنّ هوى أهْل مكّة كان في الْكعْبة فأراد الله أنْ يبيّن متّبع محمّد ﷺ منْ مخالفه باتّباع الْقبْلة الّتي كرهها ومحمّدٌ ﷺ يأْمر بها ولمّا كان هوى أهْل الْمدينة في بيْت الْمقْدس أمرهمْ مخالفتها والتّوجّه إلى الْكعْبة ليتبيّن منْ يوافق محمّداً ص فيما يكْرهه فهو مصدّقه وموافقه ثمّ قال وإنْ كانتْ لكبيرةً إلّا على الّذين هدى الله إنّما كان التّوجّه إلى بيْت الْمقْدس في ذلك الْوقْت كبيرةً إلّا على منْ يهْدي الله فعرف أنّ الله يتعبّد بخلاف ما يريده الْمرْء ليبْتلي طاعته في

مخالفته هواه [مستدرك الوسائل]

3. ولما فشلوا في محاولاتهم محاربة الإسلام على صعيد الفكر، اتجهوا نحو أسلوب الضغط الإقتصادي على المسلمين: فيذكرون أن رجالا من أهل الجاهلية باعوا يهودا بضاعة، ثم أسلموا وطلبوا من اليهود دفع الثمن فقالوا: ليس علينا أمانة، ولا قضاء عندنا؛ لأنكم تركتم دينكم الذي كنت عليه، وادّعوا: أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. فجاء في الآية المباركة الرد عليهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: 75]

وأيضا فقد رفض رؤساء اليهود أن يقرضوا المسلمين مالا في أول عهدهم في المدينة، وقد كانوا في ضنك شديد، فالمهاجرون فقراء لا مال لهم، والذين دخلوا في الإسلام من أهل المدينة لم يكونوا على سعة من الرزق. وقد أجابوا رسول الله حينما طلب منهم القرض بقولهم: أحتاج ربكم أن نمدّه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾[آل عمران: 181]

4. ممالأة أعداء الإسلام ومساعدتهم بكل ما أمكنهم، ولو بالتجسس، وبغير ذلك من وسائل.

5. محاربة الإسلام أيضا عن طريق إثارة الفتن بين المسلمين: ولا سيما بين الأوس والخزرج، وبين المسلمين والمشركين.

- ففيما كان نفرُ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه إذ مرّ عليهم «شاس بن قيس» وهو يهوديُ شديد العداء للإسلام، عظيمُ الكفر، فغاظه ما رأى من اُلفة الأوس والخزرج، واجتماعهم وتوادُدهم، وصلاح ذاتَ بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة الطويلة في الجاهلية، فأمر فتى من يهود كان معهم فقال له: اعمد

إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يومَ بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعضَ ما كانوا تقاولوا وتبادلوا فيه من الأشعار!! إيقاعا بين هاتين الطائفتين من الأنصار، وإثارة لنيران الأحقاد الدفينة، والعداوات الغابرة. ففعل ذلك الغلامُ اليهوديُ ما أمره به «شاس» فتكلمَ القومُ عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، وتواثبَ رجلان من القبيلتين على الرُكَب وأخذ كل منهما يهدّدُ الآخر، وتفاقم النزاعُ، وغضب الفريقان وتصايحا، وقاما إلى السلاح وكاد أن يقع قتالُ ودمُ بعد أن ارتفعت النداءات القبلية بالاستغاثة والاستنجاد على عادة الجاهلية فبلغ ذلك رسول اللهﷺ وعرف بمكيدة اليهود، ومؤامرتهم الخبيثة هذه، فخرج إلى تلك الجماعة المتصايحة من الأوس والخزرج في جمع من أصحابه المهاجرين فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بينَ أظهُركُم بَعدَ أن هَداكُم للإسلام، وأكرَمَكُم به، وقطع به عنكم أمرَ الجاهليّة، واستَنقذكُم به من الكُفر، وألَّف بينَ قُلُوبكُم؟؟».

فعرف القومُ أنها مؤامرة مبيَّنة من اليهود أعداء الإسلام والمسلمين، وكيدُ خبيثُ منهم، فندموا على ما حدث، وبكَوا وعانَق الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً، ثم انصَرفوا مع رسول اللهﷺ سامعين مطيعين، وأطفأ الله عنهم كيدَ أعدائهم.

ويقول البعض: إن الآيات الشريفة التالية قد نزلت في هذه المناسبة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 99-101]

6. تآمرهم على حياة النبي الأعظمﷺ وتحريضهم الناس عليه.

- وَصلَ نبأ انتصار المسلمين في معركة «بدر» عن طريق رجلين من المسلمين.

ولم يكن الجيش الإسلامي الظافر قد وصل إلى المدينة بعد، عندما انزعج «كعب بن الاشرف» الذي كانت أمه من يهود «بني النضير» وكان شاعراً قوياً، وخطيباً بارعاً من الفتح الذي أصابه النبيّ ﷺ والمسلمون في «بدر» فقال: والله لئن كان محمّد أصاب أضراف العرب وملوك الناس (ويعني سادة قريش وصناديدهم الذين قتلوا في بدر على أيدي المسلمين) لبطنُ الأرض خير من ظهرها!! وبدأ يبث الأكاذيب والشائعات في المدينة ومضى يشكك في انتصارات المسلمين في بدر. وقد كان يسيء إلى رسول الله ﷺ في قصائده حتى قبل معركة «بدر» ويحرّض الناس على المسلمين. ثم إنه لما تيقّن الخبر خرج حتى قدم مكة وجعل يحرّض قريشاً على رسول الله ﷺ، وقد أنشد في هذا المجال أشعاراً يبكي فيها أصحاب القليب من قريش وقد ذكرتها المصادر التاريخية. ثم رجع كعب هذا إلى المدينة فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم!! ولا شك أنه بهذه المواقف المعادية كان من أظهر مصاديق المفسد في الأرض، الأمر الذي آل إلى أن يقرّر رسول الله ﷺ التخلص منه، وكفاية المسلمين شرّه، وقد أوكل هذه المهمة الصعبة إلى «محمد بن مسلمة».

7. محاولات إثارة البلبلة، وتشويش الأوضاع، بإشاعة الأكاذيب، وتخويف ضعاف النفوس من المسلمين.

8. تآمرهم مع المنافقين على الإسلام، ومكرهم معهم بالمسلمين، ثم علاقاتهم المشبوهة مع قريش، وممالأتهم إياها على حرب الرسول الأكرم ﷺ.

- في معركة أُحد

لما سمع رسول الله ﷺ باقتراب قريش الى المدينة وقف في



تلك الشورى التي كانت جمعاً كبيراً من صناديد أصحابه، وقادة جيشه وجنوده وقال بصوت عالٍ: «أشيروا عليّ». فقيل أن «عبد الله بن ابي بن سلول» وكان من منافقي المدينة، قام وطرح فكرة التحصّن في داخل المدينة، والقتال فيها على غرار حرب الشوارع.

أخذ رسول الله ﷺ برأي الأكثرية التي كانت ترجح الخروج من المدينة لمقاتلة العدوّ، ورجح هو ﷺ البقاء في المدينة وقتال العدو داخلها، إذ لم يكن من الصالح بعد ما اقترحه قادة جيشه البارزين مثل حمزة، وسعد بن عباده ونظرائهم، وأصروا عليه أن يأخذ برأي عبد الله بن أبي بن سلول المنافق.

ثم إن جماعة من اليهود كانوا متحالفين مع عبد الله بن أبي بن سلول قرّروا أن يشتركوا في هذه المعركة ويخرجوا مع المسلمين، ولكن النبيّ ﷺ لم يسمح بذلك لأسباب خاصة.

وسار النبيّ وأصحابهُ حتى إذا كانوا بمنطقة بين المدينة وأُحُد تسمى «الشوط» انعزل عنه «عبد الله بن أبيّ بن سلول» وعاد بثلث الناس كلهم من الأوس المتحالفين معه إلى المدينة بحجة أنّ رسول الله ﷺ أخذ برأي الفتية والشباب، ورفض اقتراحه وهو البقاء في المدينة.

9. تآمرهم ومكرهم وتدبيرهم لمنع المسلمين من الخروج للحرب، وكانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، لأجل تثبيط الناس عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فعرف رسول الله ﷺ بهم، وقيل أنه ﷺ أحرق البيت عليهم.

- **بنو قينقاع**

كانت معركة «بدر» بمثابة طوفان شديد ضدّ الوثنية في قلب شبه الجزيرة العربية. طوفان اقتلع بعض جذور الوثنية العريقة، فقد قُتِلَ طائفة من صناديد قريش، وأُسرت أُخرى

وهرب الباقون بمنتهى الذل والصغار، وانتشر خبر هزيمة جيش قريش المتغطرس في جميع أنحاء وربوع الجزيرة العربية. وكانت مخاوف القبائل الوثنية، ويهود يثرب الاثرياء ويهود خيبر ووادي القرى تزداد يوماً بعد يوم من تقدم الاسلام المطّرد، وتعاظم شوكته، واشتداد أمر حكومته الفتية، وكان جميع هؤلاء يجدون مستقبلهم مهدداً بخطر جديّ، وكان يهود بني قينقاع الذين يقطنون داخل المدينة، ويمسكون بخيوط اقتصادها، أشدَّ خوفاً من غيرهم، واكثر قلقاً على مستقبل أمرهم، لأنهم كانوا يخالطون المسلمين مخالطة كاملة وكان وضعهم يختلف عن وضع يهود خيبر ووادي القرى الذين كانوا يعيشون خارج المدينة بعيداً عن مركز قوة المسلمين ومنطقة حاكميتهم!! من هنا بدأ يهود بني قينقاع قبل غيرهم من طوائف اليهود النازلة في تلك الديار بتدبير المؤمرات، وممارسة الأعمال المؤذية ضدّ المسلمين والقيام بالحرب الإعلامية ضدّهم، وذلك بنشر الأكاذيب وبثّ المعلومات الكاذبة، واطلاق الشعارات القبيحة، وانشاد القصائد التي من شأنها الاساءة الى المسلمين وتحقيرهم، وتخريب معنوياتهم.

وبهذا يكون جمع اليهود قد بدأوا عمليّاً بنقض معاهدة التعايش السلمي، والتي عقدها رسول الله ﷺ معهم في أبان قدومه المدينة.

فلم يكن من مصلحة الإسلام والمسلمين تفجير الموقف في عاصمة الإسلام، يومئذ. ولهذا وبغية إتمام الحجة على يهود بني قينقاع وقف رسول الله ﷺ ذات يوم في سوقهم بعد أن جمعهم فيه ثم قال لهم: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزلَ بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتُم أني رسول الله (أو أني نبي مرسَل) تجدون ذلكَ في كتابكم وعهد الله اليكم». وهنا نزل قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * قَدْ كَانَ



لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[آل عمران: 12،13]

ولكن اليهود المغرورين المتكبرين لم يشكروا نصيحة النبي هذه أو يسكتوا حسب، بل ردوا عليه بعناد ولجاج وصلافة قائلين: يا محمّد انك ترى أنا قومك لا يغرنّك أنك لقيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة، إنا والله ولئن حاربناك لتعلمنَّ أنّا نحن الناس (أو أنّا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمنَّ أنك لم تقاتل مثلنا)!!

ولم يقنع هؤلاء بضرورة تغيير مواقفهم، والتخلي عن مؤامراتهم وخططهم الإيذائية ضد النبيّ ﷺ والمسلمين.

وحدث أن جاءت امرأة من العرب إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ تبيع حلياً لها أو تشتري، وكانت تبالغ في ستر وجهها عن اليهود، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت فعمد رجلُ من يهود بني قينقاع إليها وجلس من ورائها، وهي لا تشعر فعقد أسفل ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت المرأة بدت عورتها، فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين إلى ذلك الرجل اليهودي فقتله، فاجتمعت بنو قينقاع، وشدّوا على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم القتيل المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون غضباً شديداً. تسبّب انتشارُ هذا الخبر (أي مقتل رجل مسلم واحد على أيدي مجموعة كبيرة من الرجال بصورة مفجعة) في إثارة المسلمين ونفاد صبرهم، ودفعهم إلى العزم على حسم الموقف حسماً كاملاً وبالتالي هدم قلعة الفساد على رؤوس أصحابها القتلة. فأحسّ «بنو قينقاع» بخطر الموقف، وأدركوا انه لم يعد من الصالح أن يبقوا في أسواقهم، ويواصلوا البيع والشراء. من هنا تركوا أسواقهم بسرعة، وعادوا إلى قلاعهم المحصّنة، وتحصّنوا فيها.

فأمر رسول الله ﷺ بمحاصرتهم،ومنع من دخول أيّ إمداد إليهم، كما منع من اتصالهم بأي أحد خارج حصونهم. فحاصرهم في حصونهم خمس عشرة

ليلة أشدّ الحصار، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، وفقدوا القدرة على المقاومة، ورضوا بأن ينزلوا عند حكم النبيّ ﷺ فيهم!!

وقيل أن النبيّ ﷺ انصرف عما كان يريد من تأديبهم الشديد، وعقوبتهم على كره منه؛ ولكنه أمر بأن يجُلوا من المدينة، ولا يبقوا فيها شريطة أن يتركوا أسلحتهم، وأموالهم، ودروعهم.

فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ وكلّف رسول الله ﷺ أحد المسلمين بقبض أموالهم وأسلحتهم، وكّلف «عبادة بن الصامت» بإجلائهم من حصونهم فعجلّ عبادة في ترحيلهم وإجلائهم. فخرجوا من المدينة ولحقوا بمنطقة تدعى «أذرعات» وهي بلد في أطراف الشام. وبإجلاء «بني قينقاع» عادت الوحدة السياسية إلى المجتمع في المدينة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: 51، 53).

الاستجابة لابن أبي:

وإن استجابة النبي ﷺ لابن أبي في بني قينقاع، كانت تهدف إلى الحفاظ على الجبهة الداخلية من التصدع. ولولا ذلك فلربما كان ينتهي الأمر إلى النزاعات المكشوفة، والمواجهات العلنية، الأمر الذي لم يكن في صالح الإسلام والمسلمين في تلك الفترة؛ فإن الإبقاء على العلاقات الحسنة مع المنافقين في تلك الظروف كان أمرا ضروريا؛ لكسب أكبر عدد منهم في المستقبل، عن طريق التأليف والترغيب، وكذلك من أبنائهم، ثم توفير الطاقات لعدو أشدّ وأعتى. كما أن إجلاء بني قينقاع، كما يعتبر ضربة روحية ونفسية لغيرهم من اليهود المعاندين، كذلك هو يعتبر إضعافا لابن أبي ومن معه من المنافقين. فخسران



الأعداء متحقق على كل تقدير.

وأما لماذا لم يهبّ عامّة اليهود لنصرة بني قينقاع، فإن ذلك يرجع إلى أنه قد كان بينهم عداوة، وذلك لأن اليهود كما قال ابن إسحاق: «كانوا فريقين، منهم بنو قينقاع ولفهم، حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة ولفّهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم. وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان: لا يعرفون جنة، ولا نارا، ولا بعثا، ولا قيامة، ولا كتابا، ولا حلالا، ولا حراما.

بعض أهداف ونتائج حرب بني قينقاع:

إن حرب المسلمين لبني قينقاع، وهم أشجع اليهود، وأكثرهم مالا، والقضاء عليهم معناه:

1. إنه ﷺ لا يريد أن يفسح المجال لهم كما يقول العلامة الحسني لأن «يطمعوا به، ويكتلوا حولهم من يشاركهم الرأي من المنافقين والأعراب»، لأن صبر النبي ﷺ عليهم، وأمره للمسلمين بالتحمل مهما أمكن، جعل اليهود يظنون: أن هذا ناتج عن ضعف وخور؛ فاستمروا في تحرشاتهم «1».

2. أن يسهل القضاء على الآخرين من الأعداء، ممن هم أقل منهم قوة وعددا، وعدة ومالا، لأنهم إذا رأوا: أن أصحاب الشوكة لم يستطيعوا أن يأتوا بشيء، فإنهم سوف يقتنعون بأنهم وهم الأضعف أولى أن لا يأتوا بشيء أيضا.

3. إن ما غنمه المسلمون من بني قينقاع، من شأنه أن يزيد من طموح عدد من الناس من المسلمين للقضاء على أعدائهم، ويسهّل عليهم الوقوف في وجههم؛ حيث يرتاح بالهم من جهة معاشهم،

ولا يبقى ما من شأنه أن يثير مخاوفهم، ويستبد بتفكيرهم.

4. كما أن ذلك: إنما يعني التخلص من عدو داخلي، يعرف مواضع الضعف والقوة، وربما يكون أخطر من العدو الخارجي بكثير.

5. ثم إن القضاء على اليهود كان يتم على مراحل، وذلك بطبيعة الحال أسهل وأيسر من القضاء عليهم، فيما لو كانوا مجتمعين، دفعة واحدة، وفي صعيد واحد، يعين بعضهم بعضا، ويشد بعضهم أزر بعض.

6. والمسلمون أيضا، إذا رأوا أنفسهم قد استطاعوا القضاء على أشجع اليهود، وأكثرهم قوة ونفوذا، فإنهم سوف يتشجعون للقضاء على من سواهم، ولا يبقى مجال للخوف ولا للتردد.

- **غزوة «بني النضير»**

عمّ الفرح بين منافقي المدينة ويهودها بانتكاسة المسلمين في معركة «أحد» وباتوا يتحيّنون الفرصة لإثارة القلاقل والفتن في المدينة لإفهام القبائل خارجها بأنه لا توجد أية وحدة سياسيّة وانسجام اجتماعيّ في مركز الإسلام، وعاصمة الحكومة الإسلامية، وأن في مقدور الأعداء الخارجيين أن يُجهزوا على حكومة الإسلام الفتية، ويقضوا عليها بسهولة!!

ولكي يقف رسول اللهﷺ على نوايا ودخائل يهود بني النضير مشى في جماعة من أصحابه إلى حصنهم. على أن الهدف الظاهري المعلَن عنه كان هو الاستعانة بهم في دية العامريّين اللذين قتلا خطأ على يد «عمرو بن اُميّة»، وذلك بموجب الاتفاقيّة المعقودة بين رسول اللهﷺ وبين اليهود وكذا بني عامر وغيرهم والقاضية بالتعاون معاً في تسديد الدية في

مثل هذه الموارد.

فلما وصل رسول اللهﷺ إلى حيث يسكن بنو النضير، وكلّمهم في أن يعينوه في تلك الدية، رحبوا به ظاهراً، ووعدوا بأن يلبّوا مطلبه، ثم إنهم خاطبوه قائلين: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم دعوه إلى أن يدخل في بيوتهم، ويقضي يومه فيها، قائلين: قد آن لك أن تزورنا، وأن تأتينا، اجلس حتى نطعمك، فلم يقبل رسول اللهﷺ بتلبية مطلبهم، بل جلس مستنداً إلى جدار بيت من بيوتهم واخذ يكلمهم.

ثم إن رسول اللهﷺ أحس بشرٍ من ذلك الترحيب الحارّ الذي قابلته به رجال بني النضير، والذي رافق حركات مشبوهة منهم!! هذا مضافاً إلى أنه ﷺ شاهدهم وقد خلا بعضهم إلى بعض يتناجون ويتهامسون الأمر الذي يدعو إلى الشك، ويورث سوء الظن!!

وقد كان سوء الظن هذا في محله، فقد قرر سادتهم لمّا أتاهم رسول اللهﷺ في رهط قليل من أصحابه أن يتخلصوا منه باغتياله والغدر به على حين غفلة منه ﷺ، فانتدبوا أحدهم وهو «عمرو بن جحاش» لتنفيذ هذه الجريمة، وذلك بأن يعلو على البيت الذي استند رسول اللهﷺ إلى جداره فيلقي عليه صخرة تقتله.

إلا أنّ هذه المؤامرة انكشفت قبل تنفيذها، إما من خلال حركات أولئك اليهود الخبثاء، المشبوهة، أو بخبر أتى رسول الله ﷺ من السماء، كما يروي ابنُ هشام والواقدي في مؤلفيهما.

فنهض رسول اللهﷺ سريعاً، كأنه يريد حاجة، وتوجه من توّه إلى المدينة دون أن يخبر أصحابه الذين أتوا معه، بقصده. وبقي أصحابه هناك ينتظرون عودته من حاجته دون جدوى.

وندم أولئك اليهود على ما صنعوا، واضطربوا لذلك اضطراباً شديداً، وأصابتهم حيرة شديدة فيما يجب أن يفعلوا. فمن جهة خشيت طائفة منهم أن يكون رسول اللهﷺ قد علم بمؤامرتهم وتواطئهم، فيقدم على تأديبهم لنقضهم ميثاق التعايش السلميّ، ولتواطئهم القبيح، ومكرهم السيّئ. ومن ناحية أخرى أخذت تفكّر في أن تنتقم من أصحابه الموجودين هنا إن هو فاتهم، ولكنها خشيت أن يؤدي ذلك إلى مزيد من تأزّم الموقف، وان ينتقم رسول اللهﷺ حينئذ منهم قطعاً ويقيناً.

أمر رسول اللهﷺ المسلمين بالتهيّؤ لحربهم، والسير اليهم، ثم دعا محمد بن مسلمة وأمره بأن يذهب إلى بني النضير، ويبلغ سادتهم، من قِبله رسالة. فخرج محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي إلى بني النضير وقال لسادتهم: إنّ رسول اللهﷺ أرسلني اليكم يقول: «قد نقضتُم العهد الّذي جعلتُ لكم بما هممتُم به من الغدر بي. اُخرجُوا مِن بلادي فقد أجّلتكُم عشراً فمن رُئي بعد ذلك ضربتُ عنقه.

فأحدثت هذه الرسالة الشديدة اللهجة والساخنة المضمون انكساراً عجيباً في يهود بني النضير، وأخذوا يتلاومون، وأخذ يحمّل كل واحد منهم الآخر مسؤولية هذه القضية. فاقترح عليهم أحد سادتهم أن يعتنقوا الاسلام، ويؤمنوا برسول اللهﷺ، ولكن عنادهم منعهم من القبول بهذا الاقتراح. وعمتهم حالة يرثى لها من الحيرة، والانقطاع، فقالوا لمبعوث النبيّﷺ: يا محمّد ما كنّا نرى أن يأتي بهذا رجل من الاوس. ويقصدون أنه كان بيننا وبين الأوس حلف فما بالك تريد حربنا الآن. فقال محمد بن مسلمة: تغيّرت القلوب.

وقد كان هذا الإجراء متطابقاً مع ما جاء في ميثاق التعايش

الذي عقده رسول الله ﷺ مع يهود يثرب أبان دخوله المدينة، وقد وقع عليه عن يهود بني النضير حيي بن أخطب.

جاء في أحد بنود الميثاق (العهد): «ألا يعينوا (أي بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع) على رسول الله ﷺ ولا على أحد من أصحابه بلسانٍ ولا يدٍ ولا بسلاحٍ ولا بكراعٍ في السرّ والعلانيةِ لا بليلٍ ولا بنهارٍ والله بذلك عليهم شهيد، فانْ فعلوا فرسول الله في حلٍّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم، ونسائهم، وأخذِ أموالهم».

كان خطر المنافقين وكما أسلفنا أكبر من خطر اليهود؛ لأن المنافق يطعن من الخلف وتحت غطاء من الصداقة، ويتستر وراءِ قناع الصحبة والزمالة. وقد كان رأس هذا الحزب هو«عبد الله بن اُبي» و«مالك بن اُبي»...

ولّما سمع هؤلاء المنافقون بما يلقاه بنو النضير من رسول الله ﷺ أرسلوا اليهم من يقول لهم: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فان معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة فانه لن يخذلونكم، ويمدّكم حلفاؤكم من غطفان؟!

ولقد جرأت هذه الوعود بني النضير، فانصرفوا عن فكرة الرضوخ لمطلب النبيّ ﷺ فأغلقوا أبواب حصونهم، وأعدُّوا عدة الحرب، وعزموا على أن يقاوموا رسول الله ﷺ مهما كلّف الثمن، ولا يسمحوا للمسلمين بأن يسيطروا على بساتينهم وممتلكاتهم دون عوض.

فنصحهمِ أحد كبرائهم وهو «سلام بن مشكم» وشكك في وعود عبد الله بن ابي، واعتبرها وعوداً جوفاء، وقال: ليس رأي

ابن أُبيّ بشيء، فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا، أو سباء ذرارينا مع قتل مقاتلينا.

إلا أن «حيي بن أخطب» أبى إلا محاربة رسول اللهﷺ وحث الناس على المقاومة والصمود، وأرسل الى رسول اللهﷺ: إنا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع!!

فعرف رسول اللهﷺ برسالة «عبد الله بن ابي» إلى بني النضير، ووعوده لهم، فاستخلف ابن أُمّ مكتوم على المدينة، وسار ﷺ في أصحابه مكبّراً لمحاصرة بني النضير فصلّى صلاة العصر بفضائهم واستقر في الطريق بين «بني النضير» وبين «بني قريظة» ليقطع بذلك سبيل الاتصال بين هذين الفريقين، وحاصر بني النضير ست ليال حسب رواية ابن هشام[1] أو خمسة عشر يوماً حسب روايات آخرين، ولكن اليهود تحصنوا منه في الحصون، وأظهروا المقاومة، والإصرار على الامتناع، فأمر رسول اللهﷺ بقطع النخيل المحيطة بتلك الحصون، وإلقاء النار ليبأسوا من البقاء في تلك المنطقة ما دامت بساتينهم أعدمت، وأفنيت. فتعالت نداءاتُهم تقول: يا محمّد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعهُ، فما بالُ قطع النخل وتحريقها؟!

فردالله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[الحشر:5]. هذا من جهة ومن جهة أخرى خذلهم عبد الله بن أبي، فلم يأتوهم، كما اعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الخذلان إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ

لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۞ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: 11-14]

وقد كشفت الآيات الحاضرة إلى جانب ما ذكر عن الجبن والإدعاءات الجوفاء بالبطولة، والتي انهارت أيضاً بسبب معنويات المسلمين القوية؛ حتى أنهم رغم اجتماعهم وعددهم الكبير يخافون من مواجهة المسلمين فلا يقاتلونهم إلا من وراء أسوار الحصون، وجدران القلاع القوية خائفين مذعورين، ومرعوبين، وهم إلى جانب كل ذلك يعانون من اضطراب وقلق وتفرق كلمة في الواقع.

وأخيراً رضخوا لمطلب رسول الله ﷺ وسألوه أن يجليهم، ويكفَّ عن دمائهم على أن يكون لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح والدروع، فرضي رسول الله ﷺ بذلك.

فاحتملوا من أموالهم أكبر قدرٍ ممكنٍ، حتى أن الرجل منهم يقلع باب بيته فيضعه على ظهر بعيره، ثم يخرب بيته بيديه!! فخرج جماعة منهم إلى خيبر، وسارت جماعة أُخرى منهم الى الشام.

وقد خرجت تلك الزمرة الذليلة المسكينة وهم يضربون بالدفوف، ويزمّرون بالمزامير، وقد ألبسوا نساءهم الثياب الراقية، وحليّ الذهب، مظهرين بذلك تجلّداً ليغطوا على هزيمتهم، ويروا المسلمين أنهم غير منزعجين من مغادرتهم

تلك الديار!!

وقد رأى النبيّ ﷺ أن من الصالح أن يقسم المزارع والممتلكات التي غنمها من بني النضير على المهاجرين دون الأنصار، لحرمانهم من ممتلكاتهم وثروتهم في مكة بسبب الهجرة منها إلى المدينة، وكانوا في الحقيقة ضيوفاً على الأنصار طوال هذه المدة، وقد أيّد «سعد بنِ معاذ» و«سعد بن عبادة» هذا الرأي، ومن هنا قسَّم رسول الله ﷺ جميع تلك المزارع والممتلكات على المهاجرين خاصّة، ولم يصب أحد من الأنصار منها شيئاً إلا رجلان كانا محتاجين هما: «سهل بن حنيف»، و«أبو دجانة»، الأنصاريين، وحصل بذلك انفراج في أحوال المسلمين عامة.

• غزوة الأحزاب

ولقد كان زعماء بني النضير وبني وائل المحرّكين الأصليّين لهذه الحرب، والمشعلين لفتيلها.

وقاموا بتمويل طوائف العرب العديدة؛ فقد أمدّوهم بأموال كثيرة، وهيّأوا كل ما يحتاجون اليه من حاجات ومعدات!!

وقد روي أن الأحداث جرت كالتالي: قدم جماعة من سادة بني النضير مثل «سلام بن أبي الحقيق» و«حيي بنِ أخطب» في نفر من بني النضير على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكونُ معكم عليه حتى نستأصله، فلقد جئنا لنحالفكم على عداوة محمَّد وقتاله.

وقال حيي بن أخطب: إن محمَّداً قد وتركم ووترنا وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلى بني عمّنا بني قينقاع فسيروا في الأرض، واجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير اليهم، فقد بقي من قومي بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة، وبينهم وبين محمَّد عهد وميثاق وأنا أحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمَّد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه انتم من فوق وهم من أسفل.

فأثرّت كلماتُ هؤلاءِ اليهود وما قاله «حييُّ بن اخطب» في نفوس المشركين الحانقين على رسولِ الله، واصحابه، واستحسنوا خطتهم، وابدوا استعدادهم للخروج إلى رسول اللهﷺ وقتاله. ولكنهم قبل أن يوافقوهم على ذلك الرأي سألوهم قائلين: يا معشر اليهود انكم أهلُ الكتاب الأوّل، والعلم، أخبرونا عما اصبحنا نحن فيه ومحمَّد، أفديننا خير أم دين محمَّد؟

ويجب أن نرى الآن بما أجابت هذه الطائفة (التي كانت ولا تزال تعد نفسها حامل لواء التوحيد، الوحيد في العالم) أُولئك المشركين الجهلة الذين وصفوا اليهود بالعلم والمعرفة، وطلبوا منهم حل مشكلتهم؟! «أجل لقد قال أولئك اليهود بوقاحة كبيرة: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق، إنكم لتعظّمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البُدن، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه!!! ولقد كانت هذه الغلطة فظيعة، وقبيحة إلى درجة أنّ الكتّاب اليهود تأسّفوا لوقوعها، في ما بعد.

فهذا هو الدكتور إسرائيل يكتب في كتابه: (تاريخ اليهود في بلاد العرب) حول هذا الموقف المشين جداً قائلاً: «كان من واجب هؤلاء ألا يتورّطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، والا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة».

إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه الواقعة المرة فيقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 51، 52]

كان بنو قريظة الطائفة اليهودية الوحيدة التي بقيت في المدينة تعايش

المسلمين في سلام وأمن، وكانوا يحترمون الميثاق الذي عقدوه مع النبيﷺ، احتراماً كاملاً.

فرأى «حُييُّ بن أخطب» أن طريق الانتصار يتوقف على الاستعانة بمن في داخل المدينة لصالح المشركين، وذلك بأن يدعو يهود بني قريظة الى نقض العهد الذي عاهدوا رسول اللهﷺ عليه. ليشعل بذلك حرباً بين المسلمين ويهود بني قريظة ويشغل المسلمين بفتنة داخلية، وبذلك يمهّد لانتصار المشركين الذين يحاصرون المسلمين خلف الخندق.

وانطلاقاً من هذه الفكرة أتى «حييُّ» الى حصن بني قريظة ودق عليهم الباب وعرّف نفسه، فأمر رئيس بني قريظة «كعب بن الاسد» بأن لا يفتحوا له الباب ولكنه أصر... ففتحوا له وقال لكعب: يا كعب لقد جئتك بعزّ الدهر، هذه قريش في قادتها وسادتها مع حلفائهم من كنانة، وهذه فزارة مع قادتها وسادتها، وهذه سليم وغيرهم، ولا يفلت محمَّد وأصحابهُ من هذا الجمع أبداً وقد تعاقدوا وتعاهدوا الا يرجعوا حتى يستأصلوا محمَّداً ومن معه، فانقض العهد بينك وبين محمّد، ولا تردَ رأيي.

فأجابه كعب قائلاً: لقد جئتني والله بذلّ الدهر، وبسحاب يبرق ويرعد وليس فيه شيء، وأنا في بحر لجي لا أقدر على أن أريم داري ومالي معي، والصبيان والنساء، اني لم أر مِن محمَّد إلا صدقاً ووفاء فارجع عنّي، فانه لا حاجة لي فيما جئتني به.

ولكن حييّ بن أخطب لم يزل يراوض كعباً ويخاتله ويلحّ عليه كما يفعل صاحب الإبل الجامح الذي يستصعب عليه، حتى أقنعه بنقض عهد رسول الله ﷺ وهيّا لذلك، فقال: أنا أخشى أن لا يقتل محمّد وتنصرف قريش إلى بلادها، فماذا تفعلُ حينذاك؟ فوعده حيي أن يدخل معه حصنهُ ليصيبه ما أصابه إن لم يُقتل محمّدﷺ.

فقال كعب: دعني أُشاور رؤساء اليهود فدعا رؤساء اليهود وشيوخهم،

وخبرهم الخبر، وحيي حاضر، وقال لهم كعب: ما ترون؟ فقالوا: أنت سيدنا، والمطاع فينا، وصاحب عهدنا وعقدنا فإن نقضت نقضنا معك وإن أقمت أقمنا معك، وإن خرجت خرجنا معك.

فقال «الزبير بن باطا» وكان شيخاً كبيراً مجرّباً قد ذهب بصره: قد قرأت في التوراة التي أنزلها الله في سفرنا يبعث نبيّاً في آخر الزمان، يكون مخرجُه بمكة، ومهاجرُه في هذه البحيرة... يبلغ سلطانه منقطع الخفّ والحافر فإن كان هذا (أي محمَّد) هو فلا يهولنّه هؤلاء ولا جمعهم، ولو ناوى على هذه الجبال الرواسي لغلبها. فقال أخطب من فوره: ليس هذا ذاك، ذلك النبيُّ من بني إسرائيل، وهذا من العرب من ولد إسماعيل، ولا يكون بنو إسرائيل أتباعاً لولد إسماعيل أبداً، لأنَّ الله فضّلهم على الناس جميعاً وجعل فيهم النبوة والملك، وليس مع محمَّد آية، وإنّما جمعهم جمعاً وسحرهم!!

ولم يزل يقنّع بهم، ويقلّبهم عن رأيهم، ويلحُّ عليهم حتى أجابوه، ورضوا بأن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

بلغ الرسول ﷺ أمر نقض بني قريظة للعهد، فأرسل اثنين من خيرة أصحابه ليتحقّقوا من الأمر، وعندما أكّدوا له ذلك، رفع الرسول ﷺ صوته مكبّراً: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بالفتح»، وهدف الرسول الأكرم ﷺ من ذلك أن لا تضعف معنويات المسلمين، ويتملّكهم الخوف عندما يسمعون بنقض بني قريظة للعهد وهم في تلك الظروف الحرجة.

وذات يوم من أيام الانتظار وراء الخندق كتب أبو سفيان للرسول ﷺ يقول له: "إني أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك في جمعنا وإنّا نريد أن لا نعود إليك أبداً، حتى نستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علّمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منّا يوما كيوم أحد تُبقر فيه النساء."

فأجابه الرسول ﷺ: «من محمّد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب.. أما بعد فقديما غرّك بالله الغرور؛ أمّا ما ذكرت أنّك سرت إلينا في جمعكم وإنّك

لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة وليأتينّ عليك يومٌ تدافعني بالراح، وليأتينّ عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف، ونائلة وهبل حتى أذكّرك ذلك».

فوقعت إجابة الرسولﷺ التي كانت تنبئ عن قوّة إرادة وعزم شديد، وتصميمه القاطع موقع السهم في قلب زعيم المشركين، وحيث أنّ قريش كانت تعتقد بصدق الرسولﷺ فإنّها أصيبت بهذا الردّ الحاسم في عزيمتها ونفسيّتها ولكنّها مع ذلك لم تكفّ من مواصلة عدوانها.

وتحرّكت مجموعة من فرسان العرب الشجعان من بينهم أشهر فرسان قريش: عمرو بن ود، وعكرمة بن ابي جعل وهبيرة بن وهب، ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب؛ واستطاعوا أن يعبروا الخندق من مكانٍ ضيق كان قد أغفله المسلمون، الذين سارعوا إلى محاصرة تلك الثغرة ومنع غيرهم من العبور منها. فطلبوا البراز فلم يتقدّم إليهم سوى عليّ بن أبي طالب، وتمكّن أمير المؤمنينﷺ من أن يقضي على عمرو بن وُد، فألقى هلاك فارس العرب الأكبر، عمرو بن وُد، رعباً عجيباً في نفوس بقية الأبطال الذين عبروا معه الخندق فهربوا راجعين إلى معسكرهم، إلا نوفل الذي سقط في الخندق وطلب المنازلة، فنزل إليه أمير المؤمنينﷺ فقتله، فهيمن بذلك الخوف والرعب على كل معسكر المشركين، وبُهت أبو سفيان أكثر من غيره، وكان يخاف أن يُمثّل بجسد نوفل مثلما حصل في أحد لحمزة فأرسل إلى رسول اللهﷺ ليشتري جثته بعشرة آلاف درهم، فقال له النبي: «هو لكم لا نأكل ثمن الموتى».

لم يكن دافع جيش المشركين ومن عاونهم ومالأهم من اليهود إلى محاربة الإسلام واحداً، فاليهود يخشون من اتّساع رقعة الحكومة الإسلامية الفتيّة، المتزايد، وأما دافع قريش فكان العداء القديم للإسلام والمسلمين، وأما قبائل غطفان وفزارة وغيرها من القبائل فلم يحرّكها إلا الطمع في محاصيل «خيبر» التي وعدهم بها اليهود.

من هنا كلّف الرسولﷺ جماعة بأن يتّصلوا بهذه القبائل ويذكروا لهم بأنّ

المسلمين مستعدّون لإعطائهم ثلث تمر المدينة إن هم تركوا قريشاً وعادوا إلى ديارهم، فأعدّوا عهداً وجاؤوا به إلى النبيّ ليمضيه، ولكن النبيّ شاور فيه سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقالا: يا رسول الله إن كان أمراً من السماء فامضِ به، وإن كان أمراً لم تؤمر به فإنّ الرأي عندنا السيف.

فقال رسول الله ﷺ مبيّناً علّة إقدامه على مثل هذا الصلح: «إنّي رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم، الآن قد عرفت ما عندكم فكونوا على ما أنتم عليه، فإنّ الله تعالى لن يخذل نبيّه، ولن يسلمه حتى ينجز له ما وعده.»

- **خيبر**

يوم طلع نجمُ الإسلام في أرض المدينة انتشر الحقد بين اليهود على رسول الله والمسلمين أكثر من قريش، وعملوا بمختلف الطرق والحيل من اجل القضاء على الإسلام والإيقاع برسول الله ﷺ وأصحابه...

ولقد ابتلي يهود المدينة وما حولها بمصير سيئ نتيجة أعمالهم وتصرّفاتهم السيئة، فقُتلَ فريق منهم، وأُجلي آخرون مثل قبيلة بني قينقاع وبني النضير من أرض المدينة فسكنوا «خيبر» و«وادي القرى» أو نزلوا بأذرعات الشام. وكانت خيبر منطقة واسعة وخصبة تقع على بُعد اثنين وثلاثين فرسخاً من المدينة كان قد سكنها اليهود قبل بعثة النبيّ ﷺ وبنوا فيها سبع قلاع وحصون قوية لتحصنهم وتحفظهم. وحيث أن التربة والمناخ في تلك المنطقة كانت قد جعلت من تلك المنطقة مكاناً جيداً وصالحاً للزراعة جداً، لذلك كان سكانها قد حصلوا على مهارة كبرى في أمور الزراعة وجمع الثروات، وتهيئة وسائل الدفاع والقتال، وإعداد السلاح والقوة. وكان عدد نفوسها يقارب عشرين ألف نسمة بينهم عدد كبير من المقاتلين الشجعان.

إن أكبر ذنب اقترفه يهود «خيبر» هو أنهم شجّعوا جميع القبائل العربية على محاربة الحكومة الإسلامية والقضاء عليها، واستطاع جيش الأحزاب

المشرك بمساعدة يهود «خيبر» أن يتحركوا في يوم واحد من مختلف مناطق الجزيرة العربية لاجتياح المدينة واستئصال المسلمين في أكبر تحالف عسكري من نوعه في ذلك العصر كما ورد في قصة «معركة الأحزاب». ولكن هذا الجيش المعتدي الظالم تفرّق بفعل تدابير رسول الإسلام الحكيمة وأصحابه بعد شهر من الانتظار خلف الخندق، وتقهقر وعادت أحزابه ومن جملتهم يهود خيبر متشتتة متفرقة إلى أوطانها تجرّ أذيال الخيبة والخسران، واستعادت عاصمة الإسلام استقرارها وأمنها.

إنّ خيانة ولؤم أهل خيبر حملت رسول اللهﷺ على أن يقضي على بؤرة المؤامرة ومركز الفساد والخطر هذا، وأن يجرّد سكانها جميعاً من السلاح، لأنه كان يخشى أن يعود هذا التيار المعاند الخبيث ببذل الأموال الطائلة إلى تأليب المشركين مرة أخرى ضد المسلمين ويعيدوا قصة الأحزاب تارة أخرى.

ثم إنّ عاملاً آخر حمل رسول اللهﷺ على تحطيم قدرة الخيبريين وشوكتهم، وانتزاع السلاح منهم ورصد تحركاتهم بواسطة فرسانه ورجاله، أنه راسل الملوك والسلاطين، ودعاهم جميعاً وبشكل قوي إلى الإسلام، فلم يكن من المستبعد أن يستغل «كسرى» و«قيصر» يهود هذه المنطقة، فيتعاونوا جميعاً للقضاء على الإسلام والنهضة الإسلامية في مهدها، أو يحرك اليهود ذينك الملكين ضدّ الإسلام كما حرّكوا المشركين من قبل ضدّ هذا الدين وتسبّبوا في وقوع مشاكل.

من هنا رأى رسول اللهﷺ أن من الحكمة بل ومن الضرورة بمكان أن يطفئ شرارة الخطر هذه إلى الأبد. ولقد خرج مع رسول اللهﷺ الى خيبر ما يقرب من ألف وستمائة مقاتل، بينهم مائتا فارس. وعندما أشرف رسول اللهﷺ على خيبر قرأ الدعاء التالي الذي يكشف عن نيته الحسنة: اللهّم ربّ السماوات وما أظللنَ، وربَّ الأرضيين وما أقللنَ، وربَّ الشياطين وما أضللنَ، وربَّ الرياح وما أذرينَ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّها وشر أهلها وشر ما فيها».

كان لكل حصن من حصون خيبر السبعة اسم خاص يعرف به فهي عبارة

عن: «ناعم» و«القموص» و«الكتيبة» و«النطاة»، و«شقّ» و«سطح»، و«سلالم»، وربما سمّي بعض هذه الحصون باسم زعيم الحصن وسيّده، مثل حصن مرحب. كما أنه كانوا قد بنوا عند كل حصن من تلك الحصون برجاً للمراقبة، ولرصد كل التحركات خارج الحصن، ولأجل أن ينقل الحراس والمراقبون المستقرون في هذه الأبراج الأخبار إلى داخل الحصن.

وقد كانت تلك البروج والحصون قد شيِّدت بحيث يسيطرُ سكانُها على خارج الحصن سيطرة كاملة وكانوا يستطيعون عن طريق المجانيق وغيرها من آلات الرمي إبعاد أي عدو، وإفشال أيّة محاولة للاقتراب إلى الحصن، وذلك برميه بالأحجار وما شابهها. وقد كان بين سكان هذه الحصون البالغ عددهم عشرين ألفاً، ألفان من الفرسان الشجعان والصناديد الأبطال الذين توفرت لهم كل ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب، والذين أعدت لهم في المخازن كل ما يحتاجون إليه من الأسلحة والعتاد. وكانت هذه الحصون من الإحكام والقوة بحيث كان من المستحيل إحداث أيّة ثغرة في حيطانها أيضاً، ومن أراد الاقتراب إليها رمي بالأحجار فجرح بها أو قتل، فكانت هذه الحصون بمثابة المتاريس القوية لمقاتليهم.

لقد واجه المسلمون في هذه الغزوة هذا العدو المسلح، المتمنع بمثل هذه المتاريس القوية، فكان لابدّ لفتح هذه القلاع من استخدام تكتيك عسكري دقيق. ولهذا فانّ أوّل عمل قام به رسول الله ﷺ وأصحابه في هذا السبيل هو احتلال كل النقاط والطرق الحساسة ليلاً. وقد تم هذا العمل بسرية وسرعة بالغة جداً بحيث لم يعرف به حتى مراقبو الأبراج اليقظون أيضاً. ولما كان صبيحة تلك الليلة خرج عُمّال خيبر غادين إلى مزارعهم وبساتينهم وهم يحملون مساحيهم ومكاتيلهم وإذا بهم يفاجَأون بجنود الإسلام الأبطال وقد احتلوا جميع النقاط الحساسة وسدّوا جميع الطرق عليهم بحيث لو قدموا شبراً لقبضَ عليهم، فأفزعهم ذلك وخافوا خوفاً شديداً، فأدبروا هرباً وهم يقولون: محمَّد والجيش معه. وبادروا فوراً إلى إغلاق أبواب الحصون وإحكامها، وعقدوا شورى عسكرية

في داخل حصنهم المركزي.

وعندما رأى رسول اللهﷺ مساحي اليهود ومكاتيلهم وغيرها من أدوات الهدم قال متفائلاً: «الله أكبر خربت خيبرُ أنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذرين».

والمستفاد من المصادر التاريخية هو أن جنود الإسلام حاصروا القلاع والحصون حصناً تلو حصن، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقية الحصون ثم فتحه، ثم محاصرة حصن آخر. ولقد تم فتح هذه الحصون ببطء لأنها كانت مرتبطة ببعضها بارتباط سرّي، أو كان المقاتلون يدافعون عنها دفاعاً مستميتاً، ولكن الحصون التي كان الرعب والخوف يسيطر على مقاتليها وحرّاسها، أو التي ينقطع ارتباطها بالخارج بصورة كاملة كان يتم السيطرة عليها بسهولة، وتسفكُ فيها دماء أقلّ، ويتقدم العمل فيها بسرعة اكبر.

....عندما كلّفَ عليّ‏ؑ من جانب النبيﷺ بفتح قلعتي سلالم والوطيح (وهما الحصنان اللذان عجز عن فتحهما الأميران السابقان)، ارتدى درعاً قوياً وحمل سيفه الخاص ذا الفقار وراح يهرول بشجاعة منقطعة النظير نحو القلعتين المذكورتين، والجندُ خلفَه، حتى ركز الراية التي أعطاها له رسول الله ﷺ على الأرض تحت الحصن.

ولما رأى اليهود انه دنا من الحصن خرج إليه كبار صناديدهم. وكان أول من خرج إليه أخو مرحب ويدعى «الحارث» فتقدم إلى عليّ وصوته يدوي في ساحة القتال بحيث تأخر من كان خلف عليّ من شدة الفزع. ولكن لم يمض زمان حتى سقط الحارث على الأرض جثة هامدة بضربة قاضية من علي عليه السَّلام.

فغضب مرحب بطل خيبر المعروف لمقتل أخيه الحارث وخرج من الحصن وهو غارق في السلاح، فقد لبس درعاً يمانياً، ووضع على رأسه خوذة منحوتة من حجارة خاصة... وفجأة هبط سيف بطل الإسلام القاطع على المفرق من رأس «مرحب» بطل اليهود قدّت خوذته نصفين ونزلت على رأسه وشقته نصفين إلى أسنانه!!

ولقد كانت هذه الضربة من القوة بحيث أفزعت أكثر من خرج مع «مرحب» من أبطال اليهود وصناديدهم ففروا من فورهم، ولجأوا إلى الحصن، وبقي جماعة فقاتلوا علياً منازلة فقاتلهم حتى قتلهم جميعاً، ثم لاحق الفارين منهم حتى باب الحصن، فضربه عند الحصن رجل من اليهود فطاح ترسُه من يده فتناول ﷺ باباً كان على الحصن وانتزعه من مكانه، فترس به عن نفسه فلم يزل ذلك البابُ في يده وهو يقاتل حتى فتح الله على يديه ثم ألقاه من يده حين فرغ، وقد حاول ثمانية من أبطال الإسلام ومنهم أبو رافع مولى رسول الله ﷺ أن يقلبوا ذلك الباب أو يحركوه من مكانه فلم يقدروا على ذلك.

وهكذا فتحت القلعة التي عجز عن فتحها المسلمون عشرة أيام، في مدة قصيرة على يد بطل الإسلام الأول «علي بن أبي طالب» عليه السَّلام.

فتحت حصون «خيبر»، واستسلم أهلها للمسلمين بشروط خاصة، فقد قبل (الرسول ﷺ) طلبهم بأن يسكّنهم في خيبر كما كانوا، وأن يترك أراضيهم، وبساتينهم بأيديهم، على أن يكون له نصف محاصيلها سنوياً. بل إن النبيّ ﷺ كما يروي ابن هشام هو الذي اقترح هذا الأمر على اليهود، وترك لهم حرية التصرف في مزارعهم وأراضيهم ليغرسوا أو يزرعوا ما يريدون من الشجر.

وأما الجزية فقد كان لقاء دفاع الحكومة الإسلامية عنهم، وحمايتهم من الأعداء، وتوفير الأمن لهم، إذ كان حماية أموالهم وأنفسهم من وظائف المسلمين. ولقد كان عامل الجباية الذي كان يزور خيبر بأمر رسول الله ﷺ لتقدير حجم المحاصيل فيها، ثم تنصيفها رجلاً عادلاً ورعاً إلى درجة أن اليهود أنفسهم أعجبوا بعدله، واعترفوا بإنصافه، وهو «عبد الله بن رواحة».

ولقد حصل المسلمون أثناء جمع غنائم «خيبر» على قطعة من التوراة، فطلبت اليهود من النبي ﷺ أن يعيدها إليهم، فأمر رسول الله ﷺ مسؤول بيت المال بإعادتها إليهم.

ولنقف على نموذجين يكشفان عن طبيعة النظرة النبوية إلى اليهود:

1. لما اطمأنّ رسول الله ﷺ قرّرت جماعة من اليهود في الخفاء

أن تقضي على رسول اللهﷺ بدس سمّ إليه. فأهدت له «زينب بنت الحارث» زوجة «سلام بن مشكم اليهودي» شاة مشويّة وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول اللهﷺ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها من السمّ، ثم سمّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول اللهﷺ. تناول الذراع، فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه «بشير بن البراء بن معرور» قد أخذ منها كما أخذ رسول اللهﷺ فأما بشر فقد ابتلعها، وأما رسول اللهﷺ فقد لفظها وعرف بأنها مسمومة، ومات بشر من أكلته التي أكل ثم دعا زينباً، وقال لها: سَمَّمتِ الذراع؟ فاعترفت. فقال لها: ما حملك على ذلك، قالت: قتلت أبي وعمّي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلتُ: إن كان مَلكاً استرحت منه، وان كان نبيّاً فسيُخبر. فعفا عنها رسول اللهﷺ، ولم يلاحق من تواطأوا معها. ولعل ذلك يرجع إلى كون هذه المؤامرة ذات طابع شخصي أو فردي.

2. والنموذج الثاني من الجفاء والكيد حتى بعد عفو النبي، ولطفه أنّ «عبد الله بن سهيل» الذي كُلِّف من جانب النبيﷺ في إحدى السنين بخرص محاصيل خيبر وتقديرها وحمل نصيب المسلمين منها إلى المدينة قتله جماعة مجهولة من اليهود أثناء قيامه بواجبه في خيبر وقد كسروا عنقه وألقوه في بئر، فقدم جماعة من زعماء اليهود المدينة ودخلوا على رسول اللهﷺ وأخبروه بهذه العملية الغادرة المجهول فاعلها، وتقدم إلى رسول اللهﷺ أيضاً «عبد الرحمان» اخو عبد الله بن سهل وابنا عمّه وكان عبد الرحمن من أحدثهم سناً وكان صاحب الدّم فلما تكلّم قبل ابني عمّه قال رسول الله: الكُبر الكُبر (أي قدّموا الاكبر للكلام إرشاداً إلى الأدب في تقديم الأسنّ). فذكروا لرسول الله ﷺ قتل صاحبهم وطلبا القصاص فقال رسول اللهﷺ: «أتسمُّون قاتلكم، ثم تحلفون عليه خمسين

يميناً فنسلّمه إليكم».

وحمل هذا التعليم النبوي أولياء الدم على أن يجعلوا التقوى والورع نصب أعينهم ولم يستسلموا لثورة العاطفة فقالوا: يا رسول الله ما كنّا لنحلف على ما لا نعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفيَحلفونَ (أي يحلف اليهود) بالله خمسين يميناً ما قتلوهُ، ولا يعلمون له قاتلاً، ثم يبرأون من دمه؟».

قالوا يا رسول الله ما كنا لنقبل أيمان اليهود، ما فيهم من الكفر أعظمُ من أن يحلفوا على إثم. فكتب رسولُ الله ﷺ إلى يهود خيبر كتاباً فيه: انه قد وُجدَ قتيل بين أبياتكم فدوه (أي أعطو ديته). فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلاً.

فلما رأى رسول الله ﷺ أن المشكلة قد وصلت إلى طريق مسدودة فداه بنفسه من عنده مائة ناقة. وهكذا اثبت النبي ﷺ لليهود مرة أخرى بأنه ليس داعية حرب ولا طالب قتال وسفك دماء، ولو كان كغيره من الزعماء والسياسيين لاتخذ من قصة مقتل عبد الله ذريعة للقضاء عليهم أو شن حرب نتيجتها معروفة سلفاً.

مقتبس من سيد المرسلين للمؤلف الشيخ جعفر السبحاني،
والصحيح من سيرة النبي الأعظم للسيد جعفر مرتضى

الملحق6:

القرآن والشعر

كان الشعر متداولا في الجاهلية تداولا كبيرا وكان إنشاده في غاية الازدهار عند عرب الجاهلية وسوقه ساخنة كما يقال. فقد كانوا ينشدون الشعر في مجالس اللهو والسمر، وفي ميادين القتال والجدال، وفي رثاء الموتى والتحريض على أخذ الثأر أو الفخر او المباهاة وإبداء الفضل والاستعلاء. وكان سوق عكاظ أحد المواضع المعروفة التي كان الشعراء ينشدون فيها اشعارهم. وذكر ابن سلام ان الشعر في الجاهلية كان ديوان علم العرب ومنتهى حكمتهم ومنه يبدأون وبه يختمون. وقال اليعقوبي: وكانت العرب تقيم الشعر مقام الحكمة وكثير العلم. فإذا كان في القبيلة الشاعر الماهر احضروه في اسواقهم التي كانت تقوم لهم في السنة ومواسمهم عند حجهم البيت حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره ويجعلون ذلك فخرا من فخرهم وشرفا من شرفهم.. ومن مفاخر كل قبيلة نبوغ عدد من الشعراء فيها.

وقال السيوطي: بفضل الشعر حفظ العرب انسابهم وذكروا مآثرهم وتعلموا العربية. وتحدث الدكتور جواد علي بالتفصيل عن تأثير الشعر في ضبط الاخبار الجاهلية. ويمتد ماضي الشعر الموجود الى مائة وخمسين سنة قبل البعثة كما يبدو(فجر الاسلام ص 58) ولا وجود لشاعر معروف وشعر مأثور قبل تلك الفترة. وقد اتخذ الشعر أبعاده الواسعة في عصر عبد مناف ونجله هاشم.. ولم

تدون الاشعار التي انشدت في الجاهلية إلا في أواخر القرن الاول الهجري فصاعدا.

وهكذا كان الشعر أحد الضرورات في حياة العرب، كما كان أداة للتفاخر والاستعلاء النسبي. وذكر الآلوسي ان العرب في الجاهلية كانوا يتفاخرون بحسبهم ونسبهم ويرومون المحافظة على شرفهم ومجدهم وسيادتهم من خلال الشعر. وذكر اليعقوبي أن هدفهم من الشعر هو التخاصم والتمادح والتهاجي. وفي ذلك العصر أيضاً كان الشعراء يهدون قصائدهم لملوك فارس والشام ولرؤساء القبائل بقصد التكسب.

وقيل أن الشعر يعدّ معلما من معالم الثقافة والتمدن عند الأمم، وحيث أنه كان رائجا في الجاهلية فهو دليل على تمدنهم وتكاملهم الفكري. ومعلوم أن الذي يمكن ان يجعل الشعر معلما على تألق الثقافة هو محتواه الرفيع وعواطفه الانسانية النبيلة. وإلا فإن اقتصر على وصف الخضرة وطلوع الشمس وغروبها ووصف الحبيب والحرب وأمثالها فإنه لا يدل على تقدم ثقافي وحضاري. ولم يكن للشاعر الجاهلي موضوع يتناوله في شعره الا البعير في الصحراء والسفر في المفاوز السحيقة ووصف معشوقه والدفاع عن مجد قبيلته وشرفها الخيالي وهجاء اعدائها، وهكذا سائر الشعر الجاهلي كان دأبه الشر والخمر والسيف والجمل وغير ذلك. والكلام هنا يحوم حول محتوى الشعر الجاهلي. أما شكله فالألفاظ أدبية رائعة تدل على سعة اللغة العربية وجمالها.

ويضاف إلى تحليل الشعر الجاهلي كمعلم على ثقافة الجاهلية أن إنشاد الشعر حليف الخيال والكلام غير الواقعي. وهذه هي طبيعة الشعر (إلا ما ندر منه) إذ يضخّم العمل الصغير أو يقدم صورة للعمل إما تعجيزية لا يتسنى تطبيقها أو أن تطبيقها عسير. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع فقال في الشعراء ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾(سورة الشعراء:224،225،226).

وكانت الآيات القرآنية أهم وسيلة بيد رسول الله ﷺ أمام شعر الجاهلية والمشركين طوال البعثة. ويتجلى هذا الأمر أكثر في السنين الأولى من البعثة.

فالتعاليم التي تشرق بها الآيات القرآنية كانت تنزل على رؤوس المشركين كالصاعقة، وتجعلهم معازيل أمام الدعوة الاسلامية، والنّظم القرآني المتناغم وأدبه القويّ وأسلوب الآيات، كل أولئك زاد جاذبية تعاليمه، وأعجز المشركين عن تحدّيه. وهكذا استطاع القرآن الكريم بشكله ومحتواه معا أن ينشر التوحيد في صفوف المجتمع المشرك، ويفتن الناس ويخلبهم. وكان المشركون عاجزين عن ابداء أي نوع من الانتقاد الجاد للآيات القرآنيّة، والشيء الوحيد الذي قاموا به هو أنّهم مارسوا الضغط على المسلمين وضيّقوا عليهم ليحدّوا من امتداد تعاليم القرآن.

إنّ تأثير القرآن على الناس جدير بالدراسة والتّحليل، ونحن نعلم أنّ كثيرا من النّاس كانوا يسلمون بسماع عدد من الآيات. يروى أن طفيل بن عمرو الدّوسيّ وكان حليفا لقريش قدم مكّة يوما فطلب منه أشراف قريش أن يتجنّب محمداً ص ولا يسمع كلامه لأنّه كالسحر وقد أدّى الى تفرقة النّاس واختلافهم في مكّة، فعزم على ذلك. ثم جاء المسجد الحرام يوما ورأى النبيّ ص مشغولا في صلاته فأنصت الى الآيات التي كان يتلوها ص وشعر بحلاوتها، فقال في نفسه: إنّه قادر على تمييز الكلام الجميل من القبيح، فذهب عند رسول الله ص فقرأ عليه ص آيات من القرآن، فقال طفيل: لم أسمع أحسن منها وأعدل. ثم اعتنق الإسلام، وذهب الى قبيلته فأسلم كثيرا منها بسبب وجاهته فيها.

وجاء ضماد الأزديّ الى مكة أيضا وسمع من يقول محمّد مجنون، فقال: لعلّي أبرئه من علّته، وذهب اليه واخبره بما عزم عليه، فتلا رسول الله ﷺ آيات من القرآن فدهش ضماد وطلب منه أن يعيدها عليه، فأعادها فقال: لم أسمع مثلها حتى هذا الحين. وتشهّد وأسلم وبايع عن نفسه وقومه.

وورد في خبر أنّ الوليد بن المغيرة ذهب عند النبيّ ﷺ وقال له: اقرأ عليّ من القرآن، فقرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ فقال: اقرأ. فأعاد عليه الآيات. فقال: ما أحلاها! هذا ليس من كلام البشر.



لقد كان البعد الأدبي للقرآن وجاذبيته من أهم المشكلات التي كان واجهها المشركون. فنثره الرّصين المنطوي على مضامين تناغي القلب قد وجه أذهانهم اليه، بخاصة أنه جاء على لسان من لم تكن له سابقة في عرض هذه الموضوعات ولم يعرّف بهذه الصفة. وبدا للمشركين أن يحسبوا القرآن شعرا: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾، ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾، فللشعر جانب عاطفيّ متدفق، وأساسه جمال الصّورة. بيد ان المتفق عليه تقريبا هو أنّه بقدر ما يتصف به من جاذبيّة الصّورة، فإنّه يخلو من العناصر الاستدلاليّة والعقلانيّة. وما فتئ أداة للتّعبير عن «أجمله أكذبه»، إذ كلّما هدرت عاطفته قلّ بعده العقليّ والواقعيّ. وهذه الارضيّة المزدوجة للشّعر حملت المشركين على عدّ القرآن شعرا، وهذه النّسبة في الوقت الذي يمكن أن توجه جاذبيّته الظاهريّة، فإنّها تضعف جانبه الواقعي.

كان العرب جميعهم ملمين بالشّعر، ويعلمون في قرارتهم أنّ الكلام القرآنيّ ليس شعرا، فللشعر وزن وقافية يخلو منها القرآن الكريم، لكنه ذو نثر موزون مسجّع في بعض مواضعه، والمهم أنّه يتحدث من موقع واقعيّ عمليّ. وما يوصي به هو مواعظ عمليّة ومفاهيم عقليّة ثابتة، لا نثرا مبتنياً على الخيال. وقد اشتهر أن عددا من صناديد قريش كانوا يأتون قريبا من بيت النبيّ ص في بعض الليالي ليلتذوا بسماع صوته حين التّلاوة. وكان عتبّة بن ربيعة يقرّ بأنّ الآيات القرآنيّة ليست شعرا وهو أحد المعارضين الأشدّاء للنبيّ ص. ومثال ذلك أنيس أخو أبي ذر، فقد كان شاعرا ونصّ على أنّ كلام محمد ص لا يشبّه بالشعر.

في مقابل ذلك أكدت الآيات القرآنية أنّ رسول الله ليس بشاعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. وقال سبحانه ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾. وتباهى القرآن الكريم بأسلوبه الأدبيّ وتحدّى الآخرين به وطلب منهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور كسوره أو بسورة واحدة على الأقلّ، بيد أنّ أية محاولة جادّة لم تبذل في هذا المجال إلا بضع مواضع استهزاء. وورد كثيراً

أن المشركين كانوا مأخوذين بجاذبيّة القرآن، وما حال بينهم وبين اعتناقهم الإسلام إلا الاستكبار.

وحريّ بالعلم أنّ الشّعر انزوى في مقابل القرآن الكريم بعد البعثة، وقلّما أنشده أحد في عصر الرسالة إلا ما حظيّ منه بدعم النبيّ ص وما برح المتديّنون والصّالحون لا يقيمون له وزنا، علما أنّ الشّعر الحسن مستثنى دائما.

وإذا عرفنا تأثير الشعر على العرب آنذاك أدركنا حساسية النبيﷺ في قتل الشعراء الذين كانوا يهجون الإسلام والنبي، وقد تناولت كتب السّير قصصهم ومن جملتها:

كانت شاعرة تدعى عصماء تحرّض الاوس والخزرج على النبي في شعرها، وجاء في خبر اسحاق أن النبي سمع شعرها وطلب من الناس أن يكفوه شرّها. فقتلها عمير ابن عدي وأثنى حسان بن ثابت في شعر له على عمله. وكذلك ذكر ابن اسحاق مقتل أبي عَفَك اليهودي قبل مقتل عصماء وكان يحرّض اهل المدينة على النبي في شعره فقتله سالم بن عمير وانشدت امرأة مسلمة شعرا تمدح فيه قاتله.

وقُتل كعب بن الاشرف وكان شاعرا يهوديا هجاء للدين ومن البارزين في أذى النبي. ذهب كعب الى مكة بعد شهر من واقعة بدر وأنشد شعرا في رثاء القتلى من قريش وحرضها على المسلمين. وذكر في المغازي أن أبا سفيان منع قريشا من رثاء قتلاها لتمسك عقدتها وتكظم غيظها ولكن حين رثاهم كعب بن الأشرف سرعان ما بدأ النياح في مكة. ومن الطريف أنه كان إذا نزل كعب على قوم هبّ حسان بن ثابت إلى هجائهم بأمر النبي. ولما كانت قصائده الهجائية قوية فإن من نزل عندهم كعب يطردونه كي لا يتعرضوا لهجاء أكثر. وتكرر هذا الأمر حتى عاد كعب الى المدينة بدون أن يجد له مأمنا فتخلص المسلمون من شره. وذكر عبّاد بن بشر القصة الجميلة لمقتل كعب بن الاشرف في شعر له يؤكد فيه أنهم كانوا خمسة سادسهم الله سبحانه، وكثرت الأشعار حول مقتله بين المسلمين.

مقتبس بتصرف من كتاب سيرة محمد للمؤلف رسول جعفريان

الملحق7:

القرآن يفتح باب الفكر والتعقل

كان المجتمع الجاهليّ في شبه الجزيرة العربيّة مجتمعا مغلقا مغلولا بالركود والجمود، خاليا من معالم الثقافة والفكر، وإذ استثنينا بعض الاداب والعادات السّائدة فيه، فلا نجد وسائل تربويّة فكريّة في أوساطه نحو المدرسة والمكتبة وغيرهما.وكانت حياته مدينة لتقليد الغابرين، والتقليد هو الجسر الّذي يوصل قيم الاجيال الخالية الى الأجيال الجديدة، وتعلقهم بالماضي دليل على حقانيّتهم. وكان ذلك الجمود عقبة كبيرة في طريق تقدّمهم ورفعته، ولم يرضوا بالتغيير والتبديل وهذا هو عين الجمود.

وكان أحد الحواجز الماثلة الّتي تقف حجر عثرة في طريق التقدّم الفكريّ للعرب في العصر الجاهليّ هو نظرتهم الحسيّة وفقدان التفكّر العقليّ عندهم. فكانوا لا يقبلون الا ما يرونه بأمّ أعينهم محرومين من الحقائق القابلة للادراك والرؤية بالعقل. من هنا ضربوا عن عقيدة أبيهم ابراهيمعليه السلام صفحا، ورضوا بعبادة حفنة من التماثيل المصنوعة من الشجر والحجر.

وفي ضوء هذه النظرة الماديّة التي كانوا يتبنونها يبرّر الدكتور جواد علي اعراضهم عن عقيدة التوحيد وإقبالهم على عبادة أصنام محسوسة ملموسة، وحاول القرآن الكريم أن ينقل نظرتهم الحسيّة الى مستوى اعلى، ويوجِدَ

لديهم أرضيَة التعقّل والتفكر، ومن ثم يعرّفهم على الآيات الآفاقية والأنفسيَة. فعرض الاعتقاد بالغيب الى جانب الاعتقاد بالشهادة، وعزّز أساس الدين المتمثل بالاعتقاد بالغيب، علما أنّه لم يهمل النظرة الحسيّة بل رشّدها بنحو من الانحاء ليستقوي العقل ويهتدي الى الله والغيب عن طريق التأمل فيها. ونعرف في القرآن آيات كثيرة تدعو الناس الى معرفة الآيات الآفاقية. وللقرآن نفسه كمعجزة فكريّة تأثير باهر في توطيد أبعاد التفكّر والتعقّل. وعندما كان المشركون يطلبون معجزات حسيّة يجيبهم الله سبحانه طالبا منهم التأمّل في القرآن نفسه والوقوف على حقانيّة الإسلام. وما تعظيم القرآن للعلم والمعرفة، واستعماله مفاهيم واسعة تدور حول الفهم والدرايّة إلا آية على الحركة التبليغيّة المكثّفة للقرآن في فتح طريق التفكر والتعقّل. وهو الطريق الّذي أبدع التمّدن الإسلاميّ العظيم في نهاية المطاف.

وقيل: إن تقليد الأوّلين والشأن الّذي كان يوليه المشركون لثقافتهم القديمة يشكلان عقبة كبيرة في طريق تقدّم المجتمع وتطوّره. وكانت شخصيّة القبيلة رهينة بحفظ ميراثها وسابقتها التاريخيّة. من هنا كان أهم ما يتذرّع به المشركون في معاداة الإسلام هو قول رسول الله ﷺ إنّ آباءهم واجدادهم كانوا في ضلال، فهم في النّار. وهاجم القرآن هذا الضّرب من التقليد في العقائد والقيم الفارغة الواهية، وطالبهم أن يجعلوا «العلم» و «البرهان» أساسا لمارساتهم وعزائمهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء). ونقل سبحانه عن المشركين فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة). ومن المناسب أن نشير هنا الى تأكيد القرآن الكريم الحكمة، وهي الحكمة الّتي علّمها الأنبياء النّاس، وعلّمها رجل مثل لقمان الحكيم وهو ليس من الأنبياء ابنه فالحكمة هي القدرة

على تمييز الحسن من القبيح، أي المصالح والمفاسد، والصحيح من السّقيم في نطاق العقل النظري والعملي. بعبارة أخرى الحكمة في قسم العقائد، وفي قسم الأخلاق على حدّ سواء، من أهمّ المفاهيم العلميّة الّتي اكّدها القرآن الكريم وطلب من النّاس أن يتعلموها.

وكان انغلاق المجتمع الجاهليّ النّاجم نوعا ما عن طبيعة النّظام القبليّ، ولسبب ما عن فقدان الارتباط الثقافي الوثيق بسائر الشعوب قد أدّى الى جموده . ففي حين أن بعض التجار من قريش كانوا يرحلون من هنا وهناك بيد أنّ رحلاتهم هذه لم تؤثر تأثيرا كبيرا في التطور الفكري لشبه الجزيرة العربية. وكانت مكة وحدها قد تأثرت بنماذج من الأفكار اليهودية أو المجوسيّة. وكسراً لذلك الجمود الفكريّ كان على الإسلام أن يوسّع الأفق الفكريّ لأهل تلك الدّيار، وعليهم أن يبتعدوا عمّا تبنّوه من نهج وهموا أنّه سبيلهم الوحيد، وأنّه هو الحقيقة بعينها، وأن ينفتحوا على سائر الأفكار. وإذا كان الاتّصال بسائر الأمم متعذّرا، فلا يتعّذر تعريفهم بالمساجلات الفكرية من خلال التّاريخ وجعل الاستدلالات المتنوعة على مسبار التجربة عبر ذلك الطّريق ونحن نعلم أنّ قسما كبيرا من آيات السّور المكيّة ذو صبغة تاريخيّة، إذ تتحدّث الآيات المذكورة عن طبيعة النضال الّذي كان قائما بين الشّرك والتوحيد، وعن تجربة الأمم الغابرة. وهذه التّجارب كانت تفتح الأفق الفكريّ للمجتمع الجاهليّ وتدلّه على انّ هذه الآيات التاريخية هي دعم القرآن الكريم لفكرة التوحيد وتعريفها كفكرة أصيلة في التّاريخ، وكان الشرك بوصفه عقيدة واهية يجر اليه النّاس الذين يتّبعون الظّنّ لا البرهان. وأتباع التوحيد رجال أتقياء اولو ألباب وبصائر، أمّا اتباع الشرك فإنّهم رمز الفسق والفجور، وأولو بلادة فطريّة وعقليّة. على أيّ حال، كان للدعوات القرآنيّة المتكررّة لمعرفة الامم الأخرى أن تخرج المجتمع الجاهليّ من رتابته وتعدّه لقبول الدّين الجديد. وقصص الأنبياء في القرآن الكريم تستهدف كذلك، إحياء الأمل في نفوس

المؤمنين وتثبيت قلب النبي. وكان يقال للنبيﷺ أنّ المشاكل التي يلاقيها في طريق نشر دعوته كان يلاقيها الانبياء من قبله أيضا، وعليه أن يكون مثلهم في رجاء النصر الالهي، قال تعالى ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي الآيات التاريخية أيضا تفصيل لأنواع العذاب الّذي نزل بالأمم السّابقة . وهذه الموضوعات وردت أساسا لتهديد المشركين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

مقتبس من سيرة محمد للمؤلف رسول جعفريان

الملحق8:

القرآن يواجه الروح القبلية

أرسى القرآن الكريم قواعد جديدة للعلاقات في المجتمع فأعلن «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» فآخى الرسول بين المسلمين في مكة قبل الهجرة، ثم عاد وآخى بين المهاجرين والأنصار في المدينة وجعل الفقير أخاً للغني. وقد ورد في السيرة حين آخى الرسول بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الانصاري أن سعداً قال لعبد الرحمن: « أنا أثرى أهل المدينة فخذ لك من أموالي شيئاً». وأسقطت آيات القرآن كل الروابط الجاهلية والقبلية ورسخت مبدأ الإيمان معياراً للأخوّة بين المسلمين. ولعل اجمل وصف لتلك الرابطة الايمانية كلام أمير المؤمنين في نهج البلاغة: «ولقد كنا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك الا إيماناً وتسليماً»

وسعى الرسول حثيثا للقضاء على تلك الروح القبلية المتجذرة في النفوس، مستفيدا من كل الظروف والأحداث، فتمكّن في بيعة العقبة الثانية ان يوحّد الذين أسلموا من قبائل يثرب المختلفة ضمن بوتقة واحدة اقسمت على الدفاع عن رسول الله كما يدافعون عن ارواحهم واموالهم وأهليهم. فقال البراء بن عازب: «نحن أبناء الحرب والسلاح، وسندافع عنك كما ندافع عن اعراضنا».

وقلّل القرآن الكريم من شأن التّضامن القبليّ، وحثّ أفراد القبيلة على جعل الحقّ والباطل مقياسا لأعمالهم وعلاقاتهم، ومن منظاره فإنّ كلّ شخص مسؤول عن عمله ولا ارتباط لعمله بالقبيلة، أو بالعكس إذا ارتكب أحد خطأ فليس لقبيلته أن تدعمه بلا مسوّغ، وأكّد هذه الشخصيّة الفكريّة المستقلّة كثيرا، قال تعالى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾. وحين قال المشركون للنبيﷺ: لو كانت قيامة وأراد ربك أن يلقينا في جهنم فإننا مع اقاربنا نقف أمامه ولا نمكنه من أنفسنا، نزلت الآية الكريمة ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وعلى أساس هذه الآيات يمكن القول ان الله سبحانه أراد في آياته ان يجعل كل شخص مسؤولا عن عمله خارج التبعيّة القبليّة. وكذلك في آية ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يؤكد الزمخشري أنّ مآل هذه العظة هو أن الاجتماع (لا سيّما اجتماع المشركين) ممّا يشوّش الخواطر ويعمي البصائر، ويمنع من الرويّة، ويخلط القول، ومع ذلك يقلّ الانصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصّب، ولا يسمع الا نصرة المذهب. بيد أنّه إذا كان وحده فإنّه يستطيع التأمل والتفكّر وعندئذ يقف على زيف التّهم التي يبثّها المشركون. وبهذه التربية يترك الشخص التعلّق الفئويّ والطائفيّ من أجل التّفكّر. وحينئذ يدرك فكرة التوحيد في الإسلام ببال أكثر رخاء.

والتّعليم الأهم في القرآن الكريم هو انّه جعل التقوى معيارا للتفاضل بين النّاس، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وفي ضوئه استطاع كثير من الفقراء أن يتخلّصوا من الحرمان القيميّ والاجتماعي، ويجدوا قيمتهم الحقيقيّة في المجتمع. قال ص «بعثت لرفع قوم ووضع آخرين». وقال أيضاً ﷺ «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ولذا كان يُرى الأسود والأبيض والعربي والأعجمي والغني والفقير في صف واحد بين المسلمين رغم بقاء تجذر الحمية الجاهلية في نفوس الكثيرين.

ومن المؤسف أنّ النظام القبليّ كان من أهم العقبات في طريق تحكيم الحقّ والباطل معيارا في فكر المسلمين الأوائل وعملهم. مع هذا أفلح النبيّﷺ في تغيير ذلك النظام الى حدّ كبير في حياته، وفي تعريف المسلمين بمعيار الحقيقة حتّى بلغ الأمر بالمسلم أن يقف أمام أبيه في الحرب. وإن انقلب الكثيرون على أعقابهم في حياته وبعد رحيله.

مقتبس بتصرف من موسوعة التاريخ الإسلامي - اليوسفي الغروي وسيرة محمد - رسول جعفريان

الهوامش

1. [الإحتجاج] بالإسْناد إلى أبي محمّد العسْكريّ عنْ آبائه عنْ عليٍّ ﷺ قال: إنّ النّبيّ ص أتاه ثقفيٌّ كان أطبّ العرب فقال له: إنْ كان بك جنونٌ داويْتك. فقال له محمّدٌ ﷺ: أتحبّ أنْ أريك آيةً تعْلم بها غناي عنْ طبّك وحاجتك إلى طبّي؟ فقال: نعمْ. قال: أيّ آيةٍ تريد؟ قال: تدْعو ذلك العذْق، وأشار إلى نخْلةٍ سحوقٍ، فدعاها فانْقلعتْ أصولها من الْأرْض وهي تخدّ الْأرْض خدّاً، حتّى وقفتْ بيْن يديْه، فقال له: أكفاك؟ قال: لا. قال: فتريد ماذا؟ قال: تأْمرها أنْ ترْجع إلى حيْث جاءتْ منْه، ولتسْتقرّ في مقرّها الّذي انْقلعتْ منْه. فأمرها فرجعتْ واسْتقرّتْ في مقرّها.
2. وقد حاول القرآن ونبيّ الإسلام تخليص العرب من هيمنة أهل الكتاب، بالإستناد إلى ما من شأنه أن يزعزع الثقة بما يقدمونه من معلومات، على اعتبار ﴿إنهم يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه﴾وإنهم: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا﴾. وإنهم رغم أنهم يعرفون النبيﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، فإنهم ينكرون ذلك بالكلية، وذلك حسداً من عند أنفسهم. كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية الشريفة.

وقد كان من المفروض: أن يستجيب المسلمون لإرادة الله ورسوله هذه، لا سيما، مع التعليل والتوضيح الذي يذكره القرآن، ونبي الإسلام لهذا المنع، كقولهﷺ: لن يهدوكم، وقد أضلوا أنفسهم، أو قوله: إنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وغير ذلك. ولكنهم خالفوا.[السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم]

3. ضاقت قريش ذرعاً من المبادئ والقيم التي أعلنها الرسولﷺ، والتي استهدفت تدمير أصنامهم ومعتقداتهم، وتأسيس حياة جديدة لم يألفوها، قائمة على العدل الخالص والحق المحض، وقد أعيت بهم السبل والحيل، فقد استجاب لدعوة الرسولﷺ بعض غلمانهم ونسائهم والأرقاء والمستضعفين، وقد رأوا أنّ سياسة العنف والشدّة لا تجدي شيئاً، فأجمعوا على الالتقاء بالنبيﷺ مباشرةً، وشكلوا وفداً بزعامة عتبة بن ربيعة، وكان من سادات قريش، فالتقوا بالنبيّ في البيت الحرام، وبادر عتبة فخاطب الرسولﷺ بناعم القول: "يا بن أخي، إنك منا حيث علمت من السّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها."

وبادر الرسولﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع".

"يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناه علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا، تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه".

ولمّا أنهى عتبة حديثه الحافل بالمغريات والتمنيات، التفت إليه النبيﷺ بعزم قائلاً:

"قد فرغت يا أبا الوليد؟"

"نعم"

"اسمع مني"

"افعل"

وتلا النبيﷺ:

﴿حم(1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ(2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا



﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(4) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾. [فصلت، 41]

ومضى الرسول ﷺ في تلاوة السورة، وبُهر بها عتبة وهام في تيارات مذهلة، والتفت إليه النبيّ قائلاً:

"وقد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك".

وقف عتبة راجعاً إلى أصحابه، وملء إهابه إكبار وإعجاب، وقد بدا عليه التغيّر والذهول، فاستقبله أصحابه قائلين:

"إني سمعت قولاً، والله! ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. فوالله! ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به."

وقد أرشدهم إلى الخير بجميع سبله ومفاهيمه، ولقد نصحهم أن لا يعرضوا بسوء ومكروه إلى الرسول، ويتركوه وشأنه إلا أنهم أعاروا نصحه آذاناً صمّاء، وقالوا له:

"سحرك يا أبا الوليد"

"هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم".[ابن هشام، السيرة النبوية]

4. هناك الكثير من الحقائق الكامنة في حادثة الغدير. ظاهر القضية هو أن الرسول الأكرم ﷺ عالج في ذلك اليوم للمجتمع الإسلامي الفتي - حيث كان قد مضى حينها على انتصار الإسلام وتأسيس ذلك المجتمع حوالي عشرة أعوام - موضوع الحكومة و الإمامة بمعناه الواسع فنصّب الإمام أمير المؤمنين ﷺ خليفة له في غدير خم عند عودته من الحج. ظاهر القضية هذا على جانب كبير من الأهمية طبعاً، وبالنسبة للباحثين في قضايا المجتمع الثوري يعد تدبيراً إلهياً. و لكن فوق هذا الظاهر هناك حقائق كبرى إذا تفطنت لها الأمة و المجتمع الإسلامي فسوف يتضح لها طريق الحياة. في قضية الغدير إذا ركز عموم المسلمين - سواء الشيعة الذين يعدون هذه القضية قضية إمامة و ولاية، أو غير الشيعة الذين يوافقون أصل القضية لكن قراءتهم لها ليست قراءة إمامة وولاية - اليوم على النقاط الموجودة في قضية الغدير فسيحقق ذلك مكاسب عديدة لهم.

من هذه النقاط المهمة أنه في تنصيب الإمام علي ﷺ للحكومة تم الإعلان عن معايير الحكومة و قيمها. أوقف الرسول الأكرم ﷺ في قضية الغدير شخصاً أمام أعين المسلمين و أنظار التاريخ كان يتحلى بكل القيم الإسلامية. شخص مؤمن له أعلى درجات التقوى و الورع و التضحية في سبيل الدين و عدم الرغبة في المطامع الدنيوية.. شخص خرج من الاختبارات و التجارب مرفوع الرأس في كل الميادين الإسلامية.. ميادين الخطر و ميادين العلم و المعرفة. و ميادين القضاء و غيرها. أي بتنصيب الإمام علي ﷺ كحاكم وإمام وولي إسلامي كان يجب على جميع المسلمين طوال التاريخ أن يعلموا أن الحاكم الإسلامي يجب أن يكون شخصاً سائراً في هذا الاتجاه و بهذه المواصفات و قريباً من هذا النموذج و المثال. إذن الذين لا نصيب لهم من القيم و من الفهم الإسلامي و من العمل الإسلامي و من الجهاد الإسلامي و من الإنفاق و التضحية و من التواضع مقابل عباد الله و من سائر الخصوصيات التي كانت للإمام علي ﷺ لا يجدرون بتولي الحكم في المجتمعات الإسلامية. وضع الرسول الأكرم ﷺ هذا المعيار أمام المسلمين و هذا بحد ذاته درس لا ينسى. [الغدير في كلمات الإمام الخامنئي]

5. حدّثني عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ أنّهُ قال: كُنْتُ أمْشي مع رسُولِ اللهِ ﷺ في بعْضِ طُرُقِ المدينةِ فأتيْنا على

حديقة، فقلتُ: يا رسُول الله ما أحسنها منْ حديقة، قال: ﷺ ما أحسنها ولك في الجنّة أحسنُ منها، ثمّ أتينا على حديقة أخرى فقلتُ: يا رسُول الله ما أحسنها منْ حديقة، قال: ما أحسنها ولك في الجنّة أحسنُ منها، حتّى أتينا على سبْع حدائق أقُولُ: يا رسُول الله ﷺ ما أحسنها ويقُولُ لك في الجنّة أحسنُ منْها، فلمّا خلا لهُ الطّريقُ اعتنقني ثمّ أجهش باكياً وقال: بأبي الوحيدُ الشّهيدُ، فقلتُ: يا رسُول الله ما يُبْكيك؟ فقال: ضغائنُ في صُدُور أقوام لا يُبْدُونها لك إلا منْ بعْدي، أحْقادُ بدْر وتراتُ أُحُد، قُلْتُ: في سلامة منْ ديني؟ قال: في سلامة منْ دينك، فأبشر يا عليّ فإنّ حياتك وموْتك معي وأنْت أخي وأنْت وصيّي وأنْت صفيّي ووزيري ووارثي والمُؤدّي عنّي، وأنْت تقضي ديْني وتُنجزُ عداتي عنّي، وأنْت تُبْرئُ ذمّتي وتُؤدّي أمانتي وتُقاتلُ على سُنّتي النّاكثين منْ أُمّتي والقاسطين والمارقين، وأنْت منّي بمنزلة هارُون منْ مُوسى، ولك بهارُون أُسْوةٌ حسنةٌ إذ استضعفهُ قوْمُهُ وكادُوا يقْتُلُونهُ فاصْبرْ لظُلْم قُريْش إيّاك وتظاهُرهمْ عليْك فإنّك بمنْزلة هارُون منْ مُوسى ومنْ تبعهُ، وهُمْ بمنْزلة العجْل ومنْ تبعهُ، وإنّ مُوسى أمر هارُون حين استخْلفهُ عليْهمْ إنْ ضلُّوا فوجد أعْواناً أنْ يُجاهدهُمْ بهمْ وإنْ لمْ يجدْ أعْواناً أنْ يكُفّ يدهُ ويحْقن دمهُ ولا يُفرّق بيْنهُمْ، يا عليُّ ما بعث اللهُ رسُولاً إلا وأسْلم معهُ قوْمُهُ طوْعاً وقوْمٌ آخرُون كرْهاً، فسلّط اللهُ الّذين أسْلمُوا كرْهاً على الّذين أسْلمُوا طوْعاً فقتلُوهُمْ ليكُون أعْظم لأجُورهمْ، يا عليُّ إنّهُ ما اختلفتْ أُمّةٌ بعْد نبيّها إلا ظهر أهْلُ باطلها على أهْل حقّها وإنّ الله قضى الفُرْقة والاختلاف على هذه الأُمّة وساق الخبر إلى قوْله وصبْراً على بلائه وتسْليماً ورضاً بقضائه.

6. عن أبي بصير قال: سألتُ أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ أطيعُوا الله وأطيعُوا الرّسُول وأُولي الأمر منكُم فقال نزلت في عليّ بن أبي طالب والحسن والحُسين ع فقُلتُ لهُ إنّ النّاس يقُولُون فما لهُ لم يُسمّ عليّاً وأهل بيته ﷺ في كتاب الله عزّ وجلّ قال فقال قُولُوا لهُم إنّ رسُول الله ﷺ نزلت عليه الصّلاةُ ولم يُسمّ اللهُ لهُم ثلاثاً ولا أربعاً حتّى كان رسُولُ الله ﷺ هُو الّذي فسّر ذلك لهُم ونزلت عليه الزّكاةُ ولم يُسمّ لهُم من كُلّ أربعين درهماً درهمٌ حتّى كان رسُولُ الله ﷺ هُو الّذي فسّر ذلك لهُم ونزل الحجُّ فلم يقُل لهُم طُوفُوا أُسبُوعاً حتّى كان رسُولُ الله ﷺ هُو الّذي فسّر ذلك لهُم ونزلت أطيعُوا الله وأطيعُوا الرّسُول وأُولي الأمر منكُم ونزلت في عليّ والحسن والحُسين فقال رسُولُ الله ﷺ في عليّ من كُنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ وقال ﷺ أُوصيكُم بكتاب الله وأهل بيتي فإنّي سألتُ الله عزّ وجلّ أن لا يُفرّق بينهُما حتّى يُوردهُما عليّ الحوض فأعطاني ذلك وقال لا تُعلّمُوهُم فهُم أعلمُ منكُم وقال إنّهُم لن يُخرجُوكُم من باب هُدًى ولن يُدخلُوكُم في باب ضلالة فلو سكت رسُولُ الله ﷺ فلم يُبيّن من أهلُ بيته لادّعاها آلُ فُلان وآلُ فُلان ولكنّ الله عزّ وجلّ أنزلهُ في كتابه تصديقاً لنبيّه ﷺ إنّما يُريدُ اللهُ ليُذهب عنكُمُ الرّجس أهل البيت ويُطهّركُم تطهيراً فكان عليٌّ والحسنُ والحُسينُ وفاطمةُ ﷺ فأدخلهُم رسُولُ الله ﷺ تحت الكساء في بيت أُمّ سلمة ثُمّ قال اللّهُمّ إنّ لكُلّ نبيّ أهلاً وثقلاً وهؤُلاء أهلُ بيتي وثقلي فقالت أُمُّ سلمة ألستُ من أهلك فقال إنّك إلى خير ولكنّ هؤُلاء أهلي وثقلي". [الكافي]

عَن ابْن عَبّاس أَنّ رَسُولَ الله ﷺ حينَ قَدمَ المَدينَةَ وَ استَحْكَمَ الإسْلامَ قَالَت الأَنْصَارُ فيمَا بَيْنَهُمْ يَأْتي رَسُولَ الله ﷺ فَنَقُولُ لَهُ تَعْرُوكَ أُمُورٌ فَهَذه أَمْوَالُنَا فَاحْكُمْ فيهَا غَيْرَ حَرج وَ لا مَحْظُور عَلَيْكَ فَأَتَوْهُ في ذَلكَ فَنَزَلَ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً إلَّا الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبى فَقَرَأَهَا عَلَيْهمْ فَقَالَ تَوَدُّونَ قَرَابَتي منْ بَعْدي فَخَرَجُوا منْ عنْده مُسَلّمينَ. [بحار الأنوار]

عَن ابْن عَبّاس قَالَ لَمّا نَزَلَ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً إلَّا الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبى
قَالُوا يَا رَسُولَ الله مَنْ قَرَابَتُكَ الَّذينَ وَجَبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتُهُمْ قَالَ عَليٌّ وَ فَاطمَةُ وَ ابْنَاهُمَا [بحار الأنوار]



﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾

عن الرسول الأكرم أنه قال للسيدة الزهراء: «أما علمت أن الله تعالى اختار أباك فجعله نبيا، وبعثه إلى كافة الخلق رسولا، ثم اختار عليا فأمرني فزوجتك إياه، واتخذته بأمر ربي وزيرا ووصيا، يا فاطمة إن عليا أعظم المسلمين على المسلمين بعدي حقا، وأقدمهم سلما و أعلمهم علما، وأحلمهم حلما، وأثبتهم في الميزان قدرا» [بحار الأنوار]

7. أخرج ابن مردويه عن أبي ليلى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: تمسكوا بطاعة أئمتكم ولا تخالفوهم فإن طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله فإن الله إنما بعثني أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فمن خالفني في ذلك فهو من الهالكين وقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ومن ولي من أمركم شيئا فعمل بغير ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: «وجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» قال: قال ﷺ: بالقرآن. وفي الكافي: عنه بإسناده عن أبي عمر والزبيري عن أبي عبد الله ﷺ: في قوله تعالى: «ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، قال بالقرآن".

8. عنْ أَبِي عمْرٍ و زاذان قال: لمّا واخى رسُولُ اللّه ﷺ بيْن أصْحابه وآخى بيْن سلْمان والْمقْداد فدخل الْمقْدادُ على سلْمان وعنْدهُ قدْرٌ منْصُوبةٌ على اثْنتيْن وهي تغْلي منْ غيْر حطب فتعجّب الْمقْدادُ وقال يا أبا عبْد الله هذه الْقدْرُ تغْلي منْ غيْر حطب فأخذ سلْمانُ حجريْن فرمى بهما تحْت الْقدْر فالْتهب فيهما فقال لهُ الْمقْدادُ هذا أعْجبُ يا أبا عبْد اللّه فقال لهُ سلْمانُ لا تعْجبْ أليْس اللّه يقُولُ جلّ منْ قائل وقُودُها النّاسُ والْحجارةُ ففارت الْقدْرُ فقال سلْمانُ يا مقْدادُ سكّنْ فوْرتها فقال الْمقْدادُ ما أرى شيْئاً أُسكّنُ به الْقدْر فأدْخل سلْمانُ يدهُ في الْقدْر فأدارها فسكنت الْقدْرُ منْ فوْرها فاغْترف منْها بيده فأكل هُو والْمقْدادُ فدخل الْمقْدادُ على رسُول اللّه ﷺ فأعاد عليْه خبر النّار والْقدْر وفوْرتها فقال رسُولُ اللّه ﷺ سلْمانُ ممّنْ يُطيعُ اللّه ورسُولهُ وأميرَ الْمُؤْمنين ﷺ فيُطيعُهُ كُلُّ شيْء ولا يضُرُّهُ شيْء. [مستدرك الوسائل]

9. قال علي بن إبراهيم: "ولما أتى على رسول الله ﷺ زمان عند ذلك أنزل الله عليه ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فخرج رسول الله ﷺ وقام على الحجر وقال يا معشر قريش يا معشر العرب أدعوكم إلى عبادة الله وخلع الأنداد والأصنام وأدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فأجيبوني تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم وتكونون ملوكا فاستهزءوا منه وضحكوا وقالوا جن محمد بن عبد الله وآذوه بألسنتهم وكان من يسمع من خبره ما سمع من أهل الكتب يسلمون فلما رأت قريش من يدخل في الإسلام جزعوا من ذلك ومشوا إلى أبي طالب وقالوا كف عنا ابن أخيك فإنه قد سفه أحلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا وقالوا يا محمد إلى ما تدعو قال إلى شهادة أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد كلها قالوا ندع ثلاث مائة وستين إلها ونعبد إلها واحدا وحكى الله تعالى قولهم ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ إلى قوله بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ﴾ ثم قالوا لأبي طالب إن كان ابن أخيك يحمله على هذا العدم جمعنا له مالا فيكون أكثر قريش مالا فقال رسول الله ﷺ ما لي حاجة في المال فأجيبوني تكونوا ملوكا في الدنيا وملوكا في الآخرة فتفرقوا ثم جاءوا إلى أبي طالب فقالوا أنت سيد من ساداتنا وابن أخيك قد فرق جماعتنا فهلم ندفع إليك أبهى فتى من قريش وأجملهم وأشرفهم عمارة بن الوليد يكون لك ابنا وتدفع إلينا محمدا لنقتله فقال أبو طالب ما أنصفتموني تسألوني أن أدفع إليكم ابني لتقتلوه وتدفعون إلي ابنكم لأربيه لكم فلما أيسوا منه كفوا". [القصص للراوندي]

10. "العدو الرابع: وهم المنافقون في داخل المدينة من الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، بلداء معاندون يتميزون بضيق الرؤية والقابلية على التعاون مع العدو، لكنهم يفتقدون التنظيم وهذا ما يميزهم عن اليهود.

لقد كان النبي ﷺ يتعامل مع العدو المنظم الواثب لمهاجمة المسلمين كتعامله مع اليهود ولم يمهلهم أبداً، لكنه كان يتحمل العدو غير المنظم ممن تلوث أفراده بالعناد والخبث والعداء والكفر؛ فلقد كان عبد الله بن أبيّ من ألدّ أعداء النبي ﷺ وقد عاصر الرسول ﷺ حتى آخر سنة من عمره تقريباً، ولم يسئ ﷺ التعامل معه مع علم الجميع بنفاقه، وكان ﷺ يداريه ويعامله كباقي المسلمين من حيث عطائه من بيت المال وصيانة أمنه وحرمته، كان ذلك منه ﷺ بالرغم من خبث هذه الفئة وإساءتها، وفي سورة البقرة مقطع يختص بهؤلاء المنافقين.

ولمّا اتخذ تجمع بعض المنافقين طابع التنظيم بادر إليهم النبي ﷺ، كما في قضية مسجد ضرار حيث اتخذوا منه مركزاً وأقاموا اتصالات مع عناصر من خارج النظام الإسلامي من قبيل الراهب أبي عامر من بلاد الروم، وأعدوا مقدمات تحشيد الجيوش لمحاربة النبي ﷺ، فبادر إليهم النبي ﷺ وهدم المسجد الذي بنوه وأحرقه، معلناً أنه ليس بمسجد بل بؤرة للتآمر على المسجد وعلى اسم الله والمسلمين! أو تلك الحفنة من المنافقين الذين أعلنوا كفرهم وخرجوا من المدينة وحشدوا قواهم فقاتلهم النبي ﷺ وقال: لئن دنَوا من المدينة لأخرجن لقتالهم. وإن سالم ﷺ المنافقين في داخل المدينة ولم يتعرض لهم أبداً.

وهكذا فقد واجه النبي ﷺ الفئة الثالثة مواجهة منظمة صارمة، لكنه سلك طريق المداراة مع الفئة الرابعة لافتقادهم التنظيم، والخطر الصادر منهم يمثل خطراً فردياً، كما أنه ﷺ كان يؤنبهم بسلوكه أيضاً. [الإمام الخامنئي، معالم النظام النبوي]

11. هذه نماذج من الكتب التي كان قد أرسلها النبي ص إلى ملوك وزعامات ذلك الزمان تظهر فيها عالمية الإسلام وأسلوب دعوته:

1. كتابه ﷺ إلى النّجاشي الأوّل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ× هذا كتابٌ من محمد رسول الله إلى النّجاشي عظيم الحبشة:

سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى و آمن بالله و رسوله و شهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، لم يتّخذ صاحبَةً وَ لا وَلَداً و أنّ محمّدا عبده و رسوله، و أدعوك بدعاية الله، فإنّي رسوله، فأسلم، تسلم.

يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فإن أبيت فعليك إثم النّصارى من قومك.

2. كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الرّوم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ× من محمّد، عبد الله و رسوله، إلى هرقل، عظيم الرّوم، سلامٌ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى.

أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، و أسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فعليك إثم الأريسيّين. و يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.

3. كتابه ﷺ إلى كسرى، ملك الفرس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ× من محمّد، رسول الله، إلى كسرى، عظيم فارس:

سلام عَلى مَن اتَّبَعَ الْهُدى، و آمن بالله و رسوله، و شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أن محمّدا عبده و رسوله؛ أدعوك بدعاية الله، فإنّى أنا رسول الله إلى النّاس كافّة؛ لأنذر مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ؛ فأسلم تسلم؛ فإن أبيت فإنّ إثم المجوس عليك.

4. كتابه ﷺ إلى المقوقس، عظيم القبط

بِسْم الله الرَّحْمنِ الرَّحيم× من محمّد عبد الله و رسوله إلى المقوقس، عظيم القبط:
سَلامٌ عَلى مَن اتَّبَعَ الْهُدى.

أمّا بعد، فإنّى أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإنّ تولّيت فإنّ عليك إثم اهل القبط.

يا أَهْلَ الْكتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.

5. كتابه ﷺ إلى يهود خيبر

بِسْم الله الرَّحْمنِ الرَّحيم× من محمّد رسول الله صلّى الله عليه و آله، صاحب موسى و أخيه و المصدّق لما جاء به موسى.

ألا إنّ الله قد قال لكم يا معشر أهل التّوراة، و إنّكم لتجدون ذلك فى كتابكم:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً، سِيماهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ. ذلِكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ. وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً [الفتح، 92]- وإنّى انشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالّذى أيبس البحر لآبائكم حتّى انجاهم من فرعون وعمله إلّا أخبر تمونى:

هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمّد؟ فإن كنتم لا تجدون فى كتابكم فلا كره عليكم. قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فأدعوكم إلى الله وإلى نبيّه.

6. كتابه ﷺ إلى أسقف نجران

بِسْم الله الرَّحْمنِ الرَّحيم من محمّد النّبىّ، رسول الله، إلى أسقف نجران.

سلمٌ أنتم، فإنّى أحمد إليكم إله إبراهيم و إسحق و يعقوب. أمّا بعد؛ فإنّى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد و أدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، و إن أبيتم فالجزية؛ فإن أبيتم آذنتكم بحرب. والسّلام.

الهوامش



1. الله تعالى، القرآن الكريم
2. أمير المؤمنين علي عليه السلام، نهج البلاغة
3. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة
4. الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية
5. الإمام الخميني (قده)، معراج السالكين
6. الإمام الخميني (قده)، وصايا عرفانية
7. الإمام الخميني (قده)، الأربعون حديثاً
8. الإمام الخميني (قده)، جنود العقل والجهل
9. الإمام الخميني (قده)، القرآن الثقل الأكبر
10. الإمام الخميني (قده)، كشف الأسرار
11. الإمام الخميني (قده)، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية
12. الإمام الخميني (قده)، النداء الأخير
13. الإمام الخميني (قده)، سيره نبوي
14. الإمام الخميني (قده)، مكانة المرأة في فكر الإمام
15. الإمام الخميني (قده)، پيامبر أعظم از ديدگاه امام خميني
16. الإمام الخميني (قده)، منهجية الثورة الإسلامية
17. الإمام الخميني (قده)، الإمامة عند الشيعة
18. الإمام الخميني (قده)، الوصية السياسية
19. الإمام الخميني (قده)، أصول الإسلام وفروعه في مدرسة الإمام الخميني
20. الإمام الخامنئي، ولاية الفقيه ظل الحقيقة العظمى
21. الإمام الخامنئي، حقوق المرأة ودورها في المجتمع
22. الإمام الخامنئي، مكانة المرأة في الثقافتين الإسلامية والغربية
23. الإمام الخامنئي، خطابات وبيانات القائد
24. السيد الأسترآبادي، كتاب الرجعة
25. السيد الأسترآبادي، تأويل الآيات الظاهرة
26. باقر شريف القرشي، حياة محمد

27. الشيخ جعفر السبحاني، سيد المرسلين
28. السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم
29. رسول جعفريان، سيرة محمد ﷺ
30. السيد محمد باقر الصدر، نشأة التشيع والشيعة
31. الدكتور محسن باقر الموسوي، السيرة النبوية
32. الشيخ محمد جواد الطبسي، حياة الصديقة فاطمة
33. هاشم معروف الحسني، سيرة المصطفى
34. الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، عصر النبي
35. الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي، موسوعة التاريخ الإسلامي
36. حجّة الإسلام ميرزا جواد التبريزي، أسرار الصلاة
37. برامج نور، جامع الأحاديث
38. برامج نور، جامع التفاسير
39. برامج نور، السيرة النبوية
40. برامج نور، صحيفة الإمام

● اللَّهُمَّ فَارْفَعْهُ بِمَا كَدَحَ فِيكَ إِلَى الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ حَتَّى لاَ يُسَاوَى فِي مَنْزِلَةٍ، وَلاَ يُكَافَأَ فِي مَرْتَبَةٍ، وَلا يُوَازِيَهُ لَدَيْكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَعَرِّفْهُ فِي أَهْلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأُمَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُسْنِ الشَّفَاعَةِ أَجَلَّ مَا وَعَدْتَهُ يَا نَافِذَ الْعِدَةِ، يَا وَافِيَ الْقَوْلِ، يَا مُبَدِّلَ السَّيِّئَاتِ بِأَضْعَافِهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

[الصحيفة السجادية].